

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية قدس الله روحه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) العالم بما كان وما هو كائن وما سيكون الذي :
(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) ، الذي (يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) ، الذي دل على وحدانيته في إلهيته أجناس الآيات ، وأبان عليه لخليقته ما فيها من إحكام المخلوقات ، وأظهر قدرته على بريته ما أبدعه من أصناف المحدثات ، وأرشد إلى فعله بسنته تنوع الأحوال المختلفة ، وأهدى برحمته لعباده نعمه التي لا يحصيها إلا رب السموات ، وأعلم بحكمته البالغة دلائل حمده وثنائه الذي يستحقه من جميع الحالات ، لا يحصى العباد ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه لما له من الأسماء والصفات ، وهو : المنعوت بنعوت الكمال وصفات الجلال التي لا يماثله فيها شيء من الموجودات ، وهو : القدوس السلام المتنزه أن يماثله شيء في نعوت الكمال ، أو يلحقه شيء من الآفات ، فسبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً . (الَّذِي لَهُ مُلْكُ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا .

أرسل الرسل مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ، مبشرين لمن أطاعهم بغاية المراد من كل ما تحبه النفوس وتراه نعيماً ؛ ومنذرين لمن عصاهم باللعن والإبعاد وأن يعذبوا عذاباً أليماً ، وأمرهم بدعاء الخلق إلى عبادته وحده لا شريك له مخلصين له الدين ولو كره المشركون . كما قال تعالى : (يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) : وجعل لكل منهم شرعة ومنهاجاً ليستقيموا إليه ولا ييغوا عنه اعوجاجاً .

وختمهم بمحمد صلى الله عليه وسلم أفضل الأولين والآخرين ، وصفوة رب العالمين ، الشاهد البشير النذير الهادي السراج المنير الذي أخرج به الناس من الظلمات إلى النور ، وهداهم إلى صراط العزيز الحميد . (اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) . بعثه بأفضل المناهج والشرع ، وأحبط به أصناف الكفر والبدع ، وأنزل عليه أفضل الكتب والأنباء ، وجعله مهيمناً على ما بين يديه من كتب السماء .

وجعل أمة خيرة أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله ، يوفون سبعين أمة هم خيرها وأكرمها على الله . هو شهيد عليهم وهم شهداء على الناس في الدنيا والآخرة بما أسبغه عليهم من النعم الباطنة والظاهرة ، وعصمهم أن يجتمعوا على ضلالة إذ لم يبق بعده نبي يبين ما بدل من الرسالة وأكمل لهم دينهم وأتم عليهم نعمه ورضى لهم الإسلام ديناً ، وأظهره على

الدين كله إظهاراً بالنصرة والتمكين وإظهاراً بالحجة والتبيين ، وجعل فيهم علماءهم وورثة الأنبياء يقومون مقامهم في تبليغ ما أنزل من الكتاب ، وطائفة منصوره لا يزالون ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم إلى حين الحساب . وحفظ لهم الذكر الذي أنزله من الكتاب المكنون كما قال تعالى :
(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) . فلا يقع في كتابهم من التحريف والتبديل كما وقع من أصحاب التوراة والإنجيل .

وخصهم بالرواية والإسناد الذي يميز به بين الصدق والكذب الجهابذة النقاد ، وجعل هذا الميراث يحمله من كل خلف عدوله أهل العلم والدين ؛ ينفون عنه تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين لتدوم بهم النعمة على الأمة ، ويظهر بهم النور من الظلمة ، ويحيي بهم دين الله الذي بعث به رسوله ، وبين الله بهم للناس سبيله ، فأفضل الخلق أتبعهم لهذا النبي الكريم المنعوت في قوله تعالى : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ) .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له : رب العالمين ، وإله المرسلين ، وملك يوم الدين .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله إلى الناس أجمعين : أرسله والناس من الكفر والجهل والضلال ، في أقبح خيبة وأسوأ حال . فلم يزل صلى الله عليه وسلم يجتهد في تبليغ الدين وهدى العالمين وجهاد الكفار والمنافقين ، حتى طلعت شمس الإيمان ، وأدبر ليل البهتان ، وعز جند الرحمن ، وذل حزب الشيطان ، وظهر نور الفرقان ، واشتهرت تلاوة القرآن ، وأعلن بدعوة الأذان ،

واستنار بنور الله أهل البوادي والبلدان ، وقامت حجة الله على الإنس والجان ،
لما قام المستجيب من معد بن عدنان صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين
لهم بإحسان ، صلاة يرضى بها الملك الديان وسلم تسليماً مقروناً بالرضوان .

أما بعد : فإنه لا سعادة للعباد ، ولا نجاة في المعاد إلا باتباع رسوله (وَمَنْ
يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ *) وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ
عَذَابٌ مُهِينٌ (فطاعة الله ورسوله قطب السعادة التي عليه تدور ، ومستقر
النجاة الذي عنه لا تحور .

فإن الله خلق الخلق لعبادته كما قال تعالى : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا
لِيَعْبُدُونِ) . وإنما تعبدكم بطاعته وطاعة رسوله ، فلا عبادة إلا ما هو
واجب أو مستحب في دين الله ؛ وما سوى ذلك فضلال عن سبيله . ولهذا قال
صلى الله عليه وسلم : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » أخرجاه في
الصحيحين ، وقال : صلى الله عليه وسلم في حديث العرياض بن سارية الذي رواه
أهل السنن وصححه الترمذي « إنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً
فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها
بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة » . وفي الحديث الصحيح
الذي رواه مسلم وغيره أنه كان يقول في خطبته « خير الكلام كلام الله وخير
الهدى هدى محمد وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة » .

وقد ذكر الله طاعة الرسول واتباعه في نحو من أربعين موضعاً من
القرآن ، كقوله تعالى : (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) ، وقوله تعالى :

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) . وقوله تعالى : (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ) . وقال تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) . فجعل محبة العبد لربه موجبة لاتباع الرسول ، وجعل متابعة الرسول سبباً لمحبة الله عبده . وقد قال تعالى : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا) . فما أوحاه الله إليه يهدي الله به من يشاء من عباده ، كما أنه صلى الله عليه وسلم بذلك هداه الله تعالى كما قال تعالى : (قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي) . وقال تعالى : (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) .

فبمحمد صلى الله عليه وسلم تبين الكفر من الإيمان ، والرجح من الخسران والهدى من الضلال ، والنجاة من الوبال ، والغنى من الرشاد ، والزيغ من السداد ، وأهل الجنة من أهل النار ، والمتقون من الفجار وإيثار سبيل من أنعم الله عليهم من النيين والصديقين والشهداء والصالحين ، من سبيل المغضوب عليهم والضالين . فالنفوس أحوج إلى معرفة ما جاء به واتباعه منها إلى الطعام والشراب ، فان هذا إذا فات حصل الموت في الدنيا . وذاك إذا فات حصل العذاب .

فحق على كل أحد بذل جهده واستطاعته في معرفة ما جاء به وطاعته ، إذ

هذا طريق النجاة من العذاب الآليم والسعادة في دار النعيم . والطريق إلى ذلك الرواية والنقل . إذ لا يكفي من ذلك مجرد العقل . بل كما أن نور العين لا يرى إلا مع ظهور نور قدامه ، فكذلك نور العقل لا يهتدى إلا إذا طلعت عليه شمس الرسالة . فلماذا كان تبليغ الدين من أعظم فرائض الإسلام . وكان معرفة ما أمر الله به رسوله واجبا على جميع الأنام .

والله سبحانه بعث محمدا بالكتاب والسنة ، وبهما أتم على أمته المنة . قال تعالى : (وَلَآتِيكُمْ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ وَأشْكُرُوا إِلَيَّ وَلَا تَكْفُرُونَ) . وقال تعالى : (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) . وقال تعالى : (وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ) . وقال تعالى : (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) . وقال تعالى : (رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ) . وقال تعالى : (وَادْكُرْ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ) . وقد قال غير واحد من العلماء : منهم يحيى بن أبي كثير وقتادة والشافعي وغيرهم (الحكمة) : هي السنة لأن الله أمر أزواج نبيه أن يذكرن ما يتلى في بيوتهن من الكتاب والحكمة ، والكتاب : القرآن وما سوى ذلك مما كان الرسول يتلوه هو السنة .

وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم من عدة أوجه من حديث أبي رافع

وأبي ثعلبة وغيرهما أنه قال : « لا ألفين أحكم متكثاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول ييتنا وبينكم القرآن فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه » . وفي رواية « ألا وإنه مثل الكتاب » .

ولما كان القرآن متميزاً بنفسه - لما خصه الله به من الإعجاز الذي باین به كلام الناس كما قال تعالى : (قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) وكان منقولاً بالتواتر - لم يطمع أحد في تغيير شيء من ألفاظه وحروفه ؛ ولكن طمع الشيطان أن يدخل التحريف والتبديل في معانيه بالتغيير والتأويل ، وطمع أن يدخل في الأحاديث من النقص والازدياد ما يضل به بعض العباد .

فأقام الله تعالى الجهابذة النقاد ، أهل الهدى والسداد ، فدحروا حزب الشيطان ، وفرقوا بين الحق والبهتان ، وانتدبوا لحفظ السنة ومعاني القرآن من الزيادة في ذلك والنقصان .

وقام كل من علماء الدين بما أنعم به عليه وعلى المسلمين - مقام أهل الفقه الذين فقهوا معاني القرآن والحديث - بدفع ما وقع في ذلك من الخطأ في القديم والحديث ، وكان من ذلك الظاهر الجلي : الذي لا يسوغ عنه العدول ؛ ومنه الخفي الذي يسوغ فيه الاجتهاد للعلماء العدول .

وقام علماء النقل والنقاد بعلم الرواية والإسناد ، فسافروا في ذلك إلى البلاد ، وهجروا فيسه لذيذ الرقاد ، وفارقوا الأموال والأولاد ، وأنفقوا فيه الطارف والتلاد ، وصبروا فيه على النوائب ، وقنعوا من الدنيا بزاد الراكب ،

ولهم في ذلك من الحكايات المشهورة ، والقصص الماثورة ، ما هو عند أهله معلوم ، ولمن طلب معرفته معروف مرسوم ، بتوسد أحدهم التراب وتركهم لذيذ الطعام والشراب وترك معاشرة الأهل والأصحاب والتصبر على مرارة الاغتراب ، ومقاساة الأهوال الصعاب ، أمر حبه الله إليهم وحلاه ليحفظ بذلك دين الله . كما جعل البيت مثابة للناس وأمانا يقصدونه من كل فج عميق ، ويتحملون فيه أموراً مؤلمة تحصل في الطريق ، وكما حُبب إلى أهل القتال : الجهاد بالنفس والمال حكمة من الله يحفظ بها الدين ليهدي المهتدين ، ويظهر به الهدى ودين الحق ، الذي بعث به رسوله ولو كره المشركون .

فمن كان مخلصاً في أعمال الدين يعملها لله : كان من أولياء الله المتقين ، أهل النعيم المقيم . كما قال تعالى : (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) .

وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم البشرى في الدنيا بنوعين : أحدهما : ثناء المثنين عليه .

الثاني : الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح ؛ أو ترى له . فقليل يارسول الله الرجل يعمل العمل لنفسه فيحمده الناس عليه ؟ قال : تلك عاجل بشرى المؤمن . وقال البراء بن عازب : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله لهم البشرى في الحياة الدنيا فقال : « هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح ؛ أو ترى له » . والقائمون بحفظ العلم الموروث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الربان ، الحافظون له من الزيادة والنقصان ، هم من أعظم أولياء الله المتقين وحزبه

المفلحين . بل لهم منزلة على غيرهم من أهل الإيمان والأعمال الصالحات . كما قال تعالى : (يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) . قال ابن عباس : يرفع الله "

وعلم الإسناد والرواية مما خص الله به أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وجعله سلباً إلى الدراية . فأهل الكتاب لا إسناد لهم يثرون به المنقولات ، وهكذا المبتدعون من هذه الأمة أهل الضلالات ، وإنما الإسناد لمن أعظم الله عليه المنة ، أهل الإسلام والسنة ، يفرقون به بين الصحيح والسقيم . والمعوج والقويم .

وغيرهم من أهل البدع والكفار : إنما عندهم منقولات يثرونها بغير إسناد ، وعليها من دينهم الاعتماد ، وهم لا يعرفون فيها الحق من الباطل ، ولا الحال من العاقل .

وأما هذه الأمة المرحومة ، وأصحاب هذه الأمة المعصومة : فإن أهل العلم منهم والدين هم من أمرهم على يقين ، فظهر لهم الصدق من المين ؛ كما يظهر الصبح لذي عينين . عصمهم الله أن يجمعوا على خطأ في دين الله معقول أو منقول ، وأمرهم إذا تنازعوا في شيء أن يردوه إلى الله والرسول كما قال تعالى : (يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) .

فإذا اجتمع أهل الفقه على القول بحكم لم يكن إلا حقاً ، وإذا اجتمع أهل

(١) بياض بالأصل .

الحديث على تصحيح حديث لم يكن إلا صدقاً ، ولكل من الطائفتين من الاستدلال ، على مطلوبهم بالجلي والخفي ما يعرف به من هو بهذا الأمر حفي ، والله تعالى يلهيهم الصواب في هذه القضية ، كما دلت على ذلك الدلائل الشرعية ، وكما عرف ذلك بالتجربة الوجودية ؛ فإن الله كتب في قلوبهم الإيمان ، وأيدهم بروح منه ، لما صدقوا في موالاته الله ورسوله ؛ ومعاداة من عدل عنه . قال تعالى : (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ) .

وأهل العلم المأثور عن الرسول ﷺ : أعظم الناس قياماً بهذه الأصول لا تأخذ أحدهم في الله لومة لائم ، ولا يصددهم عن سبيل الله العظام ؛ بل يتكلم أحدهم بالحق الذي عليه ، ويتكلم في أحب الناس إليه ، عملاً بقوله تعالى : (يَتَأَيَّاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوْا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) وقوله تعالى : (يَتَأَيَّاهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) .

ولهم من التعديل والتجريح ، والتضعيف والتصحيح ، من السعي المشكور ، والعمل المبرور : ما كان من أسباب حفظ الدين ، وصيافته عن إحداث المفترين ، وهم في ذلك على درجات : منهم المقتصر على مجرد النقل والرواية ، ومنهم أهل المعرفة بالحديث والدراية ، ومنهم أهل الفقه فيه ، والمعرفة بمعانيه .

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم الأمة أن يبلغ عنه من شهد لمن غاب ، ودعا للمبلغين بالدعاء المستجاب ، فقال في الحديث الصحيح : « بلغوا عني ولو آية ؛ وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ؛ ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » . وقال أيضاً في خطبته في حجة الوداع : « الا ليبلغ الشاهد الغائب ، قرب مبلغ أوعى من سامع » .

وقال أيضاً : « نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فبلغه إلى من لم يسمعه ، قرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ؛ ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله ، ومناصحة ولاة الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين ؛ فإن دعوتهم تحيط من وراءهم » . وفي هذا دعاء منه لمن بلغ حديثه وإن لم يكن فقيهاً ، ودعاء لمن بلغه وإن كان المستمع أفقه من المبلغ ؛ لما أعطى المبلغون من النضرة ؛ ولهذا قال سفيان بن عيينة : لا تجد أحداً من أهل الحديث إلا وفي وجهه نضرة ؛ لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم يقال : نضر ، ونضر ، والفتح أفصح .

ولم يزل أهل العلم في القديم والحديث يعظمون نقلة الحديث حتى قال الشافعي رضي الله عنه : إذا رأيت رجلاً من أهل الحديث فكأنني رأيت رجلاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وإنما قال الشافعي هذا : لأنهم في مقام الصحابة من تبليغ حديث النبي صلى الله عليه وسلم . وقال الشافعي أيضاً أهل الحديث حفظوا فلهم علينا الفضل لأنهم حفظوا لنا الله .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى :

قاعدة في الجماعة والفرقة وسبب ذلك ونتيجته

قال الله تعالى : (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) .
أخبر سبحانه أنه شرع لنا ما وصى به نوحا ، والذي أوحاه إلى محمد ﷺ ،
وما وصى به الثلاثة المذكورين . وهؤلاء هم أولوا العزم المأخوذ عليهم الميثاق
في قوله : (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى
ابْنِ مَرْيَمَ) . وقوله : (مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ) .
فجاء في حق محمد باسم الذي وبلفظ الإيحاء ، وفي سائر الرسل بلفظ
[الوصية] .

ثم قال : (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ) . وهذا تفسير الوصية ، و (أَنْ) : المفسرة
التي تأتي بعد فعل من معنى القول لا من لفظه . كما في قوله : (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
أَنِ اتَّبِعْ) . (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ)
والمعنى قلنا لهم : اتقوا الله . فكذلك قوله : (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ) في معنى قال :
لكم من الدين ما وصى به رسلا قلنا أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، فالمشروع
لنا هو الموصى به ، والموحى ، وهو : (أَقِيمُوا الدِّينَ) . فأقيموا الدين مفسر

للمشروع لنا ، الموصى به الرسل ، والموحى إلى محمد ﷺ ، فقد يقال : الضمير في أقيموا عائد إلينا . ويقال هو عائد إلى المرسل . ويقال هو عائد إلى الجميع . وهذا أحسن . ونظيره : أمرتك بما أمرت به زيدا . أن أطع الله ، ووصيتكم بما وصيت بنى فلان : أن افعلوا . فعلى الأول : يكون بدلا من (ما) أى شرع لكم (أَنْ أَقِيمُوا) . وعلى الثانى : شرع (ما) خاطبهم . (أَقِيمُوا) فهو بدل أيضاً ، وذكر ما قبل للأولين . وعلى الثالث : شرع الموصى به (أَقِيمُوا) .

فلما خاطب بهذه الجماعة بعد الإخبار بأنها مقولة لنا ، ومقولة لهم : علم أن الضمير عائد إلى الطائفتين جميعاً . وهذا أصح إن شاء الله . والمعنى على التقديرين الأولين يرجع إلى هذا ، فإن الذى شرع لنا : هو الذى وصى به الرسل ، وهو الأمر بإقامة الدين والنهى عن التفرق فيه ؛ ولكن التردد فى أن الضمير تناولهم لفظه ؛ وقد علم أنه قيل لنا مثله ؛ أو بالعكس ؛ أو تناولنا جميعاً .

وإذا كان الله قد أمر الأولين ، والآخرين ؛ بأن يقيموا الدين ، ولا يتفرقوا فيه ، وقد أخبر أنه شرع لنا ما وصى به نوحاً ، والذى أوحاه إلى محمد ﷺ . فيحتمل شيئين :

أحدهما : أن يكون ما أوحاه إلى محمد ﷺ يدخل فيه شريعته التى تختص بنا ؛ فإن جميع ما بعث به محمد صلى الله عليه وسلم قد أوحاه إليه ، من الأصول والفروع ؛ بخلاف نوح وغيره من الرسل ؛ فإنما شرع لنا من الدين ما وصوا به ؛ من إقامة الدين ، وترك التفرق فيه . والدين الذى اتفقوا عليه : هو الأصول . فتضمن الكلام أشياء : —

أحدها : أنه شرع لنا الدين المشترك ، وهو الإسلام والإيمان العام ،
والدين المختص بنا ؛ وهو الإسلام ، والإيمان الخاص .

الثاني : أنه أمرنا بإقامة هذا الدين كله المشترك ، والمختص ، ونهانا عن
التفرق فيه .

الثالث : أنه أمر المرسلين بإقامة الدين المشترك ، ونهاهم عن التفرق فيه .

الرابع : أنه لما فصل بقوله : (وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) بين قوله : (مَا وَصَّيْ

بِهِ نُوحًا) وقوله : (وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى) أفاد ذلك .

ثم قال بعد ذلك : (وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ) ؛

فأخبر أن تفرقهم إنما كان بعد مجيء العلم ، الذي بين لهم

ما يتقون ؛ فإن الله ما كان ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون .

وأخبر أنهم ما تفرقوا إلا بغياً ، والبغى مجاوزة الحد ، كما قال ابن عمر^(١) :

الكبر والحسد ؛ وهذا بخلاف التفرق عن اجتهاد ليس فيه علم ، ولا قصد به

البغى ، كتنازع العلماء السائغ ، والبغى إما تضييع للحق ، وإما تعد للحد ؛ فهو

إما ترك واجب ، وإما فعل محرم ؛ فلم أن موجب التفرق هو ذلك .

وهذا كما قال عن أهل الكتاب : (وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا

مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ، فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ)

فأخبر أن نسيانهم حظاً مما ذكروا به — وهو ترك العمل ببعض ما أمروا به —

كان سبباً لإغراء العداوة والبغضاء بينهم ، وهكذا هو الواقع في أهل ملتنا مثلاً

نجدته بين الطوائف المتنازعة في أصول دينها ، وكثير من فروعها ، من أهل

(١) بياض بالأصل

الأصول والفروع ، ومثلما نجده بين العلماء ، وبين العباد ، ممن يغلب عليه الموسوية ، أو العيسوية ، حتى يبقى فيهم شبه من الأمتين اللتين قالت كل واحدة : ليست الأخرى على شيء . كما نجد المتفقه المتمسك من الدين بالأعمال الظاهرة ، والمتصوف المتمسك منه بأعمال باطنة ، كل منهما ينفي طريقة الآخر ، ويدعى أنه ليس من أهل الدين ، أو يعرض عنه إعراض من لا يعده من الدين ؛ فتقع بينهما العداوة والبغضاء .

وذلك : أن الله أمر بطهارة القلب ، وأمر بطهارة البدن ، وكلا الطهارتين من الدين الذي أمر الله به وأوجه . قال تعالى : (مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ) وقال : (فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ مُحِبًّا الْمُطَهَّرِينَ) وقال : (إِنَّا اللَّهُ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ) وقال : (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) وقال : (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ) وقال : (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) وقال : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) .

فوجد كثيراً من المتفقهة ، والمتعبدة ، إنما همته طهارة البدن فقط ، ويزيد فيها على المشروع ؛ اهتماماً ، وعملاً . ويترك من طهارة القلب ما أمر به ؛ إيجاباً ، أو استحباباً ، ولا يفهم من الطهارة إلا ذلك . ونجد كثيراً من المتصوفة ، والمتفكرة ، إنما همته طهارة القلب فقط ؛ حتى يزيد فيها على المشروع اهتماماً ، وعملاً ؛ ويترك من طهارة البدن ما أمر به إيجاباً ، أو استحباباً .

فالأولون يخرجون إلى الوسوسة المذمومة في كثرة صب الماء ، وتنجيس ما ليس بنجس ، واجتناب ما لا يشرع اجتنابه مع اشتغال قلوبهم على أنواع من

الحسد والكبر ، والغل لإخوانهم ، وفي ذلك مشابهة بينة لليهود .

والآخرون يخرجون إلى الغفلة المذمومة ، فيبالغون في سلامة الباطن حتى يجعلوا الجهل بما تجب معرفته ، من الشر — الذى يجب اتقاؤه — من سلامة الباطن ، ولا يفرقون بين سلامة الباطن من إرادة الشر المنهى عنه ، وبين سلامة القلب من معرفة الشر المعركة للأمور بها ، ثم مع هذا الجهل والغفلة قد لا يجتنبون النجاسات ، ويقىمون الطهارة الواجبة مضاهاة للنصارى .

وتقع العداوة بين الطائفتين بسبب ترك حظ مما ذكروا به والبغى الذى هو مجاوزة الحد : إما تفريطا وتضييعا للحق ، وإما عدوانا وفعلا للظلم . والبغى تارة يكون من بعضهم على بعض ، وتارة يكون فى حقوق الله ، وهما متلازمان ولهذا قال : (بَغْيًا بَيْنَهُمْ) ، فإن كل طائفة بغت على الأخرى ، فلم تعرف حقها الذى بأيديها ، ولم تكف عن العدوان عليها .

وقال تعالى : (وَمَا نَفَرَ قُلُوبُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ) وقال تعالى : (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ) . وقال تعالى : (وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ) الآية وقال تعالى فى موسى بن عمران مثل ذلك وقال : (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ) وقال : (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَاعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ) وقال : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَاعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ)

لأن المشركين كل منهم يعبد إلهًا يهواه . كما قال في الآية الأولى : (كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَهِه) وقال : (يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوَامِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطُّ أَمْرُهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) .

فظهر أن سبب الاجتماع والألفة جمع الدين ، والعمل به كاه ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، كما أمر به باطنا ، وظاهرا .

وسبب الفرقة : ترك حظ مما أمر العبد به ، والبغى بينهم .

ونتيجة الجماعة : رحمة الله ، ورضوانه ، وصلواته ، وسعادة الدنيا والآخرة ،

وبياض الوجوه .

ونتيجة الفرقة : عذاب الله ، ولعنته ، وسواد الوجوه ، وبراءة الرسول ﷺ

منهم . وهذا أحد الأدلة على أن الإجماع حجة قاطعة ، فإنهم إذا اجتمعوا كانوا

مطيعين لله بذلك مرحومين ، فلا تكون طاعة الله ورحمته : بفعل لم يأمر الله

به ، من اعتقاد ، أو قول ، أو عمل ، فلو كان القول ، أو العمل ، الذي اجتمعوا

عليه لم يأمر الله به ، لم يكن ذلك طاعة لله ، ولا سببا لرحمته ، وقد احتج بذلك

أبو بكر عبد العزيز في أول « التنبيه » نبه على هذه النكتة .

وقال :-

فصل

قال صلى الله عليه وسلم في الحديث المشهور في السنن من رواية فقيهى الصحابة، عبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت « ثلاث لا يغفل عليهن قلب مسلم إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر ولزوم جماعة المسلمين؛ فإن دعوتهم تحيط من ورأهم وفي حديث أبي هريرة المحفوظ: « إن الله يرضى لكم ثلاثاً: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم » .

فقد جمع في هذه الأحاديث بين الخصال الثلاث؛ إخلاص العمل لله ومناصحة أولى الأمر ولزوم جماعة المسلمين، وهذه الثلاث تجمع أصول الدين وقواعده وتجمع الحقوق التي لله ولعباده، وتنظم مصالح الدنيا والآخرة.

وبيان ذلك أن الحقوق قسمان: حق لله وحق لعباده، فحق الله أن نعبده ولا نشرك به شيئاً، كما جاء لفظه في أحد الحديثين؛ وهذا معنى إخلاص العمل لله، كما جاء في الحديث الآخر. وحقوق العباد قسمان: خاص وعام؛ أما الخاص فمثل برّ كل إنسان والديه، وحق زوجته، وجاره؛ فهذه من فروع الدين؛ لأن المكلف قد يخلو عن وجوبها عليه؛ ولأن مصابحتها خاصة فردية.

وأما الحقوق العامة فالناس نوعان: رعاة ورعية؛ فحقوق الرعاة مناصحتهم؛ وحقوق الرعية لزوم جماعتهم؛ فإن مصلحتهم لا تتم إلا باجتماعهم، وهم لا يجتمعون

على ضلالة ؛ بل مصلحة دينهم ودنياهم في اجتماعهم واعتصامهم بحبل الله جميعا ؛
فهذه الخصال تجمع أصول الدين .

وقد جاءت مفسرة في الحديث الذي رواه مسلم عن تميم الدارى قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الدين النصيحة الدين النصيحة الدين النصيحة »
قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » .
فالنصيحة لله ولكتابه ولرسوله تدخل في حق الله وعبادته وحده لا شريك
له ، والنصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم هي مناصحة ولادة الأمر ولزوم جماعتهم ،
فإن لزوم جماعتهم هي نصيحتهم العامة ، وأما النصيحة الخاصة لكل واحد منهم
بعينه ، فهذه يمكن بعضها ويتعذر استيعابها على سبيل التعيين .

وقال شيخ الإسلام قدس الله روحه :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليما .

وبعد : فهذه قاعدة جلية في توحيد الله ، وإخلاص الوجه والعمل له ، عبادة واستعانة ^(١) قال الله تعالى : (قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ) الآية . وقال تعالى : (وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ) . وقال تعالى : (وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسَّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) . وقال تعالى في الآية الأخرى : (وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ) . وقال تعالى : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) . وقال تعالى : (فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) . وقال تعالى : (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) . وقال تعالى : (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) . وقال تعالى : (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) . وقال تعالى : (قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِ) الآية . وقال تعالى : (قُلْ

(١) تسمى قاعدة في توحيد الإلهية .

أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ)
 وقال تعالى : (قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) وقال تعالى : (وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) . وقال تعالى : (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ ذُنُوبَ عِبَادِهِ خَبِيرًا * الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا) الآية . وقال تعالى : (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ) الآية . ونظائر هذا في القرآن كثير ، وكذلك في الأحاديث ، وكذلك في إجماع الأمة لا سيما أهل العلم والإيمان منهم ، فإن هذا عندهم قطب رحي الدين كما هو الواقع .

ونبين هذا بوجوه نقدم قبلها مقدمة .

وذلك أن العبد بل كل حي بل وكل مخلوق سوى الله هو فقير محتاج إلى جلب ما ينفعه ، ودفع ما يضره ، والمنفعة للحي هي من جنس النعيم واللذة ؛ والمضرة هي من جنس الألم والعذاب ؛ فلا بد له من أمرين : —

أحدهما : هو المطلوب المقصود المحبوب الذي ينتفع ويلتذ به .

والثاني : هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود والممانع من دفع المكروه . وهذان هما الشيطان المنفصلان الفاعل والغاية فهنا أربعة أشياء : —

أحدها : أمر هو محبوب مطلوب الوجود .

والثاني : أمر مكروه مبغض مطلوب العدم .

والثالث : الوسيلة إلى حصول المطلوب المحبوب .

والرابع : الوسيلة إلى دفع المكروه ، فهذه الأربعة الأمور ضرورية للعبد بل ولكل حي لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها ؛ وأما ما ليس بحي فالكلام فيه على وجه آخر .

إذا تبين ذلك فيان مذكروته من وجوه : —

أحدها : أن الله تعالى هو الذى يحب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب ، وهو المعين على المطلوب وما سواه هو المكروه ، وهو المعين على دفع المكروه ؛ فهو سبحانه الجامع للأمور الأربعة دون ما سواه ، وهذا معنى قوله : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب ؛ لكن على أكمل الوجوه ، والمستعان هو الذى يستعان به على المطلوب ؛ فالأول من معنى الألوهية .

والثاني من معنى الربوبية ؛ إذ الإله : هو الذى يؤله فيعبد محبة وإناابة وإجلالا وإكراماً والرب : هو الذى يربى عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها ؛ وكذلك قوله تعالى : (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) . وقوله : (فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) . وقوله : (عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) . وقوله تعالى : (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ) . وقوله تعالى : (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ) ، وقوله : (وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا) فهذه سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين .

الوجه الثانى : أن الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإجابة إليه ،
ومحبته والإخلاص له فذكره تطمئن قلوبهم ؛ وبرؤيته فى الآخرة تقر عيونهم
ولا شيء يعطيهم فى الآخرة أحب إليهم من النظر إليه ؛ ولا شيء يعطيهم
فى الدنيا أعظم من الإيمان به .

وحاجتهم إليه فى عبادتهم إياه وتألههم كحاجتهم وأعظم فى خلقه لهم وربوبيته
إياهم ؛ فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم ؛ وبذلك يصيرون عاملين متحركين ،
ولا صلاح لهم ولا فلاح ؛ ولا نعيم ولا لذة ؛ بدون ذلك بحال . بل من
أعرض عن ذكر ربه فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى .
ولهذا كان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ولهذا
كانت لا إله إلا الله أحسن الحسنات ، وكان التوحيد بقول : لا إله إلا الله ؛
رأس الأمر .

فأما توحيد الربوبية الذى أقر به الخلق ، وقرره أهل الكلام ؛ فلا يكفى
وحده ، بل هو من الحجة عليهم ، وهذا معنى ما يروى : « يا ابن آدم ، خلقت
كل شيء لك ، وخلقتك لى ، فبحق عليك ألا تشغل بما خلقتك لك ، عما
خلقتك له .

واعلم أن هذا حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، كما فى
الحديث الصحيح ، الذى رواه معاذ عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :
« أتدرى ما حق الله على عباده ؟ قال قلت : الله ورسوله أعلم . قال : حق الله
على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا
ذلك ؟ . قال قلت : الله ورسوله أعلم . قال : حقهم ألا يعذبهم » .

وهو يحب ذلك ، ويرضى به ؛ ويرضى عن أهله ، ويفرح بتوبة من عاد إليه ؛ كما أن في ذلك لذة العبد وسعادته ونعيمه ؛ وقد بينت بعض معنى محبة الله لذلك وفرحه به في غير هذا الموضع .

فليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه ويطمئن به ، ويتنعم بالتوجه إليه ؛ إلا الله سبحانه ؛ ومن عبد غير الله وإن أحبه وحصل له به مودة في الحياة الدنيا ونوع من اللذة فهو مفسدة لصاحبه أعظم من مفسدة التذاذ أكل الطعام المسموم (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبِّحَنَّ اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) فإن قوامهما بأن تأله الإله الحق فلو كان فيهما آلهة غير الله لم يكن إلهاً حقاً ؛ إذ الله لا سمي له ولا مثل له ؛ فكانت تفسد لا تنفء مابه صلاحها هذا من جهة الإلهية .

وأما من جهة الربوبية فشيء آخر ؛ كما نقررره في موضعه .
واعلم أن فقر العبد إلى الله أن يعبد الله لا يشرك به شيئاً ، ليس له نظير فيقاس به ؛ لكن يشبهه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الطعام والشراب ؛ وبينهما فروق كثيرة .

فإن حقيقة العبد قلبه وروحه ، وهى لا صلاح لها إلا بإلهها الله الذى لا إله إلا هو : فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره : وهى كادحة إليه كدحا فملاقيته ولا بد لها من لقائه ، ولا صلاح لها إلا ببقائه .

ولو حصل للعبد لذات أو سرور بغير الله فلا يدوم ذلك ، بل ينتقل من نوع إلى نوع ، ومن شخص إلى شخص ، ويتنعم بهذا في وقت وفي بعض الأحوال ، وتارة أخرى يكون ذلك الذى يتنعم به والتذ غير منعم له ولا ملتذ له ، بل قد

يؤذيه اتصاله به ووجوده عنده ، ويضره ذلك .

وأما إلهه فلا بد له منه في كل حال وكل وقت ، وأينما كان فهو معه ؛ ولهذا قال إمامنا (إبراهيم) الخليل صلى الله عليه وسلم (لَا أَحَبُّ إِلَيَّ) . وكان أعظم آية في القرآن الكريم : (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) . وقد بسطت الكلام في معنى القيوم في موضع آخر ، وبيننا أنه الدائم الباقي الذي لا يزول ولا يعدم ، ولا يفنى بوجه من الوجوه .

واعلم أن هذا الوجه مبنى على أصلين :

أحدهما : على أن نفس الإيمان بالله وعبادته ومحبته وإجلاله هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه كما عليه أهل الإيمان ، وكما دل عليه القرآن ؛ لا كما يقول من يعتقد من أهل الكلام ونحوهم : إن عبادته تكليف ومشقة ! . وخلاف مقصود القلب لمجرد الامتحان والاختبار ؛ أولاً جل التعويض بالأجرة كما يقوله المعتزلة وغيرهم ؛ فإنه وإن كان في الأعمال الصالحة ما هو على خلاف هوى النفس - والله سبحانه يأجر العبد على الأعمال المأمور بها مع المشقة ، كما قال تعالى : (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ) الآية ، وقال صلى الله عليه وسلم لعائشة : أجرك على قدر نصبك - فليس ذلك هو المقصود الأول بالأمر الشرعي ، وإنما وقع ضمنا وتبعاً لأسباب ليس هذا موضعها ، وهذا يفسر في موضعه .

ولهذا لم يبحى في الكتاب والسنة وكلام السلف إطلاق القول على الإيمان والعمل الصالح : أنه تكليف كما يُطلق ذلك كثير من المتكلمة والمتفقه ؛ وإنما جاء ذكر التكليف في موضع النفي ؛ كقوله : (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) .

(لَا تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ) (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً آتِنَهَا) أى وإن وقع فى الأمر تكليف ؛ فلا يكلف إلا قدر الوسع ، لا أنه يسمى جميع الشريعة تكليفاً ، مع أن غالبها قرة العيون وسرور القلوب ؛ ولذات الأرواح وكمال النعيم ، وذلك لإرادة وجه الله والإجابة إليه ، وذكره وتوجهه الوجه إليه ، فهو الإله الحق الذى تطمئن إليه القلوب ، ولا يقوم غيره مقامه فى ذلك أبداً . قال الله تعالى : (فَأَعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ؟) فهذا أصل .

(الأصل الثانى) : النعيم فى الدار الآخرة أيضاً مثل النظر إليه لا كما يزعم طائفة من أهل الكلام ونحوهم ، أنه لانهيم ولا لذة إلا بالخلق : من المأكول والمشروب والمنكوح ونحو ذلك ، بل اللذة والنعيم التام فى حظهم من الخالق سبحانه وتعالى ، كما فى الدعاء المأثور : (اللهم إنى أسألك لذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك فى غير ضراء مضرة ، ولا فتنة مضلة . رواه النسائى ، وغيره وفى صحيح « مسلم » وغيره ، عن « صهيب » عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة نادى مناد يا أهل الجنة ؛ إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه . فيقولون : ما هو ؟ ! ألم يبيض وجوهنا ، ويدخلنا الجنة ، ويخرجنا من النار ؟ ! قال : فيكشف الحجاب ؛ فينظرون إليه - سبحانه . فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ، وهو الزيادة .

فبين النبى صلى الله عليه وسلم : أنهم مع كمال تنعمهم بما أعطاهم الله فى الجنة لم يعطهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ؛ وإنما يكون أحب إليهم لأن تنعمهم وتلذذهم به أعظم من التنعم والتلذذ بغيره . فإن اللذة تتبع الشعور بالمحبوب ، فكلما كان الشيء أحب إلى الإنسان كان حصوله أذله ، وتنعمه به أعظم .

وروى أن يوم الجمعة يوم المزيد ، وهو يوم الجمعة من أيام الآخرة ، وفي الأحاديث والآثار ما يصدق هذا ، قال الله تعالى في حق الكفار : (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ) . فعذاب الحجاب أعظم أنواع العذاب . ولذة النظر إلى وجهه أعلى اللذات ؛ ولا تقوم حظوظهم من سائر المخلوقات مقام حظهم منه تعالى .

وهذان الأصلان ثابتان في الكتاب والسنة ؛ وعليهما أهل العلم والإيمان ويتكلم فيهما مشايخ الصوفية العارفون ؛ وعليهما أهل السنة والجماعة ؛ وعوام الأمة ؛ وذلك من فطرة الله التي فطر الناس عليها .

وقد يحتجون على من ينكرها بالنصوص والآثار تارة ؛ وبالدوق والوجد أخرى - إذا أنكر اللذة - فإن ذوقها ووجدها ينفي إنكارها . وقد يحتجون بالقياس في الأمثال تارة ؛ وهي الأقيسة العقلية .

الوجه الثالث : أن المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضرر ؛ ولا عطاء ولا منع ؛ ولا هدى ولا ضلال ؛ ولا نصر ولا خذلان ؛ ولا خفض ولا رفع ؛ ولا عز ولا ذل ؛ بل ربه هو الذى خلقه ورزقه ؛ وبصره وهداه وأسبغ عليه نعمه ؛ فإذا مسه الله بضر فلا يكشفه عنه غيره ؛ وإذا أصابه بنعمة لم يرفعها عنه سواه ؛ وأما العبد فلا ينفعه ولا يضره إلا بإذن الله ؛ وهذا الوجه أظهر للعامة من الأول ؛ ولهذا خوطبوا به في القرآن أكثر من الأول ؛ لكن إذا تدبر اللبيب طريقة القرآن ؛ وجد أن الله يدعو عباده بهذا الوجه إلى الأول .

فهذا الوجه يقتضى ؛ التوكل على الله ، والاستعانة به . ودعاءه . ومسأله ، دون ما سواه . ويقتضى أيضاً : محبة الله وعبادته لإحسانه إلى عبده ، وإسباغ

نعمه عليه ؛ وحاجة العبد إليه في هذه النعم ، ولكن إذا عبده وأحبه ؛ وتوكلوا عليه من هذا الوجه ؛ دخلوا في الوجه الأول ؛ ونظيره في الدنيا من نزل به بلاء عظيم أو فاقة شديدة أو خوف مقلق ؛ فجعل يدعو الله ويتضرع إليه حتى فتح له من لذة مناجاته ما كان أحب إليه من تلك الحاجة التي قصدها أولاً ؛ ولكنه لم يكن يعرف ذلك أولاً حتى يطلبه ويشتاق إليه .

والقرآن مملوء من ذكر حاجة العباد إلى الله دون ما سواه ، ومن ذكر نعمائه عليهم ؛ ومن ذكر ما وعدهم في الآخرة من صنوف النعيم واللذات وليس عند المخلوق شيء من هذا ؛ فهذا الوجه يحقق التوكل على الله والشكر له ومحبة على إحسانه .

الوجه الرابع : أن تعلق العبد بما سوى الله مضره عليه ؛ إذا أخذ منه القدر الزائد على حاجته في عبادة الله ؛ فإنه إن نال من الطعام والشراب فوق حاجته ؛ ضره وأهلكه ؛ وكذلك من النكاح واللباس ؛ وإن أحب شيئاً حباً تاماً بحيث يخالقه فلا بد أن يسأمه ؛ أو يفارقه . وفي الأثر المأثور : أحب ما شئت فإنك مفارقه . واعمل ما شئت فإنك ملاقيه . وكن كما شئت فكما تدين تدان .

واعلم أن كل من أحب شيئاً لغير الله فلا بد أن يضره محبوبه ؛ ويكون ذلك سبباً لعذابه ؛ ولهذا كان الذين يكمنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ؛ يمثل لأحدهم كنزه يوم القيامة شجاعاً أقرع يأخذ بلهزيمته . يقول : أنا كنزك . أنا مالك .

وكذلك نطائر هذا في الحديث : يقول الله يوم القيامة : (يا ابن آدم ؛ أليس عدلاً مني أن أولى كل رجل منكم ما كان يتولاه في الدنيا ؟) : وأصل التولى

الحب ، فكل من أحب شيئاً دون الله ولأه الله يوم القيامة ماتولاه ، وأصلاه
جهنم وساءت مصيراً ، فمن أحب شيئاً لغير الله فالضرر حاصل له إن وجد ،
أو فقد ، فإن فقد عذب بالفراق وتألم ، وإن وجد فإنه يحصل له من الألم أكثر
مما يحصل له من اللذة ، وهذا أمر معلوم بالاعتبار والاستقراء ، وكل من أحب
شيئاً دون الله لغير الله فإن مضرت له أكثر من منفعته ، فصارت المخلوقات وبالاً
عليه إلا : ما كان لله وفي الله ، فإنه كمال وجمال للعبد ، وهذا معنى ما يروى عن
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها ، إلا ذكر الله وما
والاه » . رواه الترمذى ، وغيره .

الوجه الخامس : أن اعتماده على المخلوق وتوكله عليه يوجب الضرر من
جهته ، فإنه يخذل من تلك الجهة ، وهو أيضاً معلوم بالاعتبار والاستقراء ،
ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة ، ولا استنصر بغير
الله إلا خذل . وقد قال الله تعالى : (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ
عِزًّا * كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) .

وهذان الوجهان في المخلوقات نظير العبادة والاستعانة في المخلوق ، فلما
قال : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) كان صلاح العبد في عبادة الله واستعانيته .
وكان في عبادة ما سواه ، والاستعانة بما سواه ، مضرت له وهلاكه وفساده .

الوجه السادس : أن الله سبحانه غنى . حميد . كريم . واجد . رحيم ، فهو
سبحانه محسن إلى عبده مع غناه عنه ، يريد به الخير ويكشف عنه الضرر ، لا لجلب
منفعة إليه من العبد ، ولا لدفع مضرة ، بل رحمة وإحساناً ، والعباد لا يتصور
أن يعملوا إلا لحظوظهم ، فأكثر ما عندهم للعبد أن يحبوه ويعظموه ، ويجلبوا

له منفعة ويدفعوا عنه مضرة ما . وإن كان ذلك أيضاً من تيسير الله تعالى فإنهم لا يفعلون ذلك إلا لحظوظهم من العبد إذا لم يكن العمل لله . فإنهم إذا أحبوه طلبوا أن ينالوا غرضهم من محبته سواء أحبوه لجماله الباطن أو الظاهر فإذا أحبوا الأنبياء والأولياء طلبوا لقاءهم فهم يحبون التمتع برؤيتهم ؛ وسماع كلامهم ؛ ونحو ذلك .

وكذلك من أحب إنساناً لشجاعته أو رياسته ؛ أو جماله أو كرمه ؛ فهو يحب أن ينال حظه من تلك المحبة ؛ ولولا التنازه بها لما أحبه ؛ وإن جلبوا له منفعة كخدمة أو مال ؛ أو دفعوا عنه مضرة كمرض وعدو — ولو بالدعاء أو الشفاء — فهم يطلبون العوض إذا لم يكن العمل لله ؛ فأجناد الملوك ؛ وعبيد الممالك ؛ وأجراء الصانع ؛ وأعوان الرئيس ؛ كلهم إنما يسعون في نيل أغراضهم به ؛ لا يعرج أكثرهم على قصد منفعة المخدم ؛ إلا أن يكون قد علم وأدب من جهة أخرى ؛ فيدخل ذلك في الجهة الدينية ؛ أو يكون فيها طبع عدل ؛ وإحسان من باب المكافأة والرحمة ؛ .. وإلا فالمقصود بالقصد الأول هو منفعة نفسه ؛ وهذا من حكمة الله التي أقام بها مصالح خلقه ؛ وقسم بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ؛ ورفع بعضهم فوق بعض درجات ؛ : ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً .

إذا تبين هذا ظهر أن المخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول ؛ بل إنما يقصد منفعته بك وإن كان ذلك قد يكون عليك فيه ضرر إذا لم يراع العدل ؛ فإذا دعوته ؛ فقد دعوت من ضره أقرب من نفعه .

والرب سبحانه يريدك لك ؛ ولمنفعتك بك ؛ لا لينتفع بك . وذلك منفعة عليك بلا مضرة . فتدبر هذا ؛ فملاحظة هذا الوجه يمنعك أن ترجو المخلوق أو

تطلب منه منفعة لك ؛ فإنه لا يريد ذلك بالقصد الأول ؛ كما أنه لا يقدر عليه . ولا يحملنك هذا على جفوة الناس ؛ وترك الاحسان إليهم ؛ واحتمال الأذى منهم ؛ بل أحسن إليهم لله لا لرجائهم ؛ وكما لا تخفهم فلا ترجهم ؛ وخف الله في الناس ولا تخف الناس في الله ؛ وارج الله في الناس ولا ترج الناس في الله ؛ وكن ممن قال الله فيه : (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ الْأَعْلَى) . وقال فيه : (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا) .

الوجه السابع : أن غالب الخلق يطلبون إدراك حاجاتهم بك وإن كان ذلك ضرراً عليك ؛ فإن صاحب الحاجة أعمى لا يعرف إلا قضاءها .

الوجه الثامن : أنه إذا أصابك مضرة كالخوف والجوع والمرض ؛ فإن الخلق لا يقدرון على دفعها إلا بإذن الله ؛ ولا يقصدون دفعها إلا لغرض لهم في ذلك .

الوجه التاسع : أن الخلق لو اجتهدوا أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بأمر قد كتبه الله لك ؛ ولو اجتهدوا أن يضروك لم يضروك إلا بأمر قد كتبه الله عليك ؛ فهم لا ينفعونك إلا بإذن الله ؛ ولا يضرونك إلا بإذن الله ؛ فلا تعلق بهم رجاءك .

قال الله تعالى : (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ

مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ * أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنَّا أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَّجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ) . والنصر يتضمن دفع الضرر ؛ والرزق يتضمن حصول المنفعة

قال الله تعالى : (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ
مِنْ خَوْفٍ) . وقال تعالى : (أُولَئِكَ نُمَكِّنْ لَهُمْ حُرَمَاءَ آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ
شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا) . وقال الخليل عليه السلام : (رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ
مِنَ الثَّمَرَاتِ) الآية . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « هل ترزقون وتنصرون
إلا بضعفائكم » : بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم ؟ .

فصل

جماع هذا أنك أنت إذا كنت غير عالم بمصلحتك ؛ ولا قادر عليها ؛ ولا
مرید لها كما ينبغي ؛ فغیرك من الناس أولى ألا يكون عالماً بمصلحتك ؛ ولا
قادراً عليها ؛ ولا مریداً لها ؛ والله - سبحانه - هو الذى يعلم ولا تعلم ؛ ويقدر
ولا تقدر ؛ ويعطيك من فضله العظیم ؛ كما فى حدیث الاستخارة : « اللهم إني
أستخيرك بعلمك ؛ وأستقدرك بقدرتك ؛ وأسألك من فضلك العظیم ؛ فإنك
تقدر ولا أقدر ؛ وتعلم ولا أعلم ؛ وأنت علام الغیوب » .

فصل

وهو مثل المقدمة لهذا الذى أمامه ، وهو أن كل إنسان فهو همام حارث حساس متحرك بالإرادة ، بل كل حي فهو كذلك له علم وعمل بإرادته . والإرادة هى المشيئة والاختيار ، ولا بد فى العمل الإرادى الاختيارى من مراد وهو المطلوب ، ولا يحصل المراد إلا بأسباب ، ووسائل تحصله ، فإن حصل بفعل العبد فلا بد من قدرة وقوة ؛ وإن كان من خارج فلا بد من فاعل غيره ؛ وإن كان منه ومن الخارج فلا بد من الأسباب ، كآلات ونحو ذلك ، فلا بد لكل حي من إرادة ، ولا بد لكل مريد من عون يحصل به مراده .

فصار العبد مجبولا على أن يقصد شيئا ويريده ؛ ويستعين بشيء ويعتمد عليه فى تحصيل مراده هذا أمر حتم لازم ضرورى فى حق كل إنسان يجده فى نفسه . لكن المراد والمستعان على قسمين :

منه ما يراد لغيره ، ومنه ما يراد لنفسه . والمستعان : منه ما هو المستعان لنفسه ، ومنه ما هو تبع للمستعان وآلة له ، فمن المراد ما يكون هو الغاية المطلوب ، فهو الذى يذل له الطالب ويحبه ، وهو الإله المقصود ، ومنه ما يراد لغيره ، وهو بحيث يكون المراد هو ذلك الغير ، فهذا مراد بالعرض . ومن المستعان ما يكون هو الغاية التى يعتمد عليه العبد ؛ ويتوكل عليه ؛ ويعتضد به ؛ ليس عنده فوقه غاية فى الاستعانة ومنه ما يكون تبعاً لغيره ، بمنزلة الأعضاء مع القلب ؛ والمال مع المالك ؛ والآلات مع الصانع .

فإذا تدبر الإنسان حال نفسه وحال جميع الناس ؛ وجدهم لا ينفكون عن هذين الأمرين : لا بد للنفس من شيء تطمئن إليه وتنتهي إليه محبتها ؛ وهو إلهها . ولا بد لها من شيء تثق به وتعتمد عليه في نيل مطلوبها هو مستعانها ؛ سواء كان ذلك هو الله أو غيره وإذا فقد يكون عاماً وهو الكفر ، كمن عبد غير الله مطلقاً ، وسأل غير الله مطلقاً . مثل : عباد الشمس والقمر وغير ذلك الذين يطلبون منهم الحاجات ، ويفزعون إليهم في النوائب .

وقد يكون خاصاً في المسلمين ، مثل : من غلب عليه حب المال ، أو حب شخص ، أو حب الرياسة ، حتى صار عبد ذلك ، كما قال صلى الله عليه وسلم : « تعس عبد الدرهم ! تعس عبد الدينار ! تعس عبد الخيصة ! تعس عبد الخيلة ! : إن أعطى رضى ، وإن منع سخط ! تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش » وكذلك من غلب عليه الثقة بجاهه وماله ، بحيث يكون عنده مخدومه من الرؤساء ونحوهم ، أو خادمه من الأعوان والاجناد ونحوهم ، أو أصدقائه أو أمواله ، هي التي تجلب المنفعة الفلانية وتدفع المضرة الفلانية ، فهو معتمد عليها ومستعين بها والمستعان هو مدعو ومسؤول .

وما أكثر ما تستلزم العبادة الاستعانة ، فمن اعتمد عليه القلب في رزقه ونصره ونفعه وضره ؛ خضع له وذل ، وانقاد وأحبه من هذه الجهة وإن لم يحبه لذاته لكن قد يغلب عليه الحال حتى يحبه لذاته ، وينسى مقصوده منه ؛ كما يصيب كثيراً ممن يحب المال أو يحب من يحصل له به العز والسلطان .

وأما من أحبه القلب وأراده وقصده ؛ فقد لا يستعينه ويعتمد عليه إلا إذا استشعر قدرته على تحصيل مطلوبه ؛ كاستشعار المحب قدرة المحبوب على وصله

فإذا استشعر قدرته على تحصيل مطلوبه استعانه ؛ وإلا فلا ؛ فالأقسام ثلاثة فقد يكون محبوباً غير مستعان ، وقد يكون مستعانا غير محبوب ؛ وقد يجتمع فيه الأمران . فإذا علم أن العبد لا بد له في كل وقت وحال من منتهى يطلبه هو إليه ، ومنتهى يطلب منه هو مستعانه ؛ — وذلك هو صمده الذي يصمد إليه في استعانه وعبادته — تبين أن قوله : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) كلام جامع محيط أولا وآخر ، لا يخرج عنه شيء ، فصارت الأقسام أربعة .

إما أن يعبد غير الله ويستعينه — وإن كان مسلما — فالشرك في هذه الأمة أخفى من ديب النمل .

وإما أن يعبد ويستعين غيره ، مثل كثير من أهل الدين ، يقصدون طاعة الله ورسوله وعبادته وحده لا شريك له ؛ وتخضع قلوبهم لمن يستشعرون نصرهم ؛ ورزقهم ، وهدايتهم ، من جهته : من الملوك والأغنياء والمشايخ .

وإما أن يستعينه — وإن عبد غيره — مثل كثير من ذوى الأحوال ؛ وذوى القدرة وذوى السلطان الباطن أو الظاهر ، وأهل الكشف والتأثير ؛ الذين يستعينونه ويعتمدون عليه ويسألونه ويلجأون إليه ؛ لكن مقصودهم غير ما أمر الله به ورسوله ؛ وغير اتباع دينه وشريعته التى بعث الله بها رسوله .

والقسم الرابع : الذين لا يعبدون إلا إياه ؛ ولا يستعينون إلا به ؛ وهذا القسم الرباعى قد ذكر فيما بعد أيضا ؛ لكنه تارة يكون بحسب العبادة والاستعانة وتارة يكون بحسب المستعان ؛ فهذا هو بحسب المعبود والمستعان ؛ لبيان أنه لا بد لكل عبد من معبود مستعان ، وفيما بعد بحسب عبادة الله واستعانه ؛ فإن الناس فيها على أربعة أقسام .

وقال شيخ الإسلام : -

فصل

في وجوب اختصاص الخالق بالعبادة والتوكل عليه : فلا يعمل إلا له ، ولا يرجى إلا هو ، هو سبحانه الذي ابتدأك بخلقك والإنعام عليك ، بنفس قدرته عليك ومشيتته ورحمته من غير سبب منك أصلاً ؛ وما فعل بك لا يقدر عليه غيره . ثم إذا احتجت إليه في جلب رزق أو دفع ضرر : فهو الذي يأتي بالرزق لا يأتي به غيره ، وهو الذي يدفع الضرر لا يدفعه غيره . كما قال تعالى : (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ * أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِن أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ) .

وهو سبحانه ينعم عليك ، ويحسن إليك بنفسه ؛ فإن ذلك موجب ما تسمى به ، ووصف به نفسه ؛ إذ هو الرحمن الرحيم ؛ الودود المجيد ؛ وهو قادر بنفسه ، وقدرته من لوازم ذاته ، وكذلك رحمته وعلمه وحكمته : لا يحتاج إلى خلقه بوجه من الوجوه ؛ بل هو الغني عن العالمين (وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) ! (وَإِذْ تَأَذَّتْ رِبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ * وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَأَيْكَ اللَّهُ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ) .

وفي الحديث الصحيح الإلهي : « يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم

وجنكم كانوا على أجرة قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ؛
ولو كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ؛ ولو قاموا
في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسأله ما نقص ذلك مما عندي
شيئاً » إلى آخر الحديث .

فألرب سبحانه غنى بنفسه ، وما يستحقه من صفات الكمال ثابت له بنفسه .
واجب له من لوازم نفسه ، لا يفتقر في شيء من ذلك إلى غيره ؛ بل أفعاله من
كماله : كمال ففعل ؛ وإحسانه وجوده من كماله ، لا يفعل شيئاً حاجة إلى غيره
بوجه من الوجوه ؛ بل كلما يريد فعله ؛ فإنه فعال لما يريد . وهو سبحانه بالغ
أمره ؛ فكلما يطلب فهو يبلغه ويناله ويصل إليه وحده لا يعينه أحد ، ولا يعوقه
أحد ، لا يحتاج في شيء من أموره إلى معين ، وما له من المخلوقين ظهير ؛ وليس
له ولي من الدل .

فصل

والعبد كلما كان أذل لله وأعظم افتقاراً إليه وخضوعاً له : كان أقرب إليه ، وأعزله ، وأعظم لقدره ، فأسعد الخلق : أعظمهم عبودية لله . وأما المخلوق فكما قيل : احتج إلى من شئت تكن أسيره ، واستغن عن من شئت تكن نظيره ، وأحسن إلى من شئت تكن أميره ، ولقد صدق القائل : —

بين التذل والتدل نقطة في رفعها تحير الأفهام
ذاك التذل شرك فافهم يا فتى بالخلف^(١)

فأعظم ما يكون العبد قدراً وحرمة عند الخلق : إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه ، فإن أحسنت إليهم مع الاستغناء عنهم : كنت أعظم ما يكون عندهم ، ومتى احتجت إليهم - ولو في شربة ماء - نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم ، وهذا من حكمة الله ورحمته ، ليكون الدين كله لله ، ولا يشرك به شيء .

ولهذا قال حاتم الأصم : لما سئل فيم السلامة من الناس ؟ قال : أن يكون شيئك لهم مبذولاً وتكون من شيءهم آيساً ، لكن إن كنت معوضاً لهم عن ذلك وكانوا محتاجين ، فإن تعادلت الحاجتان تساويتم كالمبتاعين ليس لأحدهما فضل على الآخر ، وإن كانوا إليك أحوج خضعوا لك .

فالرب سبحانه : أكرم ما تكون عليه أحوج ما تكون إليه . وأفقر ما تكون

(١) هكذا بالأصل .

إليه . والخلق : أهون ما يكون عليهم أحوج ما يكون إليهم ، لأنهم كلهم محتاجون في أنفسهم ، فهم لا يعلمون حوائجك ، ولا يهتدون إلى مصلحتك ، بل هم جهلة بمصالح أنفسهم ، فكيف يهتدون إلى مصلحة غيرهم ؟ فإنهم لا يقدرُونَ عليها ، ولا يريدون من جهة أنفسهم ، فلا علم ولا قدرة ولا إرادة . والرب تعالى يعلم مصالحك ويقدر عليها ، ويريدها رحمة منه وفضلاً ، وذلك صفته من جهة نفسه ، لا شيء آخر جعله مريداً راحماً ، بل رحمته من لوازم نفسه ، فإنه كتب على نفسه الرحمة ، ورحمته وسعت كل شيء ، والخلق كلهم محتاجون ، لا يفعلون شيئاً إلا لحاجتهم ومصلحتهم ، وهذا هو الواجب عليهم والحكمة ، ولا ينبغي لهم إلا ذلك ، لكن السعيد منهم الذى يعمل لمصلحته التى هى مصلحة ، لا لما يظنه مصلحة وليس كذلك . فهم ثلاثة أصناف :

ظالم . وعادل . ومحسن .

فالظالم : الذى يأخذ منك مالا أو نفعاً ولا يعطيك عوضه ، أو ينفع نفسه بضررك .

والعادل : المكافئ . كالبايع لا لك ولا عليك كل به يقوم الوجود ، وكل منهما محتاج إلى صاحبه ، كالزوجين ، والمتبايعين ، والشريكين .

والمحسن الذى يحسن لا لعوض يناله منك . فهذا إنما عمل لحاجته ومصلحته ، وهو انتفاعه بالإحسان ، وما يحصل له بذلك مما تحبه نفسه من الأجر ، أو طلب مدح - الخلق ، وتعظيمهم ، أو التقرب إليك ، إلى غير ذلك . وبكل حال : ما أحسن إليك إلا لما يرجو من الانتفاع . وسائر الخلق ، إنما يكرمونك ويعظمونك لحاجتهم إليك ، وانتفاعهم بك ، إما بطريق

المعاوضة ، لأن كل واحد من المتبايعين والمتشاركين والزوجين محتاج إلى الآخر ، والسيد محتاج إلى ممالئكه وهم محتاجون إليه ، والملوك محتاجون إلى الجند والجند محتاجون إليهم ، وعلى هذا بنى أمر العالم ، وإما بطريق الإحسان منك إليهم . فأقرباؤك وأصدقاؤك وغيرهم إذا أكرموك لنفسك ، فهم إنما يحبونك ويكرمونك لما يحصل لهم بنفسك من الكرامة ، فلو قد وليت ولوا عنك وتركوك فهم في الحقيقة إنما يحبون أنفسهم ، وأغراضهم .

فهؤلاء كلهم من الملوك إلى من دونهم تجد أحدهم سيداً مطاعاً وهو في الحقيقة عبد مطيع وإذا أودى أحدهم بسبب سيده أو من يطيعه تغير الأمر بحسب الأحوال ، ومتى كنت محتاجاً إليهم ، نقص الحب والإكرام والتعظيم بحسب ذلك وإن قضوا حاجتك .

والرب تعالى : يمتنع أن يكون المخلوق مكافياً له أو متفضلاً عليه ؛ ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول إذا رفعت مائدته : « الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه غير مكفى ولا مكفور ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا » رواه البخاري من حديث أبي أمامة بل ولا يزال الله هو المنعم المتفضل على العبد وحده لا شريك له في ذلك ؛ بل ما بالخلق كلهم من نعمة فمن الله ؛ وسعادة العبد في كمال افتقاره إلى الله ، واحتياجه إليه ، وأن يشهد ذلك ويعرفه ويتصف معه بموجبه ، أى بموجب علمه ذلك . فإن الإنسان قد يفتقر ولا يعلم مثل أن يذهب ماله ولا يعلم ، بل يظنه باقياً فإذا علم بذهابه صار له حال آخر ، فكذلك الخلق كلهم فقراء إلى الله ، لكن أهل الكفر والنفاق في جهل بهذا وغفلة عنه وإعراض عن تذكره والعمل به ، والمؤمن يقر بذلك ويعمل بموجب إقراره ، وهؤلاء هم عباد الله .

فالإنسان وكل مخلوق فقير إلى الله بالذات ، وفقره من لوازم ذاته ، يتمتع أن يكون إلا فقيراً إلى خالقه ، وليس أحد غنياً بنفسه إلا الله وحده ، فهو الصمد الغنى عما سواه ، وكل ما سواه فقير إليه ، فالعبد فقير إلى الله من جهة ربوبيته ومن جهة إلهيته ، كما قد بسط هذا في مواضع .

والإنسان يذنب دائماً فهو فقير مذنّب ، وربّه تعالى يرحمه ويغفر له ، وهو الغفور الرحيم ، فلولا رحمته وإحسانه : لما وجد خير أصلاً ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، ولولا مغفرته لما وقى العبد شر ذنوبه ، وهو محتاج دائماً إلى حصول النعمة ، ودفع الضر والشر ولا تحصل النعمة إلا برحمته ، ولا يندفع الشر إلا بمغفرته ، فإنه لا سبب للشر إلا ذنوب العباد . كما قال تعالى : (مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ) والمراد بالسيئات : ما يسوء العبد من المصائب وبالחסنات : ما يسره من النعم . كما قال : (وَبَلَوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ) فالنعم والرحمة والخير كله من الله فضلاً وجوداً ، من غير أن يكون لأحد من جهة نفسه عليه حق ، وإن كان تعالى عليه حق لعباده ، فذلك الحق هو أحقه على نفسه ، وليس ذلك من جهة المخلوق ، بل من جهة الله ، كما قد بسط هذا في مواضع .

والمصائب : بسبب ذنوب العباد وكسبهم . كما قال : (وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ) .

والنعم ، وإن كانت بسبب طاعات يفعلها العبد فيثيبه عليها : فهو سبحانه المنعم بالعبد وبطاعته وثوابه عليها ، فإنه سبحانه هو الذي خلق العبد وجعله مسلماً طائعاً ، كما قال الخليل : (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ) وقال : (وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ)

لَكَ) وقال : (أَجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ) وقال : (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) فسأل ربه أن يجعله مسلماً وأن يجعله مقيم الصلاة . وقال : (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ إِلَّا يَمُنْ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ) الآية : قال في آخرها : (فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً) .

وفي صحيح أبي داود وابن حبان : « اهدنا سبيل السلام ، ونجنا من الظلمات إلى النور ، واجعلنا شاكرين لنعمتك مثنين بها عليك ، قابليها ، وأتممها علينا » وفي الفاتحة : (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) وفي الدعاء الذي رواه الطبراني عن ابن عباس قال : مما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية عرفة : « اللهم إنك تسمع كلامي ، وترى مكاني ، وتعلم سري وعلايتي ، ولا يخفى عليك شيء من أمري ، أنا البائس الفقير ، المستغيث المستجير ، الوجل المشفق ، المقر بذنبه ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهاج المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضريب ، من خضعت لك رقبتك ، وذلل لك جسده ، ورجم لك أنفه ، اللهم لا تجعلني بدعائك رب شقياً وكن بي رؤوفاً رحيماً يا خير المسؤولين ، ويا خير المعطين » .

ولفظ العبد في القرآن : يتناول من عبد الله ، فأما عبد لا يعبد فلا يطلق عليه لفظ عبده . كما قال : (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) وأما قوله (إِلَّا مَنْ أَتْبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ) فلا استثناء فيه منقطع ، كما قاله أكثر المفسرين والعلماء ، وقوله : (عَيْنَايَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ) (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا) (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ) (وَنِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ) (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ) (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ) (فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا) (سُبْحَنَ

الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ () إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا () وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا () فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ () وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ () تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ () . ونحو هذا كثير . وقد يطلق لفظ العبد على المخلوقات كلها ، كقوله : () إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ () أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ () . قد يقال في هذا : إن المراد به الملائكة ، والأنبياء ، إذا كان قد نهى عن اتخاذهم أولياء : فغيرهم بطريق الأولى . فقد قال : () إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا () .

وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في الدجال : « فيوحى الله إلى المسيح أن لي عباداً لا يدان لأحد بقتالهم » وهذا كقوله : () بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا () ، فهو لاء لم يكونوا مطيعين لله ، لكنهم معبدون ، مذللون ، مقهورون ، يجرى عليهم قدره .

وقد يكون كونهم عبيداً : هو اعترافهم بالصانع وخضوعهم له وإن كانوا كفاراً . كقوله : () وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ () وقوله : () إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا () أى ذليلاً خاضعاً . ومعلوم أنهم لا يأتون يوم القيامة إلا كذلك ، وإنما الاستكبار عن عبادة الله كان في الدنيا ، ثم قال : () لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا () ، فذكر بعدها أنه يأتى منفرداً كقوله () وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ () وقال : () وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا () طَوْعًا وَكَرْهًا () وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا () الآية . وقال : () بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُونٌ () فليس المراد بذلك مجرد كونهم مخلوقين مدبرين مقهورين تحت المشيئة والقدرة فإن هذا

لا يقال طوعاً وكرهاً فإن الطوع والكره إنما يكون لما يفعله الفاعل طوعاً وكرهاً ،
فأما ما لا فعل له فيه : فلا يقال له ساجد أو قانت ، بل ولا مسلم ، بل الجميع
مقرون بالصانع بفطرتهم ، وهم خاضعون مستسلمون ، قانتون مضطرون
من وجوه .

منها : عليهم بحاجتهم وضرورتهم إليه . ومنها : دعاؤهم إياه عند الاضطرار .
ومنها : خضوعهم واستسلامهم لما يجري عليهم من أقداره ومشيتته . ومنها :
انقيادهم لكثير مما أمر به في كل شيء ، فإن سائر البشر لا يمكنون العبد من مراده
بل يقهرونه ويلزمونه بالعدل الذي يكرهه ، وهو مما أمر الله به ، وعصيانهم له
في بعض ما أمر به — وإن كان هو التوحيد — لا يمنع كونهم قانتين خاضعين ،
مستسلمين كرهاً ، كالعصاة من أهل القبلة وأهل الذمة وغيرهم ، فإنهم خاضعون
للدين الذي بعث به رسله ، وإن كانوا يعصونه في أمور .

والمؤمن يخضع لأمر ربه طوعاً ، وكذلك لما يقدره من المصائب ، فإنه
يفعل عندها ما أمر به من الصبر وغيره طوعاً ، فهو مسلم لله طوعاً خاضع له
طوعاً ، والسجود مقصوده الخضوع ، وسجود كل شيء بحسبه ، سجوداً
يناسبه ويتضمن الخضوع للرب .

وأما فقر المخلوقات إلى الله : بمعنى حاجتها كلها إليه ، وأنه لا وجود لها ولا
شيء من صفاتها ، وأفعالها إلا به . فهذا : أول درجات الافتقار ، وهو افتقارها
إلى ربوبيته لها ، وخلقه وإتقانه ، وبهذا الاعتبار كانت مملوكة له ، وله سبحانه
الملك والحمد .

وهذا معلوم عند كل من آمن بالله ورسله الإيمان الواجب ، فالحدوث

دليل افتقار الأشياء إلى محدثها ، وكذلك حاجاتها إلى محدثها بعد إحداثه لها : دليل افتقارها فإن الحاجة إلى الرزق دليل افتقار المرزوق إلى الخالق الرازق .

والصواب : أن الأشياء مفتقرة إلى الخالق لذواتها لا لأمر آخر جعلها مفتقرة إليه ، بل فقرها لازم لها ؛ لا يمكن أن تكون غير مفتقرة إليه ، كما أن غنى الرب وصف لازم له لا يمكن أن يكون غير غنى ، فهو غنى بنفسه لا بوصف جعله غنياً ، وفقر الأشياء إلى الخالق وصف لها ، وهي معدومة وهي موجودة فإذا كانت معدومة فقيل عن مطر ينتظر نزوله وهو مفتقر إلى الخالق كان معناه : أنه لا يوجد إلا بالخالق هذا قول الجمهور من نظار المسلمين وغيرهم ، وهذا الافتقار أمر معلوم بالعقل ، وما أثبتته القرآن من استسلام المخلوقات وسجودها وتسبيحها وقنوتها : أمر زائد على هذا عند عامة المسلمين من السلف وجمهور الخلف .

ولكن طائفة تدعى أن افتقارها ، وخضوعها ، وخلقها ، وجريان المشيئة عليها : هو تسبيحها وقنوتها ، وإن كان ذلك باسنان الحال ، ولكونها دلالة شاهدة للخالق جل جلاله . وقل للأرض من فجر أنهارها ، وغرس أشجارها ، وأخرج نباتها وثمارها ، فإن لم تجبك حواراً وإلا أجابتك اعتباراً ، وهذا يقوله الغزالي وغيره ، وهو أحد الوجوه التي ذكرها أبو بكر بن الأنباري في قوله : (كَلَّلَهُ قَنِينُونَ) قال : كل مخلوق قانت له بأمر صنعته فيه وأجرى أحكامه عليه ، فذلك دليل على ذله لربه ، وهو الذي ذكره الزجاج في قوله : (وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) قال : إسلام الكل خضوعهم لنفاذ أمره في جبلهم ، لا يقدر أحد يمتنع من جبلة جبله الله عليها ، وهذا المعنى صحيح ، لكن الصواب

الذى عليه جمهور علماء السلف والخلف : أن القنوت ، والاستسلام ، والتسبيح أمر زائد على ذلك ، وهذا كقول بعضهم : إن سجود الكاره وذله وانقياده لما يريد الله منه من عافية ومرض وغنى وفقر ، وكما قال بعضهم فى قوله : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) . قال : تسبيحه دلالة على صانعه فتوجب بذلك تسبيحاً من غيره ، والصواب أن لها تسبيحاً وسجوداً بحسبها .

والمقصود أن فقر المخلوقات إلى الخالق ودلالاتها عليه وشهادتها له : أمر فطرى فطر الله عليه عباده ، كما أنه فطرهم على الإقرار به بدون هذه الآيات ، كما قد بسط الكلام على هذا فى مواضع ، وبين الفرق بين دلالة الآيات ودلالة القياس الشمولى ، والتمثلى ، فإن القياس البرهانى العقلى : سواء صيغ بلفظ الشمول ، كالأشكال المنطقية ، أو صيغ بلفظ التمثيل ، وبين أن الجامع هو علة الحكم ويلزم ثبوت الحكم أينما وجد ، وقد بسطنا الكلام على صورة القياسين فى غير هذا الموضع .

والتحقيق : أن العلم بأن المحدث لا بد له من محدث هو علم فطرى ، ضرورى فى المعينات الجزئية ، وأبلغ مما هو فى القضية الكلية ، فإن الكليات : إنما تصير كليات فى العقل بعد استقرار جزئياتها فى الوجود ، وكذلك عامة القضايا الكلية ، التى يجعلها كثير من النظار المتكلمة والمتفلسفة أصول عليهم ، كقولهم : الكل أعظم من الجزء أو النقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان ، والأشياء المساوية لشيء واحد متساوية ونحو ذلك ، فإنه أى كلى تصوره الإنسان علم أنه أعظم من جزئيه ، وإن لم تخطر له القضية الكلية كما يعلم أن بدن الإنسان بعضه أكثر من بعض وأن الدرهم أكبر من بعضه ، وأن المدينة أكثر من بعضها

وأن الجبل أكبر من بعضه ، وكذلك النقيضان وهما : الوجود والعدم ، فإن العبد إذا تصور وجود أى شيء كان وعدمه : علم أن ذلك الشيء لا يكون موجوداً معدوماً فى حالة واحدة وأنه لا يخلو من الوجود والعدم ، وهو يقضى بالجزئيات المعينة ، وإن لم يستحضر القضية الكلية ، وهكذا أمثال ذلك .

ولما كان القياس الكلى فائدته أمر مطلق لا معين : كان إثبات الصانع بطريق الآيات هو الواجب . كما نزل به القرآن ، وفطر الله عليه عباده ، وإن كانت الطريقة القياسية صحيحة ، لكن فائدتها ناقصة ، والقرآن إذا استعمل فى الآيات الإلهيات : استعمل قياس الأولى لا القياس الذى يدل على المشترك ، فإنه ما وجب تنزيه مخلوق عنه من النقائص والعيوب التى لا كمال فيها . فالبارى تعالى أولى بتنزيهه عن ذلك ، وما ثبت للمخلوق من الكمال الذى لا نقص فيه كالحياة ، والعلم ، والقدرة : فالخالق أولى بذلك منه ، فالمخلوقات كلها آيات للخالق ، والفرق بين الآية وبين القياس : أن الآية تدل على عين المطلوب الذى هى آية وعلامة عليه ، فكل مخلوق فهو دليل . وآية على الخالق نفسه ، كما قد بسطناه فى مواضع .

ثم الفطر تعرف الخالق بدون هذه الآيات ، فإنها قد فطرت على ذلك ، ولو لم تكن تعرفه بدون هذه الآيات : لم تعلم أن هذه الآية له ، فإن كونها آية له ودلالة عليه : مثل كون الاسم يدل على المسمى فلا بد أن يكون قد تصور المسمى قبل ذلك ، وعرف أن هذا اسم له ، فكذلك كون هذا دليلاً على هذا يقتضى تصور المدلول عليه وتصور أن ذلك الدليل مستلزم له ، فلا بد فى ذلك أن يعلم أنه مستلزم للمدلول ، فلو لم يكن المدلول متصوراً لم يعلم أنه دليل عليه ،

فعرفة الإضافة متوقفة على تصور المضاف والمضاف إليه ، لكن قد لا يكون الإنسان عالماً بالإضافة ، ولا كونه دليلاً ، فإذا تصوره عرف المدلول إذا عرف أنه مستلزم له ، والناس يعلمون أن هذه المخلوقات آيات ودلائل للخالق ، فلا بد أن يكونوا يعرفونه ؛ حتى يعلموا أن هذه دلائل مستلزمة له .

والمقصود أن هذه الطرق العقلية الفطرية : هي التي جاء بها القرآن ، واتفق العقل والشرع ، وتلازم الرأي والسمع .

والمفلسفة كابن سينا والرازي ومن اتبعهما ، قالوا : إن طريق إثباته الاستدلال عليه بالممكنات ، وإن الممكن لا بد له من واجب ، قالوا : والوجود إما واجب وإما ممكن ، والممكن لا بد له من واجب ، فيلزم ثبوت الواجب على التقديرين ، وهذه المقالة أحدثها ابن سينا ، وركبها من كلام المتكلمين وكلام سلفه ؛ فإن المتكلمين قسموا الوجود إلى قديم ومحدث ، وقسمه هو إلى واجب وممكن ، وذلك أن الفلك عنده ليس محدثاً ؛ بل زعم أنه ممكن . وهذا التقسيم لم يسبقه إليه أحد من الفلاسفة ، بل حذاقهم عرفوا أنه خطأ ، وأنه خالف سلفه وجمهور العقلاء وغيرهم ، وقد بينا في مواضع أن القدم ، ووجوب الوجود ، متلازمان عند عامة العقلاء ، الأولين والآخرين ، ولم يعرف عن طائفة منهم نزاع في ذلك ، إلا ما أحدثه هؤلاء فإننا نشهد حدوث موجودات كثيرة ، حدثت بعد أن لم تكن ، ونشهد عدمها بعد أن كانت ، وما كان معدوماً أو سيكون معدوماً لا يكون واجب الوجود ، ولا قديماً أزلياً .

ثم إن هؤلاء إذا قدر أنهم أثبتوا واجب الوجود : فليس في دليلهم أنه مغاير للسموات والأفلاك ، وهذا مما بين تهافتهم فيه الغزالي وغيره ، لكن

عمدتهم أن الجسم لا يكون واجباً ، لأنه مركب ، والواجب لا يكون مركباً ،
هذا عمدهم .

وقد بينا بطلان هذا من وجوه كثيرة ، وما زال النظار يبنون فساد هذا
القول كل بحسبه ، كما بين الغزالي فساد بحسبه .

وذلك أن لفظ الواجب صار فيه اشتراك بين عدة معان : فيقال للموجود
بنفسه الذى لا يقبل العدم فتكون الذات واجبة والصفات واجبة ، ويقال
للموجود بنفسه والقائم بنفسه ، فتكون الذات واجبة دون الصفات ، ويقال
لمبدع الممكنات ، وهى المخلوقات ، والمبدع لها هو الخالق ، فيكون الواجب
هو الذات المتصفة بتلك الصفات ، والذات مجردة عن الصفات لم تخلق ،
والصفات مجردة عن الذات لم تخلق ، ولهذا صار من سار خلفهم ممن يدعى
التحقيق والعرفان ، إلى أن جعل الواجب هو الوجود المطلق ، كما قد بسط
القول عليه فى مواضع .

والمقصود هنا : الكلام أولاً : فى أن سعادة العبد فى كمال افتقاره إلى ربه
واحتياجه إليه ، أى فى أن يشهد ذلك ويعرفه ، ويتصف معه بموجب ذلك من
الذل والخضوع والخشوع ، وإلا فالخلق كلهم محتاجون ، لكن يظن أحدهم نوع
استغناء فيطغى . كما قال تعالى : (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ * أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى) وقال :
(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَّ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ) وفى الآية
الأخرى : (كَانَ يَتُوسَّأُ) .

فصل

والسعادة في معاملة الخلق : أن تعاملهم الله فترجو الله فيهم ولا ترجوهم في الله ، وتخافه فيهم ولا تخافهم في الله ؛ وتحسن إليهم رجاء ثواب الله لا لمكافأتهم ، وتكف عن ظلمهم خوفاً من الله لا منهم . كما جاء في الأثر : « ارج الله في الناس ولا ترج الناس في الله وخف الله في الناس ولا تخف الناس في الله » أى : لا تفعل شيئاً من أنواع العبادات والقرب لأجلهم ، لا رجاء مدحهم ولا خوفاً من ذمهم ، بل ارج الله ولا تخفهم في الله فيما تأتى وما تذر بل افعل ما أمرت به وإن كرهوه . وفي الحديث : « إن من ضعف اليقين أن ترضى الناس بسخط الله أو تدمهم على ما لم يوثك الله » فإن اليقين يتضمن اليقين في القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته ، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدييره ، فإذا أرضيتهم بسخط الله لم تكن موقناً : لا بوعده ولا برزقه ، فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك ، إما ميل إلى ما في أيديهم من الدنيا : فيترك القيام فيهم بأمر الله ، لما يرجوه منهم . وإما ضعف تصديق بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب في الدنيا والآخرة ، فإنك إذا أرضيت الله : نصرك ، ورزقك وكفاك مؤنتهم ، فأرضائهم بسخطه إنما يكون خوفاً منهم ورجاء لهم ؛ وذلك من ضعف اليقين .

وإذا لم يقدر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك : فالأمر في ذلك إلى الله لا لهم ،

فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فإذا ذمهم على ما لم يقدر : كان ذلك من ضعف
يقينك ، فلا تخفهم ولا ترجهم ولا تدمهم من جهة نفسك وهواك ؛ لكن من
حمده الله ورسوله ﷺ فهو المحمود ، ومن ذمه الله ورسوله ﷺ فهو المذموم .

ولما قال بعض وفد بني تميم : يا محمد أعطني فإن حمدي زين وإن ذمي
شين . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذاك الله عز وجل » .

وكتبت عائشة إلى معاوية ، وروى أنها رفعتة إلى النبي صلى الله عليه وسلم :
« من أَرْضَى الله بسخط الناس كفاه مؤنة الناس ، ومن أَرْضَى الناس بسخط
الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً » هذا لفظ المرفوع ولفظ الموقوف : « من أَرْضَى
الله بسخط الناس رضى الله عنه وأَرْضَى عنه الناس ، ومن أَرْضَى الناس بسخط
الله عاد حامده من الناس له ذاماً » هذا لفظ المأثور عنها ، وهذا من أعظم الفقه
في الدين ، والمرفوع أحق وأصدق ، فإن من أَرْضَى الله بسخطهم كان قد اتقاه :
وكان عبده الصالح والله يتولى الصالحين ، وهو كاف عبده (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ
مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) . فالله يكفيه مؤنة الناس بلا ريب ،
وأما كون الناس كلهم يرضون عنه : فقد لا يحصل ذلك ، لكن يرضون عنه
إذا سلموا من الأغراض وإذا تبين لهم العاقبة ، ومن أَرْضَى الناس بسخط الله
لم يغنوا عنه من الله شيئاً ، كالظالم الذي يعرض على يده يقول : (يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ
مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَتَوَلَّى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا) وأما كون حامده ينقلب ذاماً :
فهذا يقع كثيراً ، ويحصل في العاقبة ، فإن العاقبة للتقوى ، لا يحصل ابتداء عند
أهوائهم وهو سبحانه أعلم .

فالتوحيد ضد الشرك ، فإذا قام العبد بالتوحيد الذي هو حق الله ، فعنده

لا يشرك به شيئاً كان موحداً . ومن توحيد الله وعبادته : التوكل عليه والرجاء له ، والخوف منه ، فهذا يخلص به العبد من الشرك . وإعطاء الناس حقوقهم ، وترك العدوان عليهم : يخلص به العبد من ظلمهم ، ومن الشرك بهم . وبطاعة ربه واجتناب معصيته : يخلص العبد من ظلم نفسه وقد قال تعالى في الحديث القدسي : « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين » . فالنصفان يعود نفعهما إلى العبد ، وكما في الحديث الذي رواه الطبراني في الدعاء : « يا عبادي : إنما هي أربع واحدة لي ، وواحدة لك ، وواحدة بيني وبينك . وواحدة بينك وبين خلقي فآتي لي : تعبدني لا تشرك بي شيئاً . وآتي لك : عمالك أجزيك به أحوج ما تكون إليه . وآتي بيني وبينك : فمك الدعاء وعلى الإجابة . وآتي بينك وبين خلقي : فأت إليهم ما تحب أن يأتوه إليك »^(١) والله يحب النصفين .

ويحب أن يعبدوه . وما يعطيه الله العبد من الإعانة والهداية هو من فضله وإحسانه ، وهو وسيلة إلى ذلك المحبوب ، وهو إنما يحبه لكونه طريقاً إلى عبادته ، والعبد يطلب ما يحتاج أولاً ، وهو محتاج إلى الإعانة على العبادة وإلى الهداية إلى الصراط المستقيم ، وبذلك يصل إلى العبادة . فهو يطلب ما يحتاج إليه أولاً ليتوصل به إلى محبوب الرب ، الذي فيه سعادته . وكذلك قوله : « عمالك أجزيك به أحوج ما تكون إليه » فإنه يحب الثواب الذي هو جزاء العمل ، فالعبد إنما يعمل لنفسه ، (لَهُمَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) ثم إذا طلب العبادة : فإنما يطلبها من حيث هي نافعة له ، محصلة لسعادته ، محصنة له من عذاب ربه فلا يطلب العبد قط إلا ما فيه حظ له وإن كان الرب يحب ذلك فهو يطلبه من حيث هو ملائم له فمن عبد الله لا يشرك به شيئاً : أحبه وأثابه ، فيحصل

(١) نص الحديث في الطبراني مجلد ٢-٧٩٢/٧٩٣

للعبد ما يحبه من النعم تبعاً لمحجوب الرب ، وهذا كالبائع والمشتري ، البائع يريد من المشتري أولاً الثمن ، ومن لوازم ذلك : إرادة تسليم المبيع ، والمشتري يريد السلعة ، ومن لوازم ذلك : إرادة إعطاء الثمن .

فأرب يحب أن يحب . ومن لوازم ذلك : أن يحب من لا تحصل العبادة إلا به والعبد يحب ما يحتاج إليه وينتفع به ومن لوازم ذلك ؛ محبته لعبادة الله فمن عبداً الله وأحسن إلى الناس ، فهذا قائم بحقوق الله وحق عباد الله ، في إخلاص الدين له . ومن طلب من العباد العوض ثناء أو دعاء أو غير ذلك لم يكن محسناً إليهم الله . ومن خاف الله فيهم ولم يخفهم في الله كان محسناً إلى الخلق وإلى نفسه ، فإن خوف الله يحمله على أن يعطيهم حقهم ويكف عن ظلمهم ، ومن خافهم ولم يخف الله فهذا ظالم لنفسه ولهم ، حيث خاف غير الله ورجاه ، لأنه إذا خافهم دون الله احتاج أن يدفع شرهم عنه بكل وجه ، إما بمداھنتهم ومراءاتهم ، وإما بمقابلتهم بشيء أعظم من شرهم أو مثله ، وإذا رجاهم لم يقيم فيهم بحق الله ، وهو إذا لم يخف الله فهو مختار للعدوان عليهم ، فإن طبع النفس الظلم لمن لا يظلمها فكيف بمن يظلمها؟ فتجد هذا الضرب كثير الخوف من الخلق كثير الظلم إذا قدر مهين ذليل إذا قهر ، فهو يخاف الناس بحسب ما عنده من ذلك ، وهذا مما يوقع الفتن بين الناس . وكذلك إذا رجاهم فهم لا يعطونه ما يرجوه منهم ، فلا بد أن يبغضهم فيظلمهم إذا لم يكن خائفاً من الله عز وجل ، وهذا موجود كثير في الناس ، تجدهم يخاف بعضهم بعضاً ويرجو بعضهم بعضاً ، وكل من هؤلاء يتظلم من الآخر ، ويطلب ظلمه ، فهم ظالمون بعضهم لبعض ، ظالمون في حق الله حيث خافوا غيره ورجوا غيره ، ظالمون لأنفسهم ، فإن هذا من الذنوب التي تعذب النفس بها وعليها ، وهو يجر إلى فعل المعاصي المختصة ، كالشرك والزنا ، فإن الإنسان إذا لم يخف

من الله اتبع هواه ، ولا سيما إذا كان طالباً ما لم يحصل له ؛ فإن نفسه تبقى طالبة لما تستريح به وتدفع به الغم والحزن عنها ، وليس عندها من ذكر الله وعبادته ما تستريح إليه وبه ؛ فيستريح إلى المحرمات من فعل الفواحش وشرب المحرمات وقول الزور ، وذکر ماجريات النفس والهزل واللعب ومخالطة قرناء السوء وغير ذلك ولا يستغنى القلب إلا بعبادة الله تعالى .

فإن الإنسان خلق محتاجاً إلى جلب ما ينفعه ، ودفع ما يضره ، ونفسه مريدة دائماً ، ولا بد لها من مراد يكون غاية مطلوبها لتسكن إليه وتطمئن به ، وليس ذلك إلا لله وحده ؛ فلا تطمئن القلوب إلا به ، ولا تسكن النفوس إلا إليه ، و (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهُ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) فكل مألوه سواه يحصل به الفساد ، ولا يحصل صلاح القلوب إلا بعبادة الله وحده لا شريك له .

فإذا لم تكن القلوب مخصصة لله الدين : عبت غيره ؛ من الآلهة التي يعبدونها أكثر الناس مما رضوه لأنفسهم ؛ فأشركت بالله بعبادة غيره ، واستعانت به ؛ فتعبد غيره وتستعين به لجهلها بسعادتها التي تنالها بعبادة خالقها والاستعانة به ؛ فبالعبادة له تستغنى عن معبود آخر ، وبالأستعانة به تستغنى عن الاستعانة بالخلق ، وإذا لم يكن العبد كذلك : كان مذنباً محتاجاً ، وإنما غناه في طاعة ربه ، وهذا حال الإنسان ؛ فإنه فقير محتاج ، وهو مع ذلك مذنب خطاء فلا بد له من ربه ؛ فإنه الذي يسدى مغافيره ، ولا بد له من الاستغفار من ذنوبه . قال تعالى : (فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرَ لِذَنْبِكَ) فبالتوحيد يقوى العبد ويستغنى ، ومن سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله ، وبالأستغفار يغفر له ويدفع عنه عذابه ، (وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) فلا يزول فقر العبد وفاقه

إلا بالتوحيد ، فإنه لا بد له منه ، وإذا لم يحصل له لم يزل فقيراً محتاجاً معذباً
في طلب ما لم يحصل له . والله تعالى : (لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ) وإذا حصل مع
التوحيد الاستغفار : حصل له غناه وسعادته ، وزال عنه ما يعذبه ، ولا حول
ولا قوة إلا بالله .

والعبد مفتقر دائماً إلى التوكل على الله والاستعانة به ، كما هو مفتقر
إلى عبادته ؛ فلا بد أن يشهد دائماً فقره إلى الله ، وحاجته في أن يكون معبوداً له ،
وأن يكون معيناً له ؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله ، ولا ملجأ من الله إلا إليه .
قال تعالى : (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ) أى يخوفكم بأوليائه . هذا هو
الصواب الذى عليه الجمهور ؛ كابن عباس وغيره وأهل اللغة كالفرّاء وغيره .
قال ابن الأنبارى : والذى نختاره فى الآية : يخوفكم أوليائه . تقول العرب
أعطيت الأموال : أى أعطيت القوم الأموال ؛ فيحذفون المفعول الأول .
قلت : وهذا لأن الشيطان يخوف الناس أوليائه تخويفاً مطلقاً ، ليس له فى
تخويف ناس بناس ضرورة ؛ فحذف الأول لأنه ليس مقصوداً .

وقال بعض المفسرين : يخوف أوليائه المنافقين ، والأول أظهر ؛ لأنها
نزلت بسبب تخويفهم من الكفار ؛ فهى إنما نزلت فيمن خوف المؤمنين من
الناس . وقد قال : (يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ، فَلَا تَخَافُوهُمْ) الضمير عائد إلى أوليائه
الشيطان ؛ الذين قال فيهم : (فَآخَشَوْهُمْ) قبلها ، والذى قال الثانى : فسرّها من جهة
المعنى ، وهو أن الشيطان إنما يخوف أوليائه ؛ لأن سلطانه عليهم ؛ فهو يدخل
عليهم المخاوف دائماً ، وإن كانوا ذوى عدد وعدد ، وأما المؤمنون فهم متوكلون
على الله لا يخوفهم الكفار ، أو أنهم أرادوا المفعول الأول ؛ أى : يخوف

المنافقين أولياءه ، وهو يخوف الكفار ، كما يخوف المنافقين ؛ ولو أريد أنه يجعل أولياءه خائفين لم يكن للضمير ما يعود عليه ؛ وهو قوله : (فَلَا تَخَافُوهُمْ) . وأيضاً فإنه يعد أولياءه ويمنيهم ؛ ولكن الكفار : يلقى الله في قلوبهم الرعب من المؤمنين ، والشيطان لا يختار ذلك . قال تعالى : (لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ) وقال : (سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ) ؛ ولكن الذين [قالوا] ذلك من السلف أرادوا أن الشيطان يخوف الذين أظهروا الإسلام وهم يوالون العدو فصاروا بذلك منافقين ؛ وإنما يخاف من الكفار المنافقون بتخويف الشيطان لهم ، كما قال تعالى : (وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ) وقال : (فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ) الآية . فكلما القولين صحيح من حيث المعنى ؛ لكن لفظ أولياءه هم الذين يجعلهم الشيطان مخوفين لا خائفين ، كما دل عليه السياق ، وإذا جعلهم مخوفين فإنما يخافهم من خوفه الشيطان منهم .

فدلت الآية على أن الشيطان يجعل أولياءه مخوفين ، ويجعل ناساً خائفين منهم .

ودلت الآية على أن المؤمن لا يجوز له أن يخاف أولياء الشيطان ، ولا يخاف الناس كما قال : (فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَآخِشُوا) نخوف الله أمر به وخوف أولياء الشيطان نهى عنه . قال تعالى : (لَيْسَ لَكَ مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَآخِشُوا) فمنهى عن خشية الظالم وأمر بخشيته ، وقال : (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ) وقال : (وَإِنِّي فَأَرْهَبُونِ) .

وبعض الناس يقول : يارب إني أخافك وأخاف من لا يخافك ، فهذا

كلام ساقط لا يجوز ؛ بل على العبد أن يخاف الله وحده ولا يخاف أحدا ،
 فإن من لا يخاف الله أذل من أن يخاف ، فإنه ظالم وهو من أولياء الشيطان ،
 فالخوف منه قد نهى الله عنه ، وإذا قيل قد يؤذني قيل : إنما يؤذيك بتسليط
 الله له ، وإذا أراد الله دفع شره عنك دفعه ، فالأمر لله ؛ وإنما يسلط على العبد
 بذنوبه ، وأنت إذا خفت الله فاتقيته وتوكلت عليه كفاك شر كل شر ، ولم يسلطه
 عليك ، فإنه قال : (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) ، وتسليطه يكون بسبب
 ذنوبك وخوفك منه ، فإذا خفت الله وتبت من ذنوبك واستغفرت له لم يسلط
 عليك ، كما قال : (وَمَا كَانِ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ) .

وفي الآثار : « يقول الله : أنا الله لا إله إلا أنا ملك الملوك ، قلوب
 الملوك ونواصيها بيدي ، فمن أطاعني جعلت قلوب الملوك عليه رحمة ، ومن
 عصاني جعلتهم عليه نقمة ، فلا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك ؛ ولكن توبوا
 إلىّ وأطيعون أعطفهم عليكم » .

ولما سلط الله العدو على الصحابة يوم أحد قال : (أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً)
 الآية وقال : (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ) الآيات — والأكثر
 يقرؤون قاتل — والريون الكثير عند جماهير السلف والخلف : هم الجماعات
 الكثيرة ، قال ابن مسعود وابن عباس في رواية عنه والفراء : ألوف كثيرة
 وقال ابن عباس في أخرى ومجاهد وقتادة : جماعات كثيرة وقرئ بالحركات
 الثلاث في الراء ، فعلى هذه القراءة فالريون الذين قاتلوا معه : الذين ما وهنوا
 وما ضعفوا . وأما على قراءة أبي عمرو وغيره ففيها وجهان : —

أحدهما : يوافق الأول أي الريون يقتلون فما وهنوا ، أي : ما وهن من بقي

منهم ، لقتل كثير منهم أى: ما ضعفوا لذلك ولا دخلهم خور ولا ذلوا لعدوهم ، بل قاموا بأمر الله فى القتال حتى أدا لهم الله عليهم وصارت كلمة الله هى العليا .

والثانى : أن النبى صلى الله عليه وسلم قتل معه ربيون كثير فما وهن من بقى منهم لقتل النبى صلى الله عليه وسلم . وهذا يناسب صرخ الشيطان أن محمداً قد قتل ، لكن هذا لا يناسب لفظ الآية ، فالمناسب أنهم مع كثرة المصيبة ما وهنوا ؛ ولو أريد أن النبى قتل ومعه ناس لم يخافوا لم يحتج إلى تكثيرهم بل تقليلهم هو المناسب لها ؛ فإذا كثروا لم يكن فى مدحهم بذلك عبرة .

وأيضاً لم يكن فيه حجة على الصحابة : فإنهم يوم أحد قليلون والعدو أضعافهم ، فيقولون ولم يهنوا ؛ لأنهم ألوف ونحن قليلون .

وأيضاً فقوله : (وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ) يقتضى كثرة ذلك ، وهذا لا يعرف أن أنبياء كثيرين قتلوا فى الجهاد .

وأيضاً فيقتضى أن المقتولين مع كل واحد منهم ربيون كثير ، وهذا لم يوجد ؛ فإن من قبل موسى من الأنبياء لم يكونوا يقاتلون ، وموسى وأنبياء بنى إسرائيل لم يقتلوا فى الغزو ؛ بل ولا يعرف نبى قتل فى جهاد ، فكيف يكون هذا كثيراً ويكون جيشه كثيراً ؟!

والله سبحانه أنكر على من ينقلب سواء كان النبى مقتولاً أو ميتاً ، فلم يذمهم إذا مات أو قتل على الخوف بل على الانقلاب على الأعقاب ، ولهذا تلاها الصديق رضى الله عنه بعد موته صلى الله عليه وسلم فكان لم يسمعوها قبل ذلك .

ثم ذكر بعدها معنى آخر : وهو أن من كان قبلكم كانوا يقاتلون فيقتل منهم

خلق كثير . وهم لا يهنون ، فيكون ذكر الكثرة مناسباً لأن من قتل مع الأنبياء كثير ، وقتل الكثير من الجنس يقتضى الوهن ، فما وهنوا وإن كانوا كثيرين ولو وهنوا دل على ضعف إيمانهم ، ولم يقل هنا : ولم ينقلبوا على أعقابهم فلو كان المراد أن نبيهم قتل لقال فانقلبوا على أعقابهم ، لأنه هو الذى أنكره إذا مات النبي أو قتل ، فأنكر سبحانه شيئين : الارتداد إذا مات أو قتل ، والوهن والضعف والاستكانة لما أصابهم فى سبيل الله من استيلاء العدو ؛ ولهذا قال : (فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ) إلخ . ولم يقل : فما وهنوا لقتل النبي ، ولو قتل وهم أحياء لذكر ما يناسب ذلك ، ولم يقل : (فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) ، ومعلوم أن ما يصيب فى سبيل الله فى عامة الغزوات لا يكون قتل نبي .

وأيضاً فكون النبي قاتل معه أو قتل معه ربيون كثير : لا يستلزم أن يكون النبي معهم فى الغزاة ، بل كل من اتبع النبي وقاتل على دينه فقد قاتل معه ، وكذلك كل من قتل على دينه فقد قتل معه ، وهذا الذى فهم الصحابة ؛ فإن أعظم قتالهم كان بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، حتى فتحوا البلاد شاماً ، ومصرأ ، وعراقاً ، ويمناً ، وعرباً ، وعجمأ ، وروماً ، ومغربأ ، ومشرقأ ، وحينئذ فظهر كثرة من قتل معه ، فإن الذين قاتلوا وأصيبوا وهم على دين الأنبياء كثيرون ، ويكون فى هذه الآية عبرة لكل المؤمنين إلى يوم القيامة ، فإنهم كلهم يقاتلون مع النبي صلى الله عليه وسلم على دينه ؛ وإن كان قد مات ، والصحابة الذين يغزون فى السرايا والنبي ليس معهم : كانوا معه يقاتلون وهم داخلون فى قوله : مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ (الآية وفى قوله :) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا

وَجَهْدُوا مَعَكُمْ) الآية . ليس من شرط من يكون مع المطاع أن يكون مشاهداً للمطاع ناظراً إليه .

وقد قيل في: (ريون) هنا: إنهم العلماء، فلما جعل هؤلاء هذا كلفظ الرباني، وعن ابن زيد هم الأتباع كأنه جعلهم المربوبين . والأول أصح من وجوه :-
أحدها: أن الربانيين عين الأخبار، وهم الذين يربون الناس، وهم أئمتهم في دينهم، ولا يكون هؤلاء إلا قليلاً .

الثاني: أن الأمر بالجهاد والصبر لا يختص بهم، وأصحاب الأنبياء لم يكونوا كلهم ربانيين وإن كانوا قد أعطوا علماً ومعهم الخوف من الله عز وجل .
الثالث: أن استعمال لفظ الرباني في هذا ليس معروفاً في اللغة .

الرابع: أن استعمال لفظ الرب في هذا ليس معروفاً في اللغة؛ بل المعروف فيها هو الأول، والذين قالوه قالوا: هو نسبة للرب بلا نون والقراءة المشهورة (ربي) بالكسر، وما قالوه إنما يتوجه على من قرأه بنصب الراء، وقد قرئ بالضم، فعلم أنها لغات .

الخامس: أن الله تعالى يأمر بالصبر والثبات كل من يأمره بالجهاد، سواء كان من الربانيين أو لم يكن .

السادس: أنه لا مناسبة في تخصيص هؤلاء بالذكر، وإنما المناسب ذكرهم في مثل قوله: (لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ) الآية . وفي قوله: (وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ) فهناك ذكرهم به مناسباً .

السابع: قيل: إن الرباني منسوب إلى الرب، فزيادة الألف والنون كاللحياني وقيل إلى تريته الناس، وقيل إلى ربان السفينة، وهذا أصح؛ فإن

الأصل عدم الزيادة في النسبة ، لأنهم منسوبون إلى الترية ، وهذه تختص بهم ،
وأما نسبتهم إلى الرب فلا اختصاص لهم بذلك ؛ بل كل عبد له فهو منسوب
إليه ، إما نسبة عموم أو خصوص ولم يسم الله أوليائه المتقين ربانيين ، ولا سمى
به رسله وأنبياءه ، فإن الرباني من يرب الناس ، كما يرب الرباني السفينة ؛ ولهذا
كان الربانيون يذمون تارة ، ويمدحون أخرى ، ولو كانوا منسوبين إلى الرب
لم يذموا قط ، وهذا هو الوجه الثامن :

أنها إن جعلت مدحاً فقد ذموا في مواضع ، وإن لم تكن مدحاً
لم يكن لهم خاصة يمتازون بها من جهة المدح ، وإذا كان منسوباً إلى رباني
السفينة بطل قول من يجعل الرباني منسوباً إلى الرب ، فنسبة الربيين إلى الرب
أولى بالبطلان .

التاسع : أنه إذا قدر أنهم منسوبون إلى الرب : فلا تدل النسبة على أنهم
علماء ؛ نعم تدل على إيمان وعبادة وتآله ، وهذا يعم جميع المؤمنين ، فكل من
عبد الله وحده لا يشرك به شيئاً فهو متآله عارف بالله ، والصحابة كلهم كذلك ، ولم
يسموا ربانيين ولا ربيين ، وإنما جاء أن ابن الحنفية قال لما مات ابن عباس :
اليوم مات رباني هذه الأمة ، وذلك لكونه يؤدبهم بما آتاه الله من العلم ؛
والخلفاء أفضل منهم ، ولم يسموا ربانيين ، وإن كانوا هم الربانيين ، وقال
إبراهيم : كان علقمة من الربانيين ؛ ولهذا قال مجاهد : هم الذين يربون الناس
بصغار العلم قبل كباره ، فهم أهل الأمر والنهي ، والإخبار يدخل فيه من أخبر
بالعلم ورواه عن غيره وحدث به وإن لم يأمر ، أو ينه ، وذلك هو المنقول
عن السلف في الرباني ، نقل عن علي قال « هم الذين يغذون الناس بالحكمة

ويربونهم عليها » وعن ابن عباس قال : « هم الفقهاء المعلومون » .
قلت : أهل الأمر والنهي هم الفقهاء المعلومون . وقال قتادة وعطاء : هم الفقهاء
العلماء الحكماء . قال ابن قتيبة : واحد هم رباني وهم العلماء المعلومون . قال أبو عبيد :
أحسب الكلمة عبرانية أو سريانية ، وذلك أن أبا عبيد زعم أن العرب
لا تعرف الربانيين .

قلت : اللفظة عربية منسوبة إلى ربان السفينة الذي ينزلها ويقوم لمصلحتها ؛
ولكن العرب في جاهليتهم لم يكن لهم ربانيون ؛ لأنهم لم يكونوا على شريعة
منزلة من الله عز وجل .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله :-

فصل

قال الله تعالى : (أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) .

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون » .

وكتاب الله يدل على ذلك في مواضع ؛ مثل قوله تعالى : (قُلْ هَلْ أَنْبَيْتُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ) وقوله : (فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ) وقوله : (وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ) . وقال في النصارى : (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ) . وقال : (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ) وقال تعالى : (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قُلْ لَّهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) . وقال تعالى : (مَا كَانَ

لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) وقال تعالى : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِي فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) .

ولما أمرنا الله سبحانه : أن نسأله في كل صلاة أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين ، المغايرين للمغضوب عليهم وللضالين : كان ذلك مما يبين أن العبد يخاف عليه أن ينحرف إلى هذين الطريقين ، وقد وقع ذلك كما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال : « لتسلكن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ؛ حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » قالوا يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن ؟ » وهو حديث صحيح .

وكان السلف يرون أن من انحرف من العلماء عن الصراط المستقيم : فقيه شبه من اليهود ، ومن انحرف من العباد : فقيه شبه من النصارى ، كما يرى في أحوال منحرفة أهل العلم : من تحريف الكلم عن مواضعه ، وقسوة القلوب ، والبخل بالعلم ، والكبر وأمر الناس بالبر ونسيان أنفسهم ، وغير ذلك . وكما يرى في منحرفة أهل العبادة والأحوال من الغلو في الأنبياء والصالحين ، والابتداع في العبادات ، من الرهبانية والصور والأصوات .

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تطروني كما أطرت النصارى

عيسى بن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله « ولهذا حقق الله له نعت العبودية في أرفع مقاماته حيث قال : (سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا) . وقال تعالى : (فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ) . وقال تعالى : (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا) . ولهذا يشرع في التشهد وفي سائر الخطب المشروعة ؛ كخطب الجمع والأعياد ، وخطب الحاجات عند النكاح وغيره ، أن نقول : أشهد أن لا إله الا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحقق عبوديته ؛ لئلا تقع الأمة فيما وقعت فيه النصارى في المسيح ؛ من دعوى الألوهية ، حتى قال له رجل : ما شاء الله وشئت . فقال : « أجعلتني لله نداً ؟ بل ما شاء الله وحده » . وقال أيضاً لأصحابه : « لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ، بل قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد » وقال : « لا تتخذوا قبري عيداً وصلوا على حيث ما كنتم فإن صلاتكم تبلغني . وقال : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وقال : « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك » .

والغلو في الأمة وقع في طائفتين : طائفة من ضلال الشيعة الذين يعتقدون في الأنبياء والأئمة من أهل البيت الألوهية ، وطائفة من جهال المتصوفة يعتقدون نحو ذلك في الأنبياء والصالحين ؛ فمن توهم في نبينا أو غيره من الأنبياء شيئاً من الألوهية والربوبية ؛ فهو من جنس النصارى وإنما حقوق الأنبياء ما جاء به الكتاب والسنة عنهم . قال تعالى في خطابه لبني إسرائيل : (وَءَامَنْتُمْ

بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ

وَلَا دُخْلَكُمْ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) والتعزير : النصر والتوقيـر والتأييد .

وقال تعالى : (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

وَتَعَزَّزُوهُ وَتُوقِّرُوهُ (. فهذا في حق الرسول ، ثم قال في حق الله تعالى :
(وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) . وقال تعالى (وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا

لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ
الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ
الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۖ أُولَٰئِكَ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ) . وقال تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) . (قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ) .

وقال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) .

وقال تعالى : (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ
اَقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا) .

وذكر طاعة الرسول في أكثر من ثلاثين موضعاً من القرآن . وقال :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ) وقال تعالى :

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) وقال تعالى : (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) وقال تعالى : (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ

وَرَسُولُهُ وَيَخْشَى اللَّهَ وَيَتَّقُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) فجعل الطاعة لله والرسول ؛ وجعل
الخشية والتقوى لله وحده . كما قال : (وَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ) .

وقال : (وَإِنِّي فَأَتَّقُونَ) وقال : (فَلَا تَخْشَوْا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ) .

وقال : (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ) ! وقال تعالى :
(لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا) وقال تعالى : (النَّبِيُّ أَوْلَى
بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من
ولده ووالده والناس أجمعين » . وقال له عمر : والله يا رسول الله لانت أحب
إلى من كل أحد إلا من نفسى ؛ فقال : « لا يا عمر ؛ حتى أكون أحب إليك من
نفسك » فقال : فأنت أحب إلى من نفسى قال : « الآن يا عمر » .

فقد بين الله فى كتابه حقوق الرسول صلى الله عليه وسلم من الطاعة له ،
ومحبته ؛ وتعزيره ؛ وتوقيره ؛ ونصره ؛ وتحكيمه ؛ والرضى بحكمه ؛ والتسليم
له ؛ واتباعه والصلاة والتسليم عليه ؛ وتقديمه على النفس والأهل والمال ،
ورد ما يتنازع فيه إليه وغير ذلك من الحقوق .

وأخبر أن طاعته طاعته فقال : (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) ومبايعته
مبايعته فقال : (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ) وقرن بين اسمه واسمه
فى المحبة فقال : (أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) . وفى الأذى فقال :
(إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) وفى الطاعة والمعصية فقال : (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ) . (وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) ، وفى الرضا فقال : (وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ
أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ) فهذا ونحوه هو الذى يستحقه رسول الله ﷺ بأبى هو وأمى .

فأما العبادة والاستعانة بالله وحده لا شريك له كما قال : (وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) . (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ) وقد جمع بينهما في مواضع كقوله : (فَأَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ) . وقوله : (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ) . وقوله : (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) .

وكذلك التوكل كما قال : (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) وقال : (قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ) وقال : (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) .

والدعاء لله وحده سواء كان دعاء العبادة ، أو دعاء المسئلة والاستعانة ، كما قال تعالى : (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا * وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا * قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا) وقال تعالى : (فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) وقال : (فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ) وقال :

(وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) .

وذم الذين يدعون الملائكة والأنبياء وغيرهم فقال : (قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ

مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى

رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) روى

عن ابن مسعود : أن قوما كانوا يدعون الملائكة ؛

والمسيح ، وعزيرا ، فقال الله : هؤلاء الذين تدعونهم يخافون الله ، ويرجونه ، ويتقربون إليه كما تخافونه أتم ، وترجونه ، وتتقربون إليه . وقال تعالى : (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَآئَهُ) وقال : (أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ) ؟ وقال : (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ) .

وتوحيد الله وإخلاص الدين له في عبادته واستعانتة في القرآن : كثير جدا ؛ بل هو قلب الإيمان ؛ وأول الإسلام وآخره . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله » وقال : « إني لأعلم كلمة لا يقولها عند الموت أحد إلا وجد رُوحه لها روحا » وقال : « من كان آخر كلامه لا إله إلا الله : وجبت له الجنة » وهو قلب الدين والإيمان ، وسائر الأعمال كالجوارح له . وقول النبي صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى » فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله : فهجرته إلى الله ورسوله . ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها : فهجرته إلى ما هاجر إليه » فبين بهذا أن النية عمل القلب وهي أصل العمل . وإخلاص الدين لله ، وعبادة الله وحده ، ومتابعة الرسول ﷺ فيما جاء به ، هو شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله . ولهذا أنكرنا على الشيخ يحيى الصرصري : ما يقوله في قصائده في مدح الرسول ﷺ من الاستغاثة به ، مثل قوله : بك أستغيث وأستعين وأستنجد . ونحو ذلك .

وكذلك ما يفعله كثير من الناس ، من استنجاد الصالحين والمتشبهين بهم ؛ والاستعانة بهم أحياء وأمواتا ، فإنى أنكرت ذلك فى مجالس عامة وخاصة ، وبينت للناس التوحيد ، ونفع الله بذلك ما شاء الله من الخاصة والعامة .

وهو دين الإسلام العام ، الذى بعث الله به جميع الرسل . كما قال تعالى :
(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) (وقال : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) وقال : (وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ) وقال : (يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّو مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) وقال : (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ)
وقال : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل : يا معاذ أتدرى ما حق الله على عباده ؟ قلت الله ورسوله أعلم . قال : « حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ أن لا يعذبهم » وقال لابن عباس : « إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله » .

ويدخل فى العبادة الخشية ، والإنابة ، والإسلام ، والتوبة ، كما قال تعالى : (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ) (وقال : (فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْا اللَّهَ) وقال : (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ ءَامِنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ) وقال الخليل :
(وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا

تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) . وقال : (أَلَا تَقْنَلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ) إلى قوله : (اتَّخَشُونَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ أَهَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (وَإِنِّي فَاتَّقُونَ) وقال : (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ) وقال نوح : (أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا) . فجعل العبادة والتقوى لله ، وجعل له أن يطاع . كما قال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ) . وكذلك قالت الرسل مثل نوح ، وهود ، وصالح ، وشعيب ، ولوط وغيرهم : (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا) فجعلوا التقوى لله ، وجعلوا لهم أن يطاعوا . وكذلك في مواضع كثيرة جدا من القرآن : (اتقوا الله) (اتقوا الله) . (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ) . وكذلك " .

وقال : (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ) وقال : (وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ) وقال عن إبراهيم : (إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) . وقالت بلقيس : (وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) وقال : (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا) وقال : (بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ) وقال : (وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا) (وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا) وقال : (فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ) (تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا) ، والاستغفار : (اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا)

(وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ) . والاسترزاق والاستنصار ، كما في صلاة الاستسقاء ، والقنوت على الأعداء ، قال : (فَأَبْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لَهُ) وقال : (إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) والاستغاثة كما قال : (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ) ، والاستجارة كما قال : (قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ) ؟ والإستعاذة كما قال : (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) و (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) وقال : (وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ) . وقال : (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ) الآية . وتفويض الأمر كما قال مؤمن آل فرعون : (وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) .

وفي الحديث المتفق عليه في الدعاء الذي عليه النبي صلى الله عليه وسلم أن يقال عند المنام : « اللهم إني أسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك » .

وقال : (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ) . وقال : (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ) فالولي الذي يتولى أمرك كله ، والشفيع الذي يكون شافعاً فيه أى عوناً ، فليس للعبد دون الله من ولي يستقل ولا ظهير معين وقال : (وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ) ، وقال : (مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ) . وقال : (أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا

لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا ۖ إِنَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ (،
وقال : (قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَ
الْأَرْضِ وَمَا هُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرِكٍ ۚ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ
أُذِنَ لَهُ) .

وقال : (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) وقال : (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي
شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى) .

فالعبادة والاستعانة وما يدخل في ذلك من الدعاء ، والاستغاثة ، والخشية ،
والرجاء ، والإنابة ، والتوكل ، والتوبة ، والاستغفار : كل هذا لله وحده
لا شريك له ، فالعبادة متعلقة بألوهيته ، والاستعانة متعلقة بربوبيته ، والله
رب العالمين لا إله إلا هو ، ولا رب لنا غيره ، لا ملك ولا نبي ولا غيره ؛
بل أكبر الكبار الإشراف بالله وأن تجعل له نداً وهو خلقك ، والشرك
أن تجعل لغيره شركاً أي نصيباً في عبادتك ، وتوكلك ، واستعانتك ، كما قال
من قال : (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) وكما قال تعالى : (وَمَا نَرَى مَعَكُمْ
شُفَعَاءَ كُفَّ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ) وكما قال : (أَمْ آتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ
قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَآ يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ) ؟ وكما قال : (مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ
وَلَا شَفِيعٍ) .

وأصناف العبادات الصلاة بأجزائها مجتمعة ، وكذلك أجزاؤها التي هي
عبادة بنفسها ، من السجود ، والركوع ، والتسبيح ، والدعاء ، والقراءة ،
والقيام ، لا يصلح إلا لله وحده .

ولا يجوز أن يتنفل على طريق العبادة إلا لله وحده ، لا لشمس ، ولا لقمر

ولا لملك ؛ ولا لنبي ؛ ولا صالح ؛ ولا لقبر نبي ؛ ولا صالح ؛ هذا في جميع ملل الأنبياء ، وقد ذكر ذلك في شريعتنا حتى نهى أن يتنفل على وجه التحية والإكرام للمخلوقات ؛ ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم معاذاً أن يسجد له . وقال : « لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها » . ونهى عن الانحناء في التحية ، ونهاهم أن يقوموا خلفه في الصلاة وهو قاعد .

وكذلك الزكاة العامة ، من الصدقات كلها والخاصة ، لا تصدق إلا لله ، كما قال تعالى : (وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ الْأَعْلَى) وقال : (إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ) . وقال : (وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ) وقال : (وَمَاءَ أَنْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ) . فلا يجوز فعل ذلك على طريق الدين لا لملك ؛ ولا لشمس ؛ ولا لقمر ؛ ولا لنبي ؛ ولا لصالح ، كما يفعل بعض السوءال والمعظمين كرامة لفلان وفلان ، يقسمون بأشياء : إما من الأنبياء وإما من الصحابة وإما من الصالحين ، كما يقال : بكر وعلى ونور الدين أرسلان والشيخ عدى والشيخ جاليد .

وكذلك الحج لا يحج إلا إلى بيت الله ، فلا يطاف إلا به ، ولا يحلق الرأس إلا به ، ولا يوقف إلا بفنائه ، لا يفعل ذلك بنبي ؛ ولا صالح ؛ ولا بقبر نبي ؛ ولا صالح ؛ ولا بوثن ؛ وكذلك الصيام لا يصام عبادة إلا لله ، فلا يصام لأجل الكواكب والشمس والقمر ، ولا لقبور الأنبياء والصالحين ونحو ذلك .

وهذا كله تفصيل الشهادتين : اللتين هما أصل الدين شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدا عبده ورسوله ، والإله من يستحق أن يألهه العباد ، ويدخل فيه حبه وخوفه ، فما كان من توابع الألوهية فهو حق محض لله ، وما كان من أمور الرسالة فهو حق الرسول .

ولما كان أصل الدين الشهادتين : كانت هذه الأمة الشهداء ولها وصف الشهادة ، والقسيسون لهم العبادة بلا شهادة ؛ ولهذا قالوا : (رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) ؛ ولهذا كان المحققون على أن الشهادتين أول واجبات الدين ، كما عليه خلص أهل السنة وذكره منصور السمعاني والشيخ عبد القادر وغيرهما ؛ وجعله أصل الشرك ، وغيروا بذلك ملة التوحيد التي هي أصل الدين ؛ كما فعله قدماء المتفلسفة ؛ الذين شرعوا من الدين مالم يأذن به الله .

ومن أسباب ذلك : الخروج عن الشريعة الخاصة التي بعث الله بها محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ إلى القدر المشترك الذي فيه مشابهة الصابئين ، أو النصارى ، أو اليهود ؛ وهو القياس الفاسد ، المشابه لقياس الذين قالوا : (إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا) فيريدون أن يجعلوا السماع جنساً واحداً ، والملة جنساً واحداً ، ولا يميزون بين مشروعه ومبتدعه ، ولا بين المأمور به والمنهى عنه . فالسماع الشرعي الديني سماع كتاب الله وتزيين الصوت به وتحديره . كما قال صلى الله عليه وسلم : « زينوا القرآن بأصواتكم » وقال أبو موسى : لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيرا . والصور ، والازواج ، والسراري التي أباحها الله تعالى .

والعبادة : عبادة الله وحده لا شريك له (فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ
فِيهَا أَسْمُهُ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ) .

وهذا المعنى يقرر قاعدة اقتضاء الصراط المستقيم ؛ مخالفة أصحاب الجحيم ؛
وينهى أن يشبه الأمر الديني الشرعي بالطبيعي البدعي ؛ لما بينهما من القدر
المشترك كالصوت الحسن ، ليس هو وحده مشروعا حتى ينضم إليه القدر
المميز ؛ كحروف القرآن ؛ فيصير المجموع من المشترك ، والمميز هو
الدين النافع .

وقال - رحمه الله -

فصل

في أن لا يسأل العبد إلا الله

قال الله تعالى : (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب) قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس : « إذا سألت فاسأل الله . وإذا استعنت فاستعن بالله » . وفي الترمذى : « ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله إذا انقطع ، فإنه إن لم ييسره لم ييسر » وفي الصحيح ، أنه قال لعدى بن مالك والرهط الذين بايعهم معه : « لا تسألوا الناس شيئاً » فكان سوط أحدهم يسقط من يده : فلا يقول لأحد ناولنى إياه ، وفي الصحيح فى حديث السبعين ألفا ، الذين يدخلون الجنة بغير حساب : « هم الذين لا يسترقون ، ولا يكتون ، ولا يتطيرون » والاسترقاء طلب الرقية ، وهو نوع من السؤال . وأحاديث النهى عن مسألة الناس الأموال كثيرة كقوله : « لا تحل المسألة إلا لثلاثة » وقوله : « لأن يأخذ أحدكم حبله » الحديث ، وقوله « لا تزال المسألة بأحدكم ... » وقوله : « من سأل الناس وله ما يغنيه ... » وأمثال ذلك . وقوله : « من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس : لم تسد فاقته » الحديث . فأما سؤال ما يسوغ مثله من العلم : فليس من هذا الباب ؛ لأن المخبر

لا ينقص الجواب من علمه بل يزداد بالجواب ، والسائل محتاج إلى ذلك ؛ قال صلى الله عليه وسلم : « هلا سألوا إذ لم يعلموا ؟ فإن شفاء العي السؤال » ! ولكن من المسائل ما ينهى عنه . كما قال تعالى : (لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ) الآية . وكنهيه عن أغلوطات المسائل ونحو ذلك .

وأما سؤله لغيره أن يدعو له : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر : « لاتنسنا من دعائك » وقال : « إذا سمعتم المؤذن : فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا على فإنه من صلى على مرة صلى الله عليه عشرا ، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد ! فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له شفاعتي يوم القيامة » . وقد يقال في هذا : هو طلب من الأمة الدعاء له ؛ لأنهم إذا دعوا له حصل لهم من الأجر أكثر مما لو كان الدعاء لأنفسهم ، كما قال للذي قال : أجعل صلاتي كلها عليك ؟ فقال : « إذا يكفيك الله ما أهمك من أمر دنياك وآخرتك » فطلبه منهم الدعاء له : لمصلحتهم ، كسائر أمره إياهم بما أمر به وذلك لما في ذلك من المصلحة لهم ، فإنه قد صح عنه أنه قال : « ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة : إلا وكل الله به ملكا كل ما دعا دعوة قال الملك الموكل به : آمين ولك مثله » .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله : -

فصل

العبادات مبناها على الشرع والاتباع ، لا على الهوى والابتداع ، فإن الإسلام مبنى على أصليين :

أحدهما : أن نعبد الله وحده لا شريك له .

والثاني : أن نعبد بما شرعه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ،

لا نعبد بالأهواء والبدع ، قال الله تعالى : (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا) الآية .
وقال تعالى : (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ) .

فليس لأحد أن يعبد الله إلا بما شرعه رسوله صلى الله عليه وسلم ، من واجب ومستحب ، لا نعبد بالأمور المبتدعة ، كما ثبت في السنن من حديث « العرباض بن سارية » قال « الترمذى » : حديث حسن صحيح . وفي « مسلم » أنه كان يقول في خطبته : « خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » .

وليس لأحد أن يعبد إلا الله وحده ، فلا يصلى إلا لله ، ولا يصوم إلا لله ،

ولا يحج إلا بيت الله ، ولا يتوكل إلا على الله ، ولا يخاف إلا الله ، ولا ينذر إلا الله ، ولا يحلف إلا بالله . وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت » . وفي السنن : « من حلف بغير الله فقد أشرك » وعن ابن مسعود « لأن أحلف بالله كاذباً أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقاً » لأن الحلف بغير الله شرك ، والحلف بالله توحيد . وتوحيد معه كذب ؛ خير من شرك معه صدق ؛ ولهذا كان غاية الكذب أن يعدل بالشرك ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « عدلت شهادة الزور الإشراف بالله مرتين أو ثلاثاً » وقرأ قوله تعالى : (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) وإذا كان الحالف بغير الله قد أشرك ، فكيف الناذر لغير الله ؟ . والناذر أعظم من الحلف ولهذا لو نذر لغير الله فلا يجب الوفاء به ؛ باتفاق المسلمين . مثل أن ينذر لغير الله صلاة ؛ أو صوما ؛ أو حجا ؛ أو عمرة ؛ أو صدقة .

ولو حلف ليفعلن شيئاً ، لم يجب عليه أن يفعله ، قيل يجوز له أن يكفر عن اليمين ؛ ولا يفعل المحلوف عليه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذي هو خير ، وليكفر عن يمينه » ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه نهى عن النذر وقال : (إنه لا يأتي بخير ، وإنما يستخرج به من البخيل) فإذا كان النذر لا يأتي بخير فكيف بالنذر للمخلوق ؟ ولكن النذر لله يجب الوفاء به إذا كان في طاعة ، وإذا كان معصية لم يجز الوفاء باتفاق العلماء ، وإنما تنازعوا

هل فيه بدل ، أو كفارة يمين ، أم لا ؟ لما رواه البخارى فى صحيحه ؛ عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » .

فمن ظن أن النذر للمخلوقين يجلب له منفعة ، أو يدفع عنه مضرة ، فهو من الضالين ، كالذين يظنون أن عبادة المخلوقين تجلب لهم منفعة ، أو تدفع عنهم مضرة .

وهؤلاء المشركون قد تتمثل لهم الشياطين ؛ وقد تخاطبهم بكلام ، وقد تحمل أحدهم فى الهواء ، وقد تخبره ببعض الأمور الغائبة ، وقد تأتبه بنفقة أو طعام ؛ أو كسوة ؛ أو غير ذلك ، كما جرى مثل ذلك لعباد الأصنام من العرب وغير العرب ، وهذا كثير ، موجود فى هذا الزمان ؛ وغير هذا الزمان ؛ للضالين المبتدعين المخالفين للكتاب والسنة ، إما بعبادة غير الله ، وإما بعبادة لم يشرعها الله .

وهؤلاء إذا أظهر أحدهم شيئاً خارقاً للعادة لم يخرج عن أن يكون حالاً شيطانياً ، أو محالاً بهتانياً فخواصهم تقترب بهم الشياطين ؛ كما يقع لبعض العقلاء منهم ، وقد يحصل ذلك لغير هؤلاء ؛ لكن لا تقترب بهم الشياطين إلا مع نوع من البدعة ، إما كفر ، وإما فسق ، وإما جهل بالشرع . فإن الشيطان قصده إغواء بحسب قدرته ، فإن قدر على أن يجعلهم كفاراً جعلهم كفاراً وإن لم يقدر إلا على جعلهم فساقاً ، أو عصاة ، وإن لم يقدر إلا على نقص عملهم ودينهم ، ببدعة يرتكبونها يخالفون بها الشريعة التى بعث الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم فينتفع منهم بذلك !!

ولهذا قال الأئمة : لو رأيتم الرجل يطير في الهواء أو يمشی على الماء ؛ فلا تغتروا به ، حتى تنظروا وقوفه عند الأمر والنهی ، ولهذا يوجد كثير من الناس يطير في الهواء وتكون الشياطين هي التي تحمله ، لا يكون من كرامات أولياء الله المتقين .

ومن هؤلاء : من يحمله الشيطان إلى عرفات فيقف مع الناس ، ثم يحمله فيرده إلى مدينته تلك الليلة ، ويظن هذا الجاهل أن هذا من أولياء الله ، ولا يعرف أنه يجب عليه أن يتوب من هذا ، وإن اعتقد أن هذا طاعة وقربة إليه ؛ فإنه يستتاب ؛ فإن تاب وإلا قتل ، لأن الحج الذي أمر الله به ورسوله لا بد فيه من الإحرام ، والوقوف بعرفة ، ولا بد فيه من أن يطوف بعد ذلك طواف الإفاضة ، فإنه ركن لا يتم الحج إلا به ؛ بل عليه أن يقف بمزدلفة ، ويرمي الجمار ويطوف للوداع ، وعليه اجتناب المحظورات ، والإحرام من الميقات . إلى غير ذلك من واجبات الحج . وهؤلاء الضالون الذين يضلهم الشيطان يحملهم في الهواء ، يحمل أحدهم بثيابه ؛ فيقف بعرفة ويرجع من تلك الليلة . حتى يرى في اليوم الواحد ببلده ويرى بعرفة .

ومنهم من يتصور الشيطان بصورته ويقف بعرفة ، فيراه من يعرفه واقفا ، فيظن أنه ذلك الرجل وقف بعرفة ! . فإذا قال له ذلك الشيخ أنا لم أذهب العام إلى عرفة ؛ ظن أنه ملك خلق على صورة ذلك الشيخ ، وإنما هو شيطان تمثل على صورته ، ومثل هذا وأمثاله يقع كثيرا ، وهي أحوال شيطانية ، قال تعالى :
(وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) . وذكر الرحمن هو الذكر الذي أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم . قال تعالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا

الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وقال تعالى : (فَاِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى - إلى قوله -
كَذَلِكَ أَنْتَكَ ءَايَتُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنَسِيْ) و نسيانها هو ترك الإيمان
والعمل بها ؛ وإن حفظ حروفها ، قال ابن عباس : « تكفل الله لمن قرأ
القرآن وعمل بما فيه ، أن لا يضل في الدنيا ، ولا يشقى في الآخرة » وقرأ
هذه الآية ، فمن اتبع ما بعث الله به رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم
من الكتاب والحكمة هداه الله وأسعده ، ومن أعرض عن ذلك ضل وشقى ،
وأضله الشيطان وأشقاه .

فالأحوال الرحمانية وكرامات أوليائه المتقين يكون سببه الإيمان ، فإن
هذه حال أوليائه . قال تعالى : (الْآيَاتِ أَوْلِيَآءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) وتكون نعمة الله على عبده المؤمن في دينه ودنياه ،
فتكون الحجة في الدين والحاجة في الدنيا للمؤمنين ، مثل ما كانت معجزات نبينا
محمد صلى الله عليه وسلم : كانت الحجة في الدين والحاجة للمسلمين ، مثل
البركة التي تحصل في الطعام والشراب ؛ كنبع الماء من بين أصابعه ، ومثل
نزول المطر بالاستسقاء ، ومثل قهر الكفار وشفاء المريض بالدعاء ،
ومثل الأخبار الصادقة ، والنافعة بما غاب عن الحاضرين ، وأخبار الأنبياء
لا تكذب قط .

وأما أصحاب الأحوال الشيطانية ، فهم من جنس الكهان ، يكذبون تارة
ويصدقون أخرى ، ولا بد في أفعالهم من مخالفة للأمر . قال تعالى : (هَلْ
أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) (الآيتين .

ولهذا يوجد الواحد من هؤلاء ملابسا الخبائث من النجاسات والأقذار ؛

التي تحبها الشياطين ؛ ومرتكبا للفواحش ، أو ظالما للناس في أنفسهم وأموالهم ، وغير ذلك والله تعالى قد حرم : (الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ) الآية .

وأولياء الله هم الذين يتبعون رضاه بفعل المأمور ، وترك المحذور ، والصبر على المقدور ، وهذه جملة لها بسط طويل لا يتسع له هذا المكان . والله أعلم .

وقال شيخ الإسلام

فصل جامع

قد كتبت فيما تقدم في مواضع قبل بعض القواعد ، وآخر مسودة الفقه :
أن جماع الحسنات العدل ، وجماع السيئات الظلم ؛ وهذا أصل جامع عظيم .
وتفصيل ذلك : أن الله خلق الخلق لعبادته ، فهذا هو المقصود المطلوب
لجميع الحسنات ، وهو إخلاص الدين كله لله ، وما لم يحصل فيه هذا المقصود : فليس
حسنة مطلقة مستوجبة لثواب الله في الآخرة ؛ وإن كان حسنة من بعض الوجوه
له ثواب في الدنيا ، وكل ما نهى عنه فهو زيغ وانحراف عن الاستقامة ، ووضع
للشيء في غير موضعه : فهو ظلم .

ولهذا جمع بينهما سبحانه في قوله : (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ
كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) فهذه الآية في سورة الأعراف المشتملة
على أصول الدين ، والاعتصام بالكتاب ، وذم الذين شرعوا من الدين ما لم
يأذن به الله ؛ كالشرك وتحريم الطيبات ، أو خالفوا ما شرعه الله من أمور دينهم ،
كإبليس ، ومخالف الرسل من قوم نوح إلى قوم فرعون ، والذين بدلوا الكتاب
من أهل الكتاب ؛ فاشتملت السورة على ذم من أتى بدين باطل ككفار العرب ،
ومن خالف الدين الحق كله كالكفار بالأنبياء ؛ أو بعضه ككفار أهل الكتاب .
وقد جمع سبحانه في هذه السورة وفي الأنعام وفي غيرها ذنوب المشركين
في نوعين .

أحدهما أمر بما لم يأمر الله به كالشرك ونهى عما لم ينه الله عنه كتحریم الطیبات فالأول شرع من الدین ما لم يأذن به الله .
والثانی تحریم لما لم یحرمه الله .

وكذلك فی الحدیث الصحیح حدیث عیاض بن حمار : عن النبی صلی الله علیه وسلم : عن الله تعالى : « إني خلقت عبادی حنفاء فاجتالهم الشیاطین ، فحرمت علیهم ما أحلت لهم ، وأمرتهم أن یشرکوا بی ما لم أنزل به سلطانا » .
ولهذا کان ابتداع العبادات الباطلة من الشرک ونحوه : هو الغالب علی النصارى ومن ضاهاهم من منحرفة المتعبدة ، والمتصوفة ، وابتداع التحریمات الباطلة هو الغالب علی اليهود ومن ضاهاهم من منحرفة المتفقهة ، بل أصول دین اليهود فیہ آصار وأغلال من التحریمات ؛ ولهذا قال لهم المسیح : (وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ) وأصل دین النصارى فیہ تأله بالفاظ متشابهة ، وأفعال مجملة ، فالذین فی قلوبهم زیغ اتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأویله ، قررته فی غیر هذا الموضع : بأن توحید الله الذی هو إخلاص الدین له ، والعدل الذی نفعله نحن هو جماع الدین یرجع إلى ذلك ، فإن إخلاص الدین لله أصل العدل ، كما أن الشرک بالله ظلم عظیم .

وقال ينبغي الإسراع :-

اعلم رحمك الله أن الشرك بالله أعظم ذنب عصى الله به . قال الله تعالى :
(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) وفي الصحيحين
أنه صلى الله عليه وسلم سئل : أى الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله ندا وهو
خلقك » والند المثل . قال تعالى : (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) .
وقال تعالى : (وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلُوبًا تَمَتَّعَ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ
النَّارِ) . فمن جعل لله ندا من خلقه فيما يستحقه عز وجل من الإلهية والربوبية
فقد كفر بإجماع الأمة .

فإن الله سبحانه هو المستحق للعبادة لذاته : لأنه المألوه المعبود ، الذى تأله
القلوب وترغب إليه ، وتفزع إليه عند الشدائد ، وما سواه فهو مفتقر مقهور
بالعبودية ، فكيف يصلح أن يكون إلها ؟! . قال الله تعالى : (وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ
جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ) وقال تعالى : (إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا) . وقال الله تعالى : (لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ
عَبْدَ اللَّهِ وَلَا الْمَلَكَةُ الْمُقَرَّبُونَ) . وقال تعالى : (وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي
لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ) . وقال تعالى : (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ) .

فالله - سبحانه - هو المستحق أن يعبد لذاته . قال تعالى : (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ) فذكر (الحمد) بالألف واللام التي تقتضى الاستغراق لجميع المحامد ،
فدل على أن الحمد كله لله ، ثم حصره في قوله : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) . فهذا
تفصيل لقوله : (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) . فهذا يدل على أنه لا معبود إلا الله ،
وأنه لا يستحق أن يعبد أحد سواه ، فقوله : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) إشارة إلى عبادته
بما اقتضته إلهيته : من المحبة ، والخوف ، والرجاء ، والأمر ، والنهي . (وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ) إشارة إلى ما اقتضته الربوبية ؛ من التوكل والتفويض والتسليم ، لأن
الرب - سبحانه وتعالى - هو المالك ، وفيه أيضا معنى الربوبية والإصلاح ، والمالك
الذى يتصرف فى ماله كما يشاء .

فإذا ظهر للعبد من سر الربوبية أن الملك والتدبير كله بيد الله تعالى ،
قال تعالى : (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) : فلا يرى
نفعاً ، ولا ضراً ، ولا حركة ، ولا سكونا ، ولا قبضاً ، ولا بسطاً ،
ولا خفضاً ، ولا رفعا ، إلا والله - سبحانه وتعالى - فاعله ، وخالقه ،
وقابضه ، وباسطه ، ورافعه ، وخافضه ، فهذا الشهود هو سر الكلمات
الكونيات . . . وهو علم صفة الربوبية . والأول هو علم صفة الإلهية وهو
كشف سر الكلمات التكليفيات .

فالتحقيق بالأمر والنهي ، والمحبة والخوف والرجاء ؛ يكون عن كشف علم
الإلهية .

والتحقيق بالتوكل والتفويض والتسليم : يكون بعد كشف علم الربوبية

وهو علم التدبير السارى فى الأكوان ؛ كما قال عز وجل : (إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) . فإذا تحقق العبد لهذا المشهد ، ووفقه لذلك ؛ بحيث لا يحجبه هذا المشهد عن المشهد الأول فهو الفقيه فى عبوديته ؛ فإن هذين المشهدين عليهما مدار الدين ، فإن جميع مشاهد الرحمة واللفف والكرم ، والجمال : داخل فى مشهد الربوبية .

ولهذا قيل : إن هذه الآية جمعت جميع أسرار القرآن : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) لأن أولها اقتضى عبادته بالأمر والنهى ، والمحبة والخوف ، والرجاء كما ذكرنا ؛ وآخرها اقتضى عبوديته بالتفويض والتسليم ، وترك الاختيار ، وجميع العبوديات داخلية فى ذلك .

ومن غاب عن هذا المشهد وعن المشهد الأول . ورأى قيام الله عز وجل على جميع الأشياء ، وهو القيام على كل نفس بما كسبت ، وتصرفه فيها ، وحكمه عليها ؛ فرأى الأشياء كلها منه صادرة عن نفاذ حكمه ، وإرادته القدريية ؛ فغاب بما لاحظ عن التمييز والفرق ، وعطل الأمر والنهى والنبوات ، ومرق من الإسلام مروق السهم من الرمية .

وإن كان ذلك المشهد قد أدهشه وغيب عقله ؛ لقوة سلطانه الوارد ، وضعف قوة البصيرة ؛ أن يجمع بين المشهدين ، فهذا معذور منقوص إلا من جمع بين المشهدين : الأمر الشرعى ، ومشهد الأمر الكونى الإرادى ، وقد زلت فى هذا المشهد أقدام كثيرة من السالكين ؛ لقلة معرفتهم بما بعث الله به المرسلين وذلك لأنهم عبدوا الله على مرادهم منه ، ففنوا بمرادهم عن مراد الحق — عز وجل — منهم ، لأن الحق يغنى بمراده ومحبوه ، ولو عبدوا الله على

مراده منهم لم ينلهم شيء من ذلك ؛ لأن العبد إذا شهد عبوديته ولم يكن مستيقظاً لأمر سيده ، لا يغيب بعبادته عن معبوده ، ولا بمعبوده عن عبادته ، بل يكون له عينان ينظر بأحدهما إلى المعبود كأنه يراه ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الإحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » والأخرى ينظر بها إلى أمر سيده ، ليوقه على الأمر الشرعى الذى يحبه مولاه ويرضاه . فإذا تقرر هذا ؛ فالشرك إن كان شركاً يكفر به صاحبه . وهو نوعان : —
شرك فى الإلهية ، وشرك فى الربوبية .

فأما الشرك فى الإلهية فهو : أن يجعل لله نداً - أى : مثلاً فى عبادته ، أو محبته ، أو خوفه ، أو رجائه ، أو إنابته ، فهذا هو الشرك الذى لا يغفره الله إلا بالتوبة منه . قال تعالى : (قُلِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَّا قَدْ سَلَفَ) وهذا هو الذى قاتل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم مشركى العرب ، لأنهم أشركوا فى الإلهية ، قال الله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) الآية (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) الآية (أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) وقال تعالى : (أَلْقِيَافِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ - إلى قوله - الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرًا فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ) .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم لحصين : « كم تعبد » ؟ قال : ستة فى الأرض وواحد فى السماء . قال : « فمن الذى تعد لرغبتك ورهبتك » ؟ قال : الذى فى السماء . قال : « ألا تسلم فأعليك كلمات » ؟ فأسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « قل : اللهم ألهمنى رشدى ، وقنى شر نفسى » .

وأما الربوبية فكانوا مقرين بها ، قال الله تعالى : (وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ) وقال : (قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ) إلى قوله : (فَأَنِّي تُسْحَرُونَ) وما اعتقد أحد منهم قط أن الأصنام هي التي تنزل الغيث ، وترزق العالم وتدبره ، وإنما كان شركهم كما ذكرنا ، اتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم تحب الله ، وهذا المعنى يدل على أن من أحب شيئاً من دون الله ، كما يحب الله تعالى فقد أشرك ، وهذا كقوله : (قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ تُسَوِّىكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ) . وكذا من خاف أحداً كما يخاف الله ، أو رجاه كما يرجو الله ، وما أشبه ذلك .

وأما النوع الثانى : فالشرك فى الربوبية ، فإن الرب سبحانه هو المالك المدبر ، المعطى المانع ، الضار النافع ، الخافض الرافع ، المعز المذل ، فمن شهد أن المعطى أو المانع ، أو الضار أو النافع ، أو المعز أو المذل غيره ، فقد أشرك بربوبيته .

ولكن إذا أراد التخلص من هذا الشرك ، فلينظر إلى المعطى الأول مثلاً ، فيشكره على ما أولاه من النعم ، وينظر إلى من أسدى إليه المعروف فيكافيه عليه ، لقوله عليه السلام : « من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له ، حتى تروا أنكم قد كافأتموه » لأن النعم كلها لله تعالى ، كما قال تعالى : (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) وقال تعالى : (كَلَّا نُمَدِّدْهُمْ هَتُولًا وَهَتُولًا مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ) فالله سبحانه هو المعطى على الحقيقة فإنه هو الذى خلق الأرزاق وقدرها ، وساقها إلى من يشاء من عباده ، فالمعطى هو الذى أعطاه ، وحرك قلبه لعطاء غيره . فهو الأول والآخر .

ومما يقوى هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم لا بن عباس رضى الله عنهما :
« واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك ، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله
لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك ، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك .
رفعت الأقلام وجفت الصحف » قال الترمذى : هذا حديث صحيح . فهذا
يدل على أنه لا ينفع فى الحقيقة إلا الله ، ولا يضر غيره ، وكذا جميع ما ذكرنا
فى مقتضى الربوبية .

فمن سلك هذا المسلك العظيم استراح من عبودية الخلق ونظره إليهم ،
وأراح الناس من لومه وذمه وإيأهم ، وتجرد التوحيد فى قلبه ، فقوى إيمانه
وانشرح صدره ، وتنور قلبه ، ومن توكل على الله فهو حسبه ولهذا قال الفضيل
ابن عياض - رحمه الله : من عرف الناس استراح . يريد - والله أعلم - أنهم
لا ينفعون ولا يضرون .

وأما الشرك الخفى : فهو الذى لا يكاد أحد أن يسلم منه ، مثل :
أن يحب مع الله غيره .

فإن كانت محبته لله مثل حب النيين والصالحين ، والأعمال الصالحة
فليست من هذا الباب ، لأن هذه تدل على حقيقة المحبة ، لأن حقيقة المحبة
أن يحب المحبوب وما أحبه ، ويكره ما يكرهه ، ومن صحت محبته امتنعت مخالفته
لأن المخالفة إنما تقع لنقص المتابعة ، ويدل على نقص المحبة قول الله تعالى :

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) (الآية ...)

فليس الكلام فى هذا .

إنما الكلام في محبة تتعلق بالنفوس لغير الله تعالى ، فهذا لاشك أنه نقص في توحيد المحبة لله ، وهو دليل على نقص محبة الله تعالى إذ لو كملت محبته ، لم يحب سواه .

ولا يرد علينا الباب الأول . لأن ذلك داخل في محبته . وهذا ميزان لم يجر عليك كلما قويت محبة العبد لمولاه ، صغرت عنده المحبوبات وقلت ، وكلما ضعفت ، كثرت محبوباته وانتشرت .

وكذا الخوف . والرجاء ، وما أشبه ذلك ، فإن كمل خوف العبد من ربه لم يخف شيئاً سواه ، قال الله تعالى : (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ) وإذا نقص خوفه خاف من المخلوق ، وعلى قدر نقص الخوف وزيادته . يكون الخوف كما ذكرنا في المحبة ، وكذا الرجاء وغيره . فهذا هو الشرك الخفي ، الذي لا يكاد أحد أن يسلم منه ، إلا من عصمه الله تعالى . وقد روى أن الشرك في هذه الأمة أخفى من ديب النمل .

وطريق التخلص من هذه الآفات كلها : الإخلاص لله عز وجل . قال الله تعالى : (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) ولا يحصل الإخلاص إلا بعد الزهد ، ولا زهد إلا بتقوى ، والتقوى متابعة الأمر والنهي .

فصل

ولا بد من التنبيه على قاعدة تحرك القلوب إلى الله عز وجل ، فتعصم به ، فتقل آفاتهما ، أو تذهب عنها بالكلية ؛ بحول الله وقوته .

فنقول إعلم أن محركات القلوب إلى الله عز وجل ثلاثة : المحبة ، والخوف والرجاء . وأقواها المحبة ، وهي مقصودة تراد لذاتها ، لأنها تراد في الدنيا والآخرة بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة ، قال الله تعالى : (أَلَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ)
اللَّهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (والخوف المقصود منه : الزجر والمنع من الخروج عن الطريق ، فالمحبة تلقى العبد في السير إلى محبوبه ، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه ، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب ، والرجاء يقوده ؛ فهذا أصل عظيم ، يجب على كل عبد أن يتنبه له ، فإنه لا تحصل له العبودية بدونه ، وكل أحد يجب أن يكون عبداً لله لا لغيره .

فإن قيل فالعبد في بعض الأحيان ؛ قد لا يكون عنده محبة تبعثه على طلب محبوبه ، فأى شيء يحرك القلوب ؟ قلنا يحركها شيان : -

أحدهما : كثرة الذكر للمحبوب ، لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به ، ولهذا أمر الله عز وجل بالذكر الكثير ، فقال تعالى : (يَتَذَكَّرُ الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) الآية ..

والثاني : مطالعة آلائه ونعمائه ، قال الله تعالى : (فَادْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ

تُفْلِحُونَ) وقال تعالى : (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ) . وقال تعالى : (وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ) وقال تعالى : (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا) .

فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه ، من تسخير السماء والأرض ، وما فيها من الأشجار والحيوان ، وما أسبغ عليه من النعم الباطنة ، من الإيمان وغيره ، فلا بد أن يثير ذلك عنده باعثا ، وكذلك الخوف ؛ تحركة مطالعة آيات الوعيد ، والزجر ، والعرض ، والحساب ونحوه ؛ وكذلك الرجاء ؛ يحركة مطالعة الكرم ، والحلم ، والعفو ؛ وما ورد في الرجاء والكلام في التوحيد واسع .

ولإنما الغرض مبلغ التنبيه على تضمنه الاستغناء بأدنى إشارة . والله -

سبحانه وتعالى - أعلم . وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله

فصل

ذكر الله عن إمامنا إبراهيم خليل الله أنه قال لمناظريه من المشركين الظالمين:

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُكُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ، عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) .

وفي الصحيح من حديث عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم فسر الظلم بالشرك وقال : « ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح : (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) ، فأنكر أن نخاف ما أشركوهم بالله من جميع المخلوقات العلويات والسلفيات ، وعدم خوفهم من إشراكهم بالله شريكاً لم ينزل الله به سلطاناً ، وبين أن القسم الذى لم يشرك هو الآمن المهتدى .

وهذه آية عظيمة تنفع المؤمن الحنيف فى مواضع ، فإن الإشراك فى هذه الأمة أخفى من ديب النمل ؛ دع جليله ، وهو شرك فى العبادة والتأله ، وشرك فى الطاعة والانقياد ، وشرك فى الإيمان والقبول .

فالعالية من النصارى والرافضة وضلال الصوفية والفقراء والعامّة : يشركون بدعاء غير الله تارة ، وبنوع من عبادته أخرى ، وبهما جميعاً تارة ، ومن أشرك هذا الشرك أشرك فى الطاعة .

وكثير من المتفقه وأجناد الملوك ، وأتباع القضاة ، والعامه المتبعه لهؤلاء ،
يشركون شرك الطاعة ؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : لعدي بن حاتم
لما قرأ : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ)
فقال : يا رسول الله ما عبدوهم ، فقال : « ما عبدوهم ؛ ولكن أحلوا لهم الحرام
فأطاعوهم ، وحرمو عليهم الحلال فأطاعوهم » .

فتجد أحد المنحرفين يجعل الواجب ما أوجبه متبوعه ، والحرام ما حرمه ،
والحلال ما حلله ، والدين ما شرعه إما ديناً ، وإما دنيا ، وإما دنيا ، ودين .
ثم يخوف من امتنع من هذا الشرك ، وهو لا يخاف أنه أشرك به شيئاً في طاعته
بغير سلطان من الله ؛ وبهذا يخرج من أوجب الله طاعته من رسول ، وأمير
وعالم ووالد وشيخ وغير ذلك .

وأما الشرك الثالث : فكثير من أتباع المتكلمة ، والمتفلسفة ؛ بل وبعض
المتفقه والمتصوفة ؛ بل وبعض أتباع الملوك والقضاة ، يقبل قول متبوعه فيما
يخبر به من الاعتقادات الخبرية ، ومن تصحيح بعض المقالات وإفساد بعضها ،
ومدح بعضها ، وبعض القائلين وذم بعض ، بلا سلطان من الله . ويخاف
ما أشركه في الإيمان والقبول ، ولا يخاف إشراكه بالله شخصاً في الإيمان به ،
وقبول قوله بغير سلطان من الله .

وبهذا يخرج من شرع الله تصديقه من المرسلين ، والعلماء المبلغين ، والشهداء
الصادقين ، وغير ذلك . فباب الطاعة والتصديق ينقسم إلى مشروع في حق البشر
وغير مشروع .

وأما العبادة والاستعانة والتأله : فلا حق فيها للبشر بحال ، فإنه كما قال القائل
ما وضعت يدي في قصعة أحد إلا ذلت له ! . ولا ريب أن من نصرك ورزقك

كان له سلطان عليك ، فالؤمن يريد أن لا يكون عليه سلطان إلا لله ورسوله ،
ولمن أطاع الله ورسوله ، وقبول مال الناس فيه سلطان لهم عليه ، فإذا قصد دفع
هذا السلطان وهذا القهر عن نفسه : كان حسناً محموداً ، يصح له دينه بذلك ؛
وإن قصد الترفع عليهم والرأس والمראה بالحال الأولى كان مذموماً ، وقد
يقصد بترك الأخذ غنى نفسه عنهم ويترك أموالهم لهم .

فهذه أربعة مقاصد صالحة : غنى نفسه وعزتها حتى لا تفتقر إلى الخلق ولا
تذل لهم ، وسلامة مالهم ودينهم عليهم حتى لا تنقص عليهم أموالهم ؛ فلا يذهبها
عنهم ، ولا يوقعهم بأخذها منهم فيما يكره لهم من الاستيلاء عليه ؛ ففي ذلك منفعة
له ألا يذل ولا يفتقر إليهم ، ومنفعة لهم أن يبقى لهم مالهم ودينهم ، وقد يكون
في ذلك منفعة بتأليف قلوبهم بإبقاء أموالهم لهم ؛ حتى يقبلوا منه ، ويتألفوا
بالعطاء لهم ؛ فكذلك في إبقاء أموالهم لهم ، وقد يكون في ذلك أيضاً حفظ دينهم
فإنهم إذا قبل منهم المال قد يطمعون هم أيضاً في أنواع من المعاصي ، ويتركون
أنواعاً من الطاعات ، فلا يقبلون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفي ذلك
منافع ومقاصد أخر صالحة .

وأما إذا كان الأخذ يفضي إلى طمع فيه حتى يستعان به في معصية أو يمنع
من طاعة ؛ فذلك مفسد أخر ؛ وهي كثيرة ترجع إلى ذله وفقره لهم ؛ فإنهم
لا يتمكنون من منعه من طاعة إلا إذا كان ذليلاً أو فقيراً إليهم ، ولا يتمكنون
هم من استعماله في المعصية إلا مع ذله أو فقره ، فإن العطاء يحتاج إلى جزاء
ومقابلة ؛ فإذا لم تحصل مكافأة دنيوية من مال أو نفع لم يبق إلا ما ينتظر من
المنفعة الصادرة منه إليهم .

وللرد وجوه مكروهة مذمومة، منها : الرد مراعاة بالتشبه بمن يرد غنى وعزة
ورحمة للناس في دينهم ودنياهم ، ومنها : التكبر عليهم ، والاستعلاء حتى
يستعبدهم ، ويستعلي عليهم بذلك ، فهذا مذموم أيضاً . ومنها : البخل عليهم فإنه
إذا أخذ منهم احتاج أن ينفعهم ، ويقضى حوائجهم ؛ فقد يترك الأخذ بخلا عليهم
بالمنافع . ومنها : الكسل عن الإحسان إليهم ، فهذه أربعة مقاصد فاسدة في الرد
للعطاء : الكبر ، والرياء ، والبخل ، والكسل .

فالحاصل : أنه قد يترك قبول المال لجلب المنفعة لنفسه ، أو لدفع المضرة
عنها ، أو لجلب المنفعة للناس أو دفع المضرة عنهم ، فإن في ترك أخذه غنى نفسه
وعزها ، وهو منفعة لها ، وسلامة دينه ودنياه مما يترتب على القبول من أنواع
المفاسد ، وفيه نفع للناس بإبقاء أموالهم ودينهم لهم ، ودفع الضرر المتولد عليهم
إذا بذلوا بذلاً قد يضرهم ، وقد يتركه لمضرة الناس ، أو لترك منفعتهم ؛ فهذا
مذموم كما تقدم ، وقد يكون في الترك أيضاً مضرة نفسه ؛ أو ترك منفعتها ،
إما بأن يكون محتاجاً إليه فيضره تركه ، أو يكون في أخذه وصرفه منفعة له
في الدين والدنيا ، فيتركها من غير معارض مقاوم . فلهذا فصلنا هذه المسألة ؛
فإنها مسألة عظيمة ، ويازائها مسألة القبول أيضاً ، وفيها التفصيل لكن الأغلب
أن ترك الأخذ كان أجود من القبول ، ولهذا يعظم الناس هذا الجنس أكثر ،
وإذا صح الأخذ : كان أفضل أعنى الأخذ والصرف إلى الناس .

سئل الشيخ - رحمه الله -

عن قال : يجوز الاستغائة بالنبي صلى الله عليه وسلم في كل ما يستغاث الله تعالى فيه : على معنى أنه وسيلة من وسائل الله تعالى - في طلب الغوث ، وكذلك يستغاث بسائر الأنبياء والصالحين في كل ما يستغاث الله تعالى فيه .

وأما من توسل إلى الله تعالى بنيه في تفريج كربة فقد استغاث به ، سواء كان ذلك بلفظ الاستغائة ، أو التوسل ، أو غيرهما مما هو في معناهما ، وقول القائل : أتوسل إليك يا إلهي برسولك ! أو أستغيث برسولك عندك ، أن تغفر لي ، استغائة بالرسول حقيقة في لغة العرب وجميع الأمم .

قال : ولم يزل الناس يفهمون معنى الاستغائة بالشخص ، قديما وحديثا ، وأنه يصح إسنادها للمخلوقين ، وأنه يستغاث بهم على سبيل التوسل ، وأنها مطلقة على كل من سأل تفريج الكربة بواسطة التوسل به ، وأن ذلك صحيح في أمر الأنبياء والصالحين .

قال : وفيما رواه الطبراني : عن النبي صلى الله عليه وسلم : أن بعض الصحابة رضى الله عنهم قال : استغيثوا برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله »

إن النبي صلى الله عليه وسلم لو نفى عن نفسه أنه يستغاث به ، ونحو ذلك ، يشير به إلى التوحيد ، وإفراد الباري بالقدرة : لم يكن لنا نحن أن تنفى ذلك ، ونجوز أن نطلق أن النبي صلى الله عليه وسلم والصالح يستغاث به ، يعنى فى كل ما يستغاث فيه بالله تعالى ، ولا يحتاج أن يقول على سبيل أنه وسيلة وواسطة ، وأن القائل لا يستغاث به متقصا له ، وأنه كافر بذلك ؛ لكنه يعذر إذا كان جاهلا . فإذا عرف معنى الاستغاثة ثم أصر على قوله بعد ذلك ؛ صار كافرا .

والتوسل به استغاثة به كما تقدم ، فهل يعرف أنه قال أحد من علماء المسلمين : إنه يجوز أن يستغاث بالنبي صلى الله عليه وسلم والصالح ، فى كل ما يستغاث به الله تعالى ؟ وهل يجوز إطلاق ذلك ؟ كما قال القائل ،

وهل التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم ؛ أو الصالح أو غيرهما إلى الله تعالى فى كل شيء ؛ استغاثة بذلك المتوسل به ؟ كما نقله هذا القائل عن جميع اللغات وسواء كان التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم أو الصالح استغاثة به ، أو لم يكن ، فهل يعرف أن أحدا من العلماء قال : إنه يجوز التوسل إلى الله بكل نبي وصالح ؟ فقد أفتى الشيخ عز الدين بن عبد السلام فى فتاويه المشهورة : أنه لا يجوز التوسل إلى الله تعالى إلا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، إن صح الحديث فيه ، فهل قال أحد : خلاف ما أفتى به الشيخ المذكور ؟

وبتقدير أن يكون فى المسئلة خلاف ، فمن قال لا يتوسل بسائر الأنبياء والصالحين . كما أفتى الشيخ عز الدين ؟ هل يكفر كما كفره هذا القائل ؟ ويكون ما أفتى به الشيخ كفرا ، بل نفس التوسل به لو قال قائل : لا يتوسل به ؛

ولا يستغاث به ، إلا في حياته وحضوره ، لا في موته ومغيبه ، هل يكون ذلك كفرا ؟ أو يكون تنقضا ؟

ولو قال : ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى لا يستغاث فيه إلا بالله ، أى : لا يطلب إلا من الله تعالى هل يكون كفرا . أو يكون حقا ؟ وإذا نفي الرسول صلى الله عليه وسلم عن نفسه أمرا من الأمور لكونه من خصائص الربوبية ، هل يحرم عليه أن ينفيه عنه أم يجب ، أم يجوز نفيه ؟ أفقونا رحمكم الله - بجواب شاف كاف ، موفقين مثابين - إن شاء الله تعالى .

الجواب : الحمد لله رب العالمين ، لم يقل أحد من علماء المسلمين : إنه يستغاث بشيء من المخلوقات ؛ في كل ما يستغاث فيه بالله تعالى ، لا بنبي ، ولا بملك ، ولا بصالح ، ولا غير ذلك . بل هذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام ؛ أنه لا يجوز إطلاقه .

ولم يقل أحد : إن التوسل بنبي ، هو استغاثة به ، بل العامة الذين يتوسلون في أدعيتهم بأمور ، كقول أحدهم : أتوسل إليك بحق الشيخ فلان ، أو بحرمة ، أو أتوسل إليك باللوح والقلم ، أو بالكعبة ، أو غير ذلك ، مما يقولونه في أدعيتهم ، يعلمون أنهم لا يستغيثون بهذه الأمور ؛ فإن المستغيث بالنبي صلى الله عليه وسلم طالب منه وسائل له ، والمتوسل به لا يدعى ولا يطلب منه ولا يسأل ، وإنما يطلب به ، وكل أحد يفرق بين المدعو والمدعو به .

والاستغاثة طلب الغوث ، وهو إزالة الشدة ، كالاستنصار طلب النصر ، والاستعانة طلب العون ، والمخلوق يطلب منه من هذه الأمور ما يقدر عليه

منها ، كما قال تعالى : (وَإِنْ أَسْتَضْرُّوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ) وكما قال :
(فَاسْتَغْثِ اللَّهَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ) وكما قال تعالى : (وَتَعَاوَنُوا
عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى) .

وأما ما لا يقدر عليه إلا الله ؛ فلا يطلب إلا من الله ؛ ولهذا كان المسلمون
لا يستغيثون بالنبي صلى الله عليه وسلم ويستسقون به ، ويتوسلون به ، كما في صحيح
البخارى : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه استسقى بالعباس وقال :
اللهم إنا كنا إذا أجد بنا نتوسل إليك بنينا فنتسقين ، وإنا نتوسل إليك بعم نينا
فاسقنا فيسقون .

وفي سنن أبي داود : أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا نستشفع
بالله عليك ، ونستشفع بك على الله ؛ فقال : «شأن الله أعظم من ذلك ، إنه
لا يستشفع به على أحد من خلقه » فأقره على قوله نستشفع بك على الله ،
وأنكر عليه قوله نستشفع بالله عليك .

وقد اتفق المسلمون على أن نينا شفيع يوم القيامة وأن الخلق يطلبون منه
الشفاعة ، لكن عند أهل السنة أنه يشفع في أهل الكبائر ، وأما عند الوعيدية
فإنما يشفع في زيادة الثواب .

وقول القائل : إن من توسل إلى الله بنبي . فقال : أتوسل إليك برسولك فقد
استغاث برسوله حقيقة ، في لغة العرب وجميع الأمم قد كذب عليهم ،
فما يعرف هذا في لغة أحد من بني آدم ، بل الجميع يعلمون أن المستغاث مسئول
به مدعو ، ويفرقون بين المسئول والمسئول به ، سواء استغاث بالخالق

أو بالخلق ، فإنه يجوز أن يستغاث بالخلق فيما يقدر على النصر فيه . والنبي صلى الله عليه وسلم أفضل مخلوق يستغاث به في مثل ذلك .

ولو قال قائل لمن يستغيث به : أسألك بفلان ، أو بحق فلان ، لم يقل أحد إنه استغاث بما توسل به ، بل إنما استغاث بمن دعاه ، وسأله ، ولهذا قال المصنفون في شرح أسماء الله الحسنى : إن المغيث بمعنى المجيب ، لكن الإغاثة أخص بالأفعال ، والإجابة أخص بالأقوال .

والتوسل إلى الله بغير نبينا صلى الله عليه وسلم — سواء سمي استغاثة أو لم يسم — لا نعلم أحدا من السلف فعله . ولا روى فيه أثراً ، ولا نعلم فيه إلا ما أفتى به الشيخ من المنع ، وأما التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ففيه حديث في السنن ، رواه النسائي والترمذي وغيرهما : أن أعرابياً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله : إني أصبت في بصرى فادع الله لي ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « توضأ وصل ركعتين ، ثم قل : اللهم أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد ، يا محمد إني أتشفع بك في رد بصرى . اللهم شفّع نبيك في » وقال : « فإن كانت لك حاجة فمثل ذلك » فرد الله بصره . فلأجل هذا الحديث استثنى الشيخ التوسل به .

وللناس في معنى هذا قولان :

أحدهما : أن هذا التوسل هو الذي ذكر « عمر بن الخطاب » رضي الله عنه ، لما قال : كنا إذا أجد بنا نتوسل بنبينا إليك فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، فقد ذكر عمر — رضي الله عنه — : أنهم كانوا يتوسلون به في حياته في الاستسقاء ، ثم توسلوا بعمه العباس بعد موته ، وتوسلهم

به هو استسقاؤهم به ، بحيث يدعو ويدعون معه ، فيكون هو وسيلتهم إلى الله ، وهذا لم يفعله الصحابة بعد موته ولا في مغيبه ، والنبي صلى الله عليه وسلم كان في مثل هذا شافعا لهم ، داعيا لهم ، ولهذا قال في حديث الأعمى : اللهم فشفعه في . فلم أن النبي صلى الله عليه وسلم شفع له ، فسأل الله أن يشفعه فيه .

والثاني : أن التوسل يكون في حياته ، وبعد موته ، وفي مغيبه وحضرته ، ولم يقل أحد : إن من قال بالقول الأول فقد كفر ، ولا وجه لتكفيره ، فإن هذه مسألة خفية ، ليست أدلتها جلية ظاهرة ، والكفر إنما يكون بإنكار ما علم من الدين ضرورة ، أو بإنكار الأحكام المتواترة والمجمع عليها ، ونحو ذلك .

واختلاف الناس فيما يشرع من الدعاء وما لا يشرع ، كاختلافهم هل تشرع الصلاة عليه عند الذبح ، وليس هو من مسائل السب عند أحد من المسلمين .

وأما من قال : إن من نفي التوسل الذي سماه استغاثة بغيره كفر ، وتكفير من قال بقول الشيخ عز الدين وأمثاله ، فأظهر من أن يحتاج إلى جواب ؛ بل المكفر بمثل هذه الأمور ، يستحق من غليظ العقوبة والتعزير ما يستحقه أمثاله ، من المفترين على الدين ، لا سيما مع قول النبي صلى الله عليه وسلم : « من قال لأخيه : كافر فقد باء بها أحدهما » .

وأما من قال : ما لا يقدر عليه إلا الله لا يستغاث فيه إلا به ، فقد قال الحق ، بل لو قال كما قال أبو يزيد : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق ، وكما قال الشيخ أبو عبد الله القرشي استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون لكان قد أحسن . فإن مطلق هذا الكلام يفهم الاستغاثة

المطلقة ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » .

وإذا نفي الرسول ﷺ عن نفسه أمرا كان هو الصادق المصدوق في ذلك ، كما هو الصادق المصدوق في كل ما يخبر به من نفي ، وإثبات ، وعلينا أن نصدقه في كل ما أخبر به ، من نفي ، وإثبات ، ومن رد خبره تعظيما له ، أشبه النصارى ، الذين كذبوا المسيح في إخباره عن نفسه بالعبودية ، تعظيما له ، ويجوز لنا أن تنفي ما نفاه ، وليس لأحد أن يقابل نفيه بنقيض ذلك ألبته . والله أعلم .

وسئل شيخ الإسلام :

(تقي الدين بن تيمية رضي الله عنه)

ما تقول السادة العلماء أئمة الدين وفقهم الله لطاعته فيمن يقول : لا يستغاث برسول الله صلى الله عليه وسلم ، هل يحرم عليه هذا القول ، وهل هو كفر أم لا ؟ وإن استدل بآيات من كتاب الله وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم هل ينفعه دليhle أم لا ؟ وإذا قام الدليل من الكتاب والسنة فما يجب على من يخالف ذلك ؟ أفتونا مأجورين .

فأجاب :-

الحمد لله : قد ثبت بالسنة المستفيضة ، بل المتواترة ، واتفاق الأمة : أن نبينا صلى الله عليه وسلم الشافع المشفع ، وأنه يشفع في الخلائق يوم القيامة وأن الناس يستشفعون به يطلبون منه أن يشفع لهم إلى ربهم وأنه يشفع لهم . ثم اتفق أهل السنة والجماعة أنه يشفع في أهل الكبائر ، وأنه لا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد .

وأما الخوارج والمعتزلة فأنكروا شفاعته لأهل الكبائر ، ولم ينكروا شفاعته للؤمنين ، وهؤلاء مبتدعة ضلال وفي تكفيرهم نزاع وتفصيل .

وأما من أنكر ما ثبت بالتواتر والإجماع فهو كافر بعد قيام الحجة ، وسواء سمي هذا المعنى استغاثة أو لم يسمه .

وأما من أقر بشفاعته وأنكر ما كان الصحابة يفعلونه من التوسل به والاستشفاع به ؛ كما رواه البخارى فى صحيحه عن أنس أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب ، وقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنينا فتنسقيناه وإنا نتوسل إليك بعم نينا فاسقنا فيسقون . وفى سنن أبى داود وغيره أن أعرابياً قال للنبي صلى الله عليه وسلم : جهدت الأنفس وجاع العيال وهلك المال فادع الله لنا فإننا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك . فسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عرف ذلك فى وجوه أصحابه وقال : « ويحك إن الله لا يستشفع به على أحد من خلقه شأن الله أعظم من ذلك » وذكر تمام الحديث فأنكر قوله نستشفع بالله عليك ولم ينكر قوله نستشفع بك على الله بل أقره عليه فعلم جوازه ، فمن أنكر هذا فهو ضال مخطئ مبتدع ؛ وفى تكفيره نزاع وتفصيل .

وأما من أقر بما ثبت بالكتاب والسنة والإجماع من شفاعته والتوسل به ونحو ذلك ، ولكن قال لا يدعى إلا الله وأن الأمور التى لا يقدر عليها إلا الله لا تطلب إلا منه ، مثل غفران الذنوب ، وهداية القلوب وإنزال المطر ، وإنبات النبات ونحو ذلك : فهذا مصيب فى ذلك بل هذا بما لا نزاع فيه بين المسلمين أيضاً . كما قال الله تعالى : (وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ) وقال : (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) وكما قال تعالى : (يَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

وكما قال تعالى : (وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنُظْمِينَ قُلُوبِكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِن عِندِ اللَّهِ) وقال : (إِلَّا نَصْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَجِدُ اللَّهَ مَعَنَا) .

فالمعاني الثابتة بالكتاب والسنة : يجب إثباتها ، والمعاني المنفية بالكتاب والسنة ، يجب نفيها ، والعبارة الدالة على المعاني نفيًا وإثباتًا إن وجدت في كلام الله ورسوله ﷺ : وجب إقرارها . وإن وجدت في كلام أحد وظهر مراده من ذلك رتب عليه حكمه ، وإلا رجع فيه إليه .

وقد يكون في كلام الله ورسوله ﷺ عبارة لها معنى صحيح ، لكن بعض الناس يفهم من تلك غير مراد الله ورسوله ﷺ ، فهذا يرد عليه فهمه . كما روى الطبراني في معجمه الكبير أنه كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذى المؤمنين فقال أبو بكر الصديق : قوموا بنا لنستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله » فهذا إنما أراد به النبي صلى الله عليه وسلم المعنى الثاني . وهو أن يطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله ، وإلا فالصحابة كانوا يطلبون منه الدعاء ويستسقون به ، كما في صحيح البخاري عن ابن عمر قال : ربما ذكرت قول الشاعر وأنا أنظر إلى وجه النبي صلى الله عليه وسلم ، يستسقي فما ينزل حتى يجيش له ميزاب :

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
وهو قول أبي طالب ، ولهذا قال العلماء المصنفون في أسماء الله تعالى : يجب على كل مكلف أن يعلم أن لا غياث ولا مغيث على الإطلاق إلا الله ، وأن كل

غوث فمن عنده ، وإن كان جعل ذلك على يدي غيره فالحقيقة له سبحانه وتعالى
ولغيره مجاز .

قالوا : من أسمائه تعالى المغيث والغيث ، وجاء ذكر المغيث في حديث
أبي هريرة ، قالوا واجتمعت الأمة على ذلك .

وقال أبو عبد الله الحليمي : الغياث هو المغيث ، وأكثر ما يقال غياث
المستغيثين ، ومعناه المدرك عبادته في الشدائد إذا دعوه ، ومجيهم ومخلصهم ،
وفي خبر الاستسقاء في الصحيحين : « اللهم أغثنا اللهم أغثنا » يقال أغاثه إغاثة
وغياثا وغوثا ، وهذا الاسم في معنى المجيب والمستجيب قال تعالى : (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ
رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ) إلا أن الإغاثة أحق بالأفعال ، والاستجابة أحق بالأقوال ،
وقد يقع كل منهما موقع الآخر .

قالوا الفرق بين المستغيث والداعي ، أن المستغيث ينادى بالغوث . والداعي
ينادى بالمدعو والمغيث . وهذا فيه نظر ، فإن من صيغة الاستغاثة يا الله للسلين ،
وقد روى عن معروف الكرخي أنه كان يكثر أن يقول واغوثاه ، ويقول
إني سمعت الله يقول : (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ) وفي الدعاء المأثور :
يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي
طرفة عين ولا إلى أحد من خلقك .

والاستغاثة برحمته استغاثة به في الحقيقة ، كما أن الاستعاذة بصفاته استعاذة
به في الحقيقة ، وكما أن القسم بصفاته قسم به في الحقيقة ، ففي الحديث :
« أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق » وفيه « أعوذ برضاك من سخطك ،
وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منك لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت
على نفسك » .

ولهذا استدل الأئمة فيما استدلوا على أن كلام الله غير مخلوق بقوله : « أعود بكلمات الله التامة » قالوا : والاستعاذة لا تصلح بالمخلوق .

وكذلك القسم قد ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » وفي لفظ « من حلف بغير الله فقد أشرك » رواه الترمذي وصححه . ثم قد ثبت في الصحيح : الحلف « بعزة الله » و« لعمر الله » ونحو ذلك مما اتفق المسلمون على أنه ليس من الحلف بغير الله الذي نهى عنه ، والاستغاثة بمعنى أن يطلب من الرسول ﷺ ما هو اللائق بمنصبه لا ينازع فيها مسلم ، ومن نازع في هذا المعنى فهو إما كافر إن أنكر ما يكفر به ، وإما مخطئ ضال .

وأما بالمعنى الذي نفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهو أيضاً مما يجب نفيها ، ومن أثبت لغير الله ما لا يكون إلا لله فهو أيضاً كافر إذا قامت عليه الحجة التي يكفر تاركها .

ومن هذا الباب قول أبي يزيد البسطامي : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق ، وقول الشيخ أبي عبد الله القرشي المشهور بالديار المصرية : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون .

وفي دعاء موسى عليه السلام : « اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان وبك المستغاث وعليك التكلان ولا حول ولا قوة إلا بك » ولما كان هذا المعنى هو المفهوم منها عند الإطلاق وكان مختصاً بالله : صح إطلاق نفيه عما سواه ، ولهذا لا يعرف عن أحد من أئمة المسلمين أنه جوز مطلق الاستغاثة بغير الله ، ولا أنكر على من نفي مطلق الاستغاثة عن غير الله .

وكذلك الاستغاثة أيضاً فيها ما لا يصلح إلا لله ، وهي المشار إليها بقوله :
(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) فإنه لا يعين على العبادة الإعانة المطلقة إلا الله ،
وقد يستعان بالمخلوق فيما يقدر عليه ، وكذلك الاستنصار . قال الله تعالى : (وَإِنْ
أَسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ) والنصر المطلق هو خلق ما به يغلب العدو
ولا يقدر عليه إلا الله .

ومن خالف ما ثبت بالكتاب والسنة : فإنه يكون إما كافراً ، وإما فاسقاً ،
وإما عاصياً ، إلا أن يكون مؤمناً مجتهداً مخطئاً فيثاب على اجتهاده ، ويغفر له
خطؤه ، وكذلك إن كان لم يبلغه العلم الذي تقوم عليه به الحجة ، فإن الله
يقول : (وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) . وأما إذا قامت عليه الحجة الثابتة
بالكتاب والسنة فخالفها : فإنه يعاقب بحسب ذلك إما بالقتل وإما بدونه
والله أعلم .

وقال شيخ الإسلام : -

فصل

سمى الله آلهتهم التي عبدوها من دونه شفعاء ، كما سماها شركاء ، في غير موضع ، فقال في يونس : (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

وقال : (أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ أَنَا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا) (وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ * وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاؤُا) .

وجمع بين الشرك والشفاعة في قوله : (قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِن شَرْكِ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَن أَذِنَ لَهُ) . فهذه الأربعة هي التي يمكن أن يكون لهم بها تعلق . الأول : ملك شيء ولو قل ، الثاني : شركهم في شيء من الملك . فلا ملك ولا شركة ولا معاونة يصير بها ندأ . فإذا انتفت الثلاثة : بقيت الشفاعة فعلقها بالمشيئة .

وقال : (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعُهُمْ شَيْئًا) وقال :
(قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا)
الآيتين . وقال في اتخاذهم قربانا : (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) . وقال :
(فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا
يَفْقَرُونَ) .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله

فصل

في الشفاعة المنفية في القرآن : كقوله تعالى : (وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ) . وقوله تعالى : (وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ) وقوله : (مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ) وقوله : (فَمَالِئَانِ مِنْ شَفِيعِينَ * وَلَا صَدِيقٌ حَمِيمٌ) وقوله : (مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ) . وقوله : (يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ) وأمثال ذلك .

واحتج بكثير منه الخوارج والمعتزلة على منع الشفاعة لأهل الكبائر ، إذ منعوا أن يشفع لمن يستحق العذاب ، أو أن يخرج من النار من يدخلها ، ولم ينفوا الشفاعة لأهل الثواب في زيادة الثواب .

ومذهب سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة : إثبات الشفاعة لأهل الكبائر ، والقول بأنه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان . وأيضاً : فالأحاديث المستفيضة عن النبي صلى الله عليه وسلم في الشفاعة : فيها — استشفاع أهل الموقف ليقضى بينهم ، وفيهم المؤمن والكافر ، وهذا فيه

نوع شفاعة للكفار . وأيضاً : ففي الصحيح عن العباس بن عبد المطلب أنه قال :
يا رسول الله هل نفعت أبا طالب بشيء ؟ فإنه كان يحوطك ويغضب لك قال :
« نعم هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار »
وعن عبد الله بن الحارث قال : سمعت العباس يقول : قلت يا رسول الله
إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك ، فهل نفعه ذلك ؟ قال : نعم ، وجدته
في غمرات من نار فأخرجته إلى ضحضاح .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ذكر عنده عمه أبو طالب ، فقال : « لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل
في ضحضاح من النار يبلغ كعبه يغلي منه دماغه » .

فهذا نص صحيح صريح لشفاعته في بعض الكفار أن يخفف عنه العذاب ،
بل في أن يجعل أهون أهل النار عذاباً ، كما في الصحيح أيضاً عن ابن عباس :
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أهون أهل النار عذاباً أبو طالب وهو
متعل بنعلين يغلي منهما دماغه » .

وعن أبي سعيد الخدري : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أدنى
أهل النار عذاباً متعل بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه » وعن النعمان
بن بشير قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أهون أهل
النار عذاباً يوم القيامة لرجل يوضع في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه »
وعنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن أهون أهل النار عذاباً
من له نعلان وشر كان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي الرجل ما يرى أن أحداً
أشد منه عذاباً وإنه لأهونهم عذاباً .

وهذا السؤال الثاني يضعف جواب من تأول نفى الشفاعة على الشفاعة للكفار ، وإن الظالمين هم الكافرون^(١) .

فيقال : الشفاعة المنفية هي الشفاعة المعروفة عند الناس عند الإطلاق ، وهي أن يشفع الشفيع إلى غيره ابتداء فيقبل شفاعته ، فأما إذا أذن له في أن يشفع فشفع ؛ لم يكن مستقلاً بالشفاعة ، بل يكون مطيعاً له أى تابعاً له في الشفاعة ، وتكون شفاعته مقبولة ويكون الأمر كله للأمر المسئول .

وقد ثبت بنص القرآن في غير آية : أن أحداً لا يشفع عنده إلا بإذنه . كما قال تعالى : (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) : وقال : (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) وقال : (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى) وأمثال ذلك . والذي بين أن هذه هي الشفاعة المنفية : أنه قال : (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) وقال تعالى : (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ) ؛ فأخبر أنه ليس لهم من دون الله ولي ولا شفيع .

وأما نفى الشفاعة بدون إذنه : فإن الشفاعة إذا كانت بإذنه لم تكن من دونه ، كما أن الولاية التي بإذنه ليست من دونه ؛ كما قال تعالى : (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ) .

وأيضاً فقد قال : (أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَٰئِكَ أَوْلُوا لَا يَمْلِكُونَ

(١) بياض بالأصل .

شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا ۖ إِنَّ مَلِكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ (فذم
الذين اتخذوا من دون الله شفعاء وأخبر أن لله الشفاعة جميعاً ؛ فعلم أن الشفاعة
منتفية عن غيره ، إذ لا يشفع أحد إلا بإذنه ، وتلك فهي له .

وقد قال : (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ
هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ
سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

ومما يوضح ذلك : أنه نفي يومئذ الخلة بقوله : (مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ
وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) ومعلوم أنه إنما نفي الخلة
المعروفة ، ونفعها المعروف كما ينفع الصديق الصديق في الدنيا ، كما قال : (وَمَا
أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ
يَوْمَ لِلَّهِ) وقال : (لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ * يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ
لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) .

لم ينف أن يكون في الآخرة خلة نافعة بإذنه ، فإنه قد قال : (الْأَخِلَّاءُ
يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ * يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ
تَحْزَنُونَ) الآيات وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى : « حقت
محبتى للمتحابين فى » ويقول الله تعالى : « أين المتحابون بجلالى ؟ اليوم أظلمهم
فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى » .

فتعين أن الأمر كله عائد إلى تحقيق التوحيد ، وأنه لا ينفع أحد ولا يضر
إلا بإذن الله ، وأنه لا يجوز أن يعبد أحد غير الله ، ولا يستعان به من دون
الله ، وأنه يوم القيامة يظهر لجميع الخلق أن الأمر كله لله ، ويتبرأ كل مدع من

دعواه الباطلة ، فلا يبقى من يدعى لنفسه معه شركا في ربوبيته ، أو إلهيته ، ولا من يدعى ذلك لغيره بخلاف الدنيا : فإنه وإن لم يكن رب ولا إله إلا هو فقد اتخذ غيره رباً وإلهاً ، وادعى ذلك مدعون .

وفي الدنيا يشفع الشافع عند غيره ، وينتفع بشفاعته وإن لم يكن أذن له في الشفاعة ، ويكون خليله ، فيعينه ويفتدى نفسه من الشر ، فقد ينتفع بالنفوس والأموال في الدنيا ، النفوس ينتفع بها تارة بالاستقلال ، وتارة بالإعانة وهي الشفاعة ، والأموال بالفداء ، ففي الله هذه الأقسام الثلاثة . قال تعالى : (لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ) وقال : (لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ) كما قال : (لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازِعٌ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا) . فهذا هذا والله أعلم .

وعاد ما نفاه الله من الشفاعة ، إلى تحقيق أصلي الإيمان ، وهي الإيمان بالله وباليوم الآخر ، التوحيد والمعاد ، كما قرن بينهما في مواضع كثيرة . كقوله : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَوْمَ الْآخِرِ) وقوله : (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) وقوله : (مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ) وقوله : (وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) . وأمثال ذلك .

سُئِلَ سَيِّغُ الْإِسْلَامِ.. فَرَسَ اللَّهُ رَوْحَهُ - ^(١)

عن رجلين تناظرا فقال أحدهما : لا بد لنا من واسطة بيننا وبين الله ، فإننا لا نقدر أن نصل إليه بغير ذلك .

فأجاب : -

الحمد لله رب العالمين . إن أراد بذلك أنه لا بد من واسطة تبلغنا أمر الله : فهذا حق . فإن الخلق لا يعلمون ما يحبه الله ويرضاه ، وما أمر به وما نهى عنه ، وما أعدّه لأوليائه من كرامته ، وما وعد به أعداءه من عذابه ، ولا يعرفون ما يستحقه الله تعالى من أسمائه الحسنى ، وصفاته العلىا ، التى تعجز العقول عن معرفتها وأمثال ذلك إلا بالرسل ؛ الذين أرسلهم الله إلى عباده .

فالمؤمنون بالرسل المتبعون لهم هم المهتدون الذين يقربهم لديه زلفى ، ويرفع درجاتهم ، ويكرمهم فى الدنيا والآخرة . وأما المخالفون للرسل : فإنهم ملعونون ، وهم عن ربهم ضالون محجوبون . قال تعالى : (يَبْنِيْءَ آدَمَ إِمَامًا يَتَّبِعُكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) وقال تعالى : (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنَّا

(١) تسمى هذه الرسالة الواسطة بين الخلق والحق .

ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي
 أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (قَالَ ابْن
 عباس : تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ،
 ولا يشقى في الآخرة .

وقال تعالى عن أهل النار : (كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ *
 قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ) وقال تعالى :
 (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ هَٰذَا جَاءُوا ۖ وَهَٰذَا مَتَّحَتِ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ
 خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ
 هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ) وقال تعالى : (وَمَا نُرْسِلُ
 الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ *
 وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) وقال تعالى : (إِنَّا أَوْحَيْنَا
 إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
 وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا
 * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ
 تَكْلِيمًا * رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ
 الرُّسُلِ) .

ومثل هذا في القرآن كثير .

وهذا مما أجمع عليه جميع أهل الملل من المسلمين ، واليهود ، والنصارى ؛
 فإنهم يثبتون الوسائط بين الله وبين عباده ، وهم الرسل الذين بلغوا عن الله

أمره وخبره . قال تعالى : (اللَّهُ يُصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ) ومن أنكر هذه الوسائط فهو كافر بإجماع أهل الملل .

والسور التي أنزلها الله بمكة : مثل : الأنعام ، والأعراف ، وذوات : (الر) و : (حم) و : (طس) ونحو ذلك : هي متضمنة لأصول الدين ، كالإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر .

وقد قص الله قصص الكفار الذين كذبوا الرسل ، وكيف أهلكهم ؛ ونصر رسوله ، والذين آمنوا . قال تعالى : (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) . وقال : (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ) .

فهذه الوسائط : تطاع وتبتع ويقتدى بها . كما قال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ) وقال تعالى : (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) وقال تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ) وقال : (فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) وقال تعالى : (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) .

وإن أراد بالواسطة : أنه لا بد من واسطة في جاب المنافع ، ودفع المضار ، مثل : أن يكون واسطة في رزق العباد ، ونصرهم ، وهداهم ؛ يسألونه ذلك ، ويرجون إليه فيه : فهذا من أعظم الشرك ، الذي كفر الله به المشركين ؛ حيث اتخذوا من دون الله أولياء وشفعاء ؛ يحتلبون بهم المنافع ويحتنبون المضار .

لكن الشفاعة لمن يأذن الله له فيها ، حتى قال : (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ () وقال تعالى : (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ) وقال : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) وقال : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّن ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) .

وقالت طائفة من السلف : كان أقوام يدعون المسيح ، والعزير ، والملائكة : فبين الله لهم أن الملائكة والأنبياء : لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلا ، وأنهم يتقربون إلى الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه . وقال تعالى : (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) ؟

فبين سبحانه : أن اتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً كفر .

فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم ، ويتوكل عليهم ، ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار ، مثل أن يسألهم غفران الذنب ، وهداية القلوب ، وتفريج الكروب ، وسد الفاقات : فهو كافر بإجماع المسلمين .

وقد قال تعالى : (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ *

لَا يَسْفِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ
وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهُ
مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (وقال تعالى : (لَن يَسْتَنكِفَ
الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدَ اللَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَن عِبَادَتِهِ
وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا) وقال تعالى : (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا *
لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ
هَدًّا * أَن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَنْ فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ
عَآئِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا) ! وقال تعالى : (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ
وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي
السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (وقال تعالى :
(وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مَن يُعِذَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى)
وقال تعالى : (مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) . وقال (وَإِن يَمْسَسْكَ
اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ) . وقال تعالى :
(مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)
وقال تعالى : (قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَتَادَعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِن أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ
كَاشِفَتُ ضُرِّيَّهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِيَّ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ
يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ) .

ومثل هذا كثير في القرآن .

ومن سوى الأنبياء — من مشايخ العلم والدين — فمن أثبتهم وسائط بين

الرسول وأُمته ، يبلغونهم ، ويعلمونهم ، ويؤدّبونهم ، ويقتدون بهم ؛ فقد أصاب في ذلك .

وهؤلاء إذا أجمعوا فإجماعهم حجة قاطعة ، لا يجتمعون على ضلالة ، وإن تنازعوا في شيء ردوه إلى الله والرسول ؛ إذ الواحد منهم ليس بمعصوم على الإطلاق ؛ بل كل أحد من الناس يؤخذ من كلامه ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « العلماء ورثة الأنبياء ، فإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما ورثوا العلم ! فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر » .

وإن أثبتتم وسائط بين الله وبين خلقه — كالحجاب الذين بين الملك ورعيته — بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله حوائج خلقه ؛ فالله إنما يهدي عباده ويرزقهم بتوسطهم ؛ فالخلق يسألونهم ، وهم يسألون الله ؛ كما أن الوسائط عند الملوك : يسألون الملوك الحوائج للناس ؛ لقربهم منهم ، والناس يسألونهم ؛ أدباً منهم أن يباشروا سؤال الملك ؛ أو لأن طلبهم من الوسائط أنفع لهم من طلبهم من الملك ؛ لكونهم أقرب إلى الملك من الطالب للحوائج . فمن أثبتهم وسائط على هذا الوجه فهو كافر مشرك ، يجب أن يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل .

وهؤلاء مشبهون لله ، شبهوا المخلوق بالخالق ، وجعلوا لله أندادا . وفي القرآن من الرد على هؤلاء : مالم تتسع له هذه الفتوى .

فإن الوسائط التي بين الملوك وبين الناس : يكونون على أحد وجوه ثلاثة :-
إما لإخبارهم من أحوال الناس بما لا يعرفونه .

ومن قال إن الله لا يعلم أحوال عباده حتى يخبره بتلك بعض الملائكة أو الأنبياء أو غيرهم : فهو كافر ، بل هو - سبحانه - يعلم السر وأخفى ، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء (وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) . يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات ، لا يشغله سماع عن سماع ، ولا تغلظه المسائل . ولا يتبرم بإلحاح الملحين .

الوجه الثاني : أن يكون الملك عاجزاً عن تدبير رعيته ، ودفع أعدائه - إلا بأعوان يعينونه - فلا بد له من أنصار وأعوان ، لناله وعجزه .

والله - سبحانه - ليس له ظهير ، ولا ولي من الدن . قال تعالى : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ) وقال تعالى : (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وُليٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا) .

وكل ما في الوجود من الأسباب : فهو خالقه ، وربّه ومليكه ، فهو الغنى عن كل ما سواه ، وكل ما سواه فقير إليه ؛ بخلاف الملوك المحتاجين إلى ظهرائهم وهم - في الحقيقة - شركاؤهم في الملك .

والله تعالى : ليس له شريك في الملك ، بل لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

والوجه الثالث : أن يكون الملك ليس مرئياً لنفع رعيته ، والإحسان إليهم ورحمتهم : إلا بمحرك يحركه من خارج . فإذا خاطب الملك من نصحه ، ويعظمه ، أو من يدل عليه ؛ بحيث يكون يرجوه ويخافه : تحركت إرادة الملك

وهمته ، في قضاء حوائج رعيته ، إما لما حصل في قلبه من كلام الناصح الواعظ المشير ، وإما لما يحصل من الرغبة أو الرهبة من كلام المدل عليه .

والله تعالى هو رب كل شيء ومليكه ، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، وكل الأشياء إنما تكون بمشيئته ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وهو إذا أجرى نفع العباد بعضهم على بعض فجعل هذا يحسن إلى هذا ويدعو له ويشفع فيه ونحو ذلك ، فهو الذي خلق ذلك كله ، وهو الذي خلق في قلب هذا المحسن الداعي الشافع إرادة الإحسان ، والدعاء والشفاعة ، ولا يجوز أن يكون في الوجود من يكرهه على خلاف مراده ، أو يعلمه ما لم يكن يعلم ، أو من يرجوه الرب ويخافه .

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تقولن أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت ؛ ولكن ليعزم المسألة ؛ فإنه لا مكره له » .
والشفعاء الذين يشفعون عنده لا يشفعون إلا بإذنه ، كما قال : (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) وقال تعالى : (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى)
وقال تعالى : (قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) .

فبين أن كل من دعى من دونه ليس له ملك ولا شرك في الملك ، ولا هو ظهير . وأن شفاعتهم لا تنفع إلا لمن أذن له .

وهذا بخلاف الملوك فإن الشافع عندهم قد يكون له ملك ، وقد يكون شريكاً لهم في الملك ، وقد يكون مظاهراً لهم معاوناً لهم على ملكهم ، وهؤلاء

يشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك هم وغيرهم ، والملك يقبل شفاعتهم تارة بحاجته إليهم ، وتارة لخوفه منهم ، وتارة لجزاء إحسانهم إليه ومكافأتهم ولإنعامهم عليه ؛ حتى إنه يقبل شفاعته ولده وزوجته لذلك ، فإنه محتاج إلى الزوجة وإلى الولد ؛ حتى لو أعرض عنه ولده وزوجته لتضرر بذلك ، ويقبل شفاعته مملوكه ؛ فإذا لم يقبل شفاعته ؛ يخاف ألا يطيعه ، أو أن يسعى في ضرره وشفاعة العباد بعضهم عند بعض كلها من هذا الجنس . فلا يقبل أحد شفاعة أحد إلا لرغبة أو رهبة .

والله تعالى لا يرجو أحداً ، ولا يخافه ، ولا يحتاج إلى أحد بل هو الغنى قال تعالى : (أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا تَبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) الى قوله : (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) . والمشركون يتخذون شفعاء من جنس ما يهدونه من الشفاعاة . قال تعالى : (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) وقال تعالى : (فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) .

وأخبر عن المشركين أنهم قالوا : (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) وقال تعالى : (وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) وقال تعالى : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفِ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ

وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا .

فأخبر أن ما يدعى من دونه لا يملك كشف ضر ولا تحويله ، وأنهم يرجون رحمته ، ويخافون عذابه ، ويتقربون إليه . فهو - سبحانه - قد نفي ما من الملائكة والأنبياء ، إلا من الشفاعة بإذنه ، والشفاعة هي الدعاء .

ولا ريب أن دعاء الخلق بعضهم لبعض نافع ، والله قد أمر بذلك ، لكن الداعي الشافع : ليس له أن يدعو ويشفع إلا بإذن الله له في ذلك فلا يشفع شفاعة نهي عنها ، كالشفاعة للشركين والدعاء لهم بالمغفرة . قال تعالى : (مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا كَانِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ) . وقال تعالى في حق المنافقين : (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) .

وقد ثبت في الصحيح : أن الله نهي نبيه عن الاستغفار للشركين والمنافقين ، وأخبر أنه لا يغفر لهم . كما في قوله : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) وقوله : (وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ) وقد قال تعالى : (أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) - في الدعاء - ومن الاعتداء في الدعاء :

أن يسأل العبد ما لم يكن الرب ليفعله . مثل : أن يسأله منازل الأنبياء وليس منهم ، أو المغفرة للشركين ، ونحو ذلك . أو يسأله ما فيه معصية الله ، كإعانتته على الكفر والفسوق والعصيان .

فالشفيع الذى أذن الله له فى الشفاعة : شفاعته فى الدعاء الذى ليس فيه عدوان .

ولو سأل أحدهم دعاء لا يصلح له لا يقر عليه ؛ فإنهم معصومون أن يقرأوا على ذلك . كما قال نوح : (إِنَّ أَبْنَى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ) الحاكمين قال تعالى : (يَنْبُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّىْ أَعْظُكَ أَنْ تَكُونِ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّىْ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِيْ بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِيْ وَتَرْحَمْنِيْ أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ) .

وكل داع شافع دعا الله — سبحانه وتعالى — وشفع : فلا يكون دعاؤه وشفاعته إلا بقضاء الله وقدره ومشيئته ، وهو الذى يجيب الدعاء ويقبل الشفاعة فهو الذى خلق السبب والمسبب ، والدعاء من جملة الأسباب التى قدرها الله — سبحانه وتعالى — .

وإذا كان كذلك : فالالتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقص فى العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع ؛ بل العبد يجب أن يكون توكله ودعاؤه وسؤاله ورغبته إلى الله — سبحانه وتعالى — والله يقدر له من الأسباب — من دعاء الخلق وغيرهم — ما شاء .

والدعاء مشروع أن يدعو الأعلى للأدنى ، والأدنى للأعلى : فطلب الشفاعة والدعاء من الأنبياء كما كان المسلمون يستشفعون بالنبي صلى الله عليه وسلم فى الاستسقاء ، ويطلبون منه الدعاء ؛ بل وكذلك بعده استسقى عمر والمسلمون بالعباس عمه ، والناس يطلبون الشفاعة يوم القيامة من الأنبياء ،

ومحمد صلى الله عليه وسلم وهو سيد الشفعاء ، وله شفاعات يختص بها - ومع هذا - فقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلوا على ؛ فإنه من صلى على مرة صلى الله عليه عشراً ، ثم سلوا الله لى الوسيلة ؛ فإنها درجة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون ذلك العبد ! فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه شفاعتى يوم القيامة » وقد قال لعمر لما أراد أن يعتصر وودعه : « يا أخى لا تنسى من دعائك » .

فالنبي صلى الله عليه وسلم قد طلب من أمته أن يدعوا له ؛ ولكن ليس ذلك من باب سؤا لهم ، بل أمره بذلك لهم كأمره لهم بسائر الطاعات التى يثابون عليها ، مع أنه صلى الله عليه وسلم له مثل أجورهم فى كل ما يعملونه ، فإنه قد صح عنه أنه قال : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً » وهو داعى الأمة إلى كل هدى ، فله مثل أجورهم فى كل ما اتبعوه فيه .

وكذلك إذا صلوا عليه فإن الله يصلى على أحدهم عشراً ، وله مثل أجورهم مع ما يستجيبه من دعائهم له ، فذلك الدعاء قد أعطاهم الله أجرهم عليه ، وصار ما حصل له به من النفع نعمة من الله عليه ، وقد ثبت عنه فى الصحيح أنه قال : « ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة إلا وكل الله به ملكاً ، كلما دعا لأخيه بدعوة قال الملك الموكل به : آمين ولك مثل ذلك » وفى حديث آخر : « أسرع الدعاء دعوة غائب لغائب » .

فالدعاء للغير ينتفع به الداعي ، والمدعوه له وإن كان الداعي دون المدعو له ، فدعاء المؤمن لأخيه ينتفع به الداعي والمدعوه له . فمن قال لغيره ادع لي وقصد انتفاعهما جميعاً بذلك كان هو وأخوه متعاونين على البر والتقوى ، فهو نبيه المسئول وأشار عليه بما ينفعهما ، والمسئول فعل ما ينفعهما ، بمنزلة من يأمر غيره ببر وتقوى ؛ فيثاب المأمور على فعله ، والآمر أيضاً يشاب مثل ثوابه ؛ لكونه دعا إليه ، لاسيما ومن الأدعية ما يؤمر بها العبد ، كما قال تعالى : (وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنِينَ) فأمره بالاستغفار ثم قال : (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا) .

فذكر — سبحانه — استغفارهم ، واستغفار الرسول لهم إذ ذاك بما أمر به الرسول ، حيث أمره أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات ، ولم يأمر الله مخلوقاً أن يسأل مخلوقاً شيئاً لم يأمر الله المخلوق به ، بل ما أمر الله العبد أمر إيجاب ، أو استحباب ؛ ففعله هو عبادة لله وطاعة وقربة إلى الله ، وصلاح لفاعله وحسنة فيه ، وإذا فعل ذلك كان أعظم لإحسان الله إليه ، وإنعامه عليه . بل أجل نعمة أنعم الله بها على عباده أن هداهم للإيمان .

والإيمان قول وعمل ، يزيد بالطاعة والحسنات ، وكلما ازداد العبد عملاً للخير . ازداد إيمانه . هذا هو الإنعام الحقيقي المذكور في قوله : (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) وفي قوله : (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) . بل نعم الدنيا بدون الدين هل هي من نعمه أم لا ؟ فيه قولان مشهوران للعلماء من أصحابنا وغيرهم .

والتحقيق : أنها نعمة من وجهه وإن لم تكن نعمة تامة من وجهه ،
وأما الإنعام بالدين الذى ينبغى طلبه فهو ما أمر الله به من واجب ومستحب ،
فهو الخير الذى ينبغى طلبه باتفاق المسلمين ، وهو النعمة الحقيقية عند أهل السنة
إذ عندهم أن الله هو الذى أنعم بفعل الخير . والقدرية عندهم إنما أنعم بالقدره
عليه ، الصالحة للضدين فقط .

والمقصود هنا : أن الله لم يأمر مخلوقاً أن يسأل مخلوقاً إلا ما كان مصلحة
لذلك المخلوق ، إما واجب أو مستحب . فإنه سبحانه لا يطلب من العبد إلا ذلك ،
فكيف يأمر غيره أن يطلب منه غير ذلك ؟ بل قد حرم على العبد أن يسأل العبد
ماله إلا عند الضرورة .

وإن كان قصده مصلحة المأمور أو مصلحته ومصلحة المأمور ، فهذا يثاب
على ذلك ، وإن كان قصده حصول مطلوبه من غير قصد منه لا تتفاد المأمور ،
فهذا من نفسه أتى ، ومثل هذا السؤال لا يأمر الله به قط ، بل قد نهى عنه ،
إذ هذا سؤال محض للمخلوق من غير قصده لنفعه ولا لمصلحته ، والله يأمرنا
أن نعبد ونرغب إليه ، ويأمرنا أن نحسن إلى عباده ، وهذا لم يقصد لا هذا
ولا هذا ، فلم يقصد الرغبة إلى الله ودعائه ، وهو الصلاة . ولا قصد الإحسان
إلى المخلوق الذى هو الزكاة ، وإن كان العبد قد لا يأثم بمثل هذا السؤال ؛ لكن
فرق ما بين ما يؤمر به العبد وما يؤذن له فيه ، ألا ترى أنه قال فى حديث
السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب : إنهم لا يسترقون . وإن كان
الاسترقاء جائزاً . وهذا قد بسطناه فى غير هذا الموضع .

والمقصود هنا : أن من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه ، كالوسائط التى

تكون بين الملوك والرعية ، فهو مشرك ، بل هذا دين المشركين عباد الأوثان كانوا يقولون : إنها تماثيل الأنبياء والصالحين ، وإنها وسائل يتقربون بها إلى الله ، وهو من الشرك الذى أنكره الله على النصارى حيث قال : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) وقال تعالى : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) أى فليستجيبوا لى إذا دعوتهم بالأمر والنهى ، وليؤمنوا بى أن أجيب دعاءهم لى بالمسألة والتضرع .

وقال تعالى : (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب) وقال تعالى : (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَ الْمُضْطَرِّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ) . وقال تعالى : (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) .

وقد بين الله هذا التوحيد فى كتابه ، وحسم مواد الإشراك به حتى لا يخاف أحد غير الله ، ولا يرجو سواه ، ولا يتوكل إلا عليه . وقال تعالى : (فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَآخِشُونِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا) (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ) أى يخوفكم أوليائه (فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ) وقال تعالى : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُنِبَ عَلَيْهِمُ الْفِتْنَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً) وقال تعالى : (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ ءَامِنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ

وَأَتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ (وقال تعالى : (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ

وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) .

فبين أن الطاعة لله ورسوله، وأما الخشية فله وحده .

وقال تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ

سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ) ونظيره قوله تعالى : (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ

النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم : يحقق هذا التوحيد لأُمَّته ، ويحسم عنهم مواد الشرك ؛ إذ هذا تحقيق قولنا لا إله إلا الله ، فإن الإله هو الذى تأله القلوب ؛ لكمال المحبة والتعظيم ، والإجلال والإكرام ، والرجاء والخوف ، حتى قال لهم : « لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ؛ ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد » وقال له رجل : ما شاء الله وشئت . فقال : « أجعلتنى لله ندا ؟ بل ما شاء الله وحده » وقال : « من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » وقال : « من حلف بغير الله فقد أشرك » وقال لابن عباس : « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، جف القلم بما أنت لاق ؛ فلو جهدت الخليفة على أن تنفعك لم تنفعك إلا بشيء كتبه الله لك ، ولو جهدت أن تضرك لم تضرك إلا بشيء كتبه الله عليك » ! وقال أيضاً : « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، وإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله » وقال : « اللهم لا تجعل قبرى وثناً يعبد » وقال : « لا تتخذوا قبرى عيداً ، وصلوا على فإن صلاتكم تبلغنى حيث ما كنتم » وقال فى مرضه : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور

أنبياءهم مساجد » يحذر ما صنعوا قالت عائشة : ولو لا ذلك لأبرز قبره ؛ ولكن كره أن يتخذ مسجدا . وهذا باب واسع .

ومع علم المؤمن أن الله رب كل شيء ومليكه : فإنه لا ينكر ما خلقه الله من الأسباب ، كما جعل المطر سبباً لإنبات النبات . قال الله تعالى : (وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ) وكما جعل الشمس والقمر سبباً لما يخلقه بهما ، وكما جعل الشفاعة والدعاء سبباً لما يقضيه بذلك ، مثل صلاة المسلمين على جنازة الميت ؛ فإن ذلك من الأسباب التي يرحمها الله بها ، ويثيب عليها المصلين عليه ؛ لكن ينبغي أن يعرف في الأسباب ثلاثة أمور : أحدها : أن السبب المعين لا يستقل بالمطلوب ، بل لابد معه من أسباب آخر ، ومع هذا فلها موانع . فإن لم يكمل الله الأسباب ، ويدفع الموانع : لم يحصل المقصود ، وهو - سبحانه - ما شاء كان - وإن لم يشأ الناس - وما شاء الناس لا يكون إلا أن يشاء الله .

الثاني : أن لا يجوز أن يعتقد أن الشيء سبب إلا بعلم ، فمن أثبت شيئاً سبباً بلا علم أو يخالف الشرع : كان مبطلا ، مثل من يظن أن النذر سبب في دفع البلاء وحصول النعماء .

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه نهى عن النذر وقال : « إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل » .

الثالث : أن الأعمال الدينية لا يجوز أن يتخذ منها شيء سبباً إلا أن تكون مشروعة ؛ فإن العبادات مبناه على التوقيف ؛ فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله ، فيدعو غيره - وإن ظن أن ذلك سبب في حصول بعض أغراضه -

وكذلك لا يعبد الله بالبدع ، المخالفة للشريعة - وإن ظن ذلك - فإن الشياطين قد تعين الإنسان على بعض مقاصده إذا أشرك ، وقد يحصل بالكفر والفسوق والعصيان بعض أغراض الإنسان ، فلا يحل له ذلك ؛ إذ المفسدة الحاصلة بذلك أعظم من المصلحة الحاصلة به إذ الرسول صلى الله عليه وسلم : بعث بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، فما أمر الله به : فمصلحته راجحة ، وما نهى عنه : ففسدته راجحة ، وهذه الجملة : لها بسط لا تحتمله هذه الورقة . والله أعلم .

وسئل رحمه الله :-

قال السائل : إن الله يسمع الدعاء بواسطة محمد صلى الله عليه وسلم فإنه الوسيلة والواسطة .

فأجاب :-

الحمد لله ، إن أراد بذلك أن الإيمان بمحمد ، وطاعته ، والصلاة والسلام عليه وسيلة للعبد في قبول دعائه وثواب دعائه فهو صادق ؛ وإن أراد أن الله لا يجيب دعاء أحد حتى يرفعه إلى مخلوق ، أو يقسم عليه به ، أو أن أنفس الأنبياء بدون الإيمان بهم وطاعتهم وبدون شفاعتهم وسيلة في إجابة الدعاء : فقد كذب في ذلك والله أعلم .

وسئل شيخ الإسلام رحمه الله تعالى : -

هل يجوز التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم أم لا ؟ .

فأجاب :

الحمد لله . أما التوسل بالإيمان به ، ومحبه وطاعته ، والصلاة والسلام عليه ، وبدعائه وشفاعته ونحو ذلك ، مما هو من أفعاله ، وأفعال العباد المأمور بها في حقه . فهو مشروع باتفاق المسلمين ، وكان الصحابة رضي الله عنهم يتوسلون به في حياته . وتوسلوا بعد موته بالعباس عمه ، كما كانوا يتوسلون به . وأما قول القائل : اللهم إني أتوسل إليك به . فللعلماء فيه قولان كما لهم في الحلف به قولان : وجمهور الأئمة كمالك ، والشافعي ، وأبي حنيفة على أنه لا يسوغ الحلف^(١) بغيره من الأنبياء ، والملائكة ولا تعتقد اليمين بذلك باتفاق العلماء ، وهذا إحدى الروايتين عن أحمد ، والرواية الأخرى تعتقد اليمين به خاصة دون غيره ؛ ولذلك قال أحمد في منسكه الذي كتبه للبروزي صاحبه : إنه يتوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم في دعائه ؛ ولكن غير أحمد قال : إن هذا إقسام على الله به ، ولا يقسم على الله بمخلوق ، وأحمد في إحدى الروايتين قد جوز القسم به ، فلذلك جوز التوسل به .

ولكن الرواية الأخرى عنه هي قول جمهور العلماء ، أنه لا يقسم به ؛

(١) هكذا ورد في المطبوع ولعل الصواب (لا يسوغ الحلف به ولا بغيره)

فلا يقسم على الله به كسائر الملائكة ، والأنبياء ، فإننا لا نعلم أحداً من السلف والأئمة قال إنه يقسم به على الله ؛ كما لم يقولوا إنه يقسم بهم مطلقاً ؛ ولهذا أفتى أبو محمد بن عبد السلام : أنه لا يقسم على الله بأحد من الملائكة والأنبياء وغيرهم ؛ لكن ذكر له أنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث في الإقسام به فقال : إن صح الحديث كان خاصاً به ، والحديث المذكور لا يدل على الإقسام به ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « من كان حالفاً فليحلف بالله وإلا فليصمت » وقال : « من حلف بغير الله فقد أشرك » والدعاء عبادة والعبادة مبناها على التوقيف والاتباع ، لا على الهوى والابتداع والله أعلم .

وقال شيخ الإسلام قدس الله روحه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيداً .

أرسله بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله يأذنه وسراجاً منيراً ، فهدى به من الضلالة ، وبصر به من العمى ، وأرشد به من الغي ، وفتح به أعينا عمياً ، وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً . فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وجاهد في الله حق جهاده ، وعبد ربه حتى أتاه اليقين من ربه ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً .

ففرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، والرشاد والغي ، وطريق أهل الجنة وطريق أهل النار ، وبين أوليائه وأعدائه . فالحلال ما حله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله ، والدين ما شرعه الله ورسوله .

وقد أرسله الله إلى الثقلين الجن والإنس ، فعلى كل أحد أن يؤمن به وبما جاء به ويتبعه في باطنه وظاهره . والإيمان به ومتابعته هو سبيل الله وهو دين الله

(١) تسمى قاعدة في التوسل والوسيلة .

وهو عبادة الله وهو طاعة الله وهو طريق أولياء الله وهو الوسيلة التي أمر الله بها عباده في قوله تعالى (٥ : ٣٥) : (يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ) فابتغاء الوسيلة إلى الله إنما يكون لمن توسل إلى الله بالإيمان بمحمد واتباعه .

وهذا التوسل بالإيمان به وطاعته فرض على كل أحد ، باطناً وظاهراً في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد موته في مشهده ومغيبه ، لا يسقط التوسل بالإيمان به وبطاعته عن أحد من الخلق في حال من الأحوال بعد قيام الحجة عليه ، ولا بعذر من الأعذار . ولا طريق إلى كرامة الله ورحمته والنجاة من هوانه وعذابه إلا التوسل بالإيمان به وبطاعته .

وهو صلى الله عليه وسلم شفيع الخلائق صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون . فهو أعظم الشفعاء قدراً وأعلام جاهها عند الله ، وقد قال تعالى عن موسى (وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً) وقال عن المسيح (وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) . ومحمد صلى الله عليه وسلم أعظم جاهاً من جميع الأنبياء والمرسلين ؛ لكن شفاعته ودعاؤه إنما ينتفع به من شفع له الرسول ودعا له ، فمن دعا له الرسول وشفع له توسل إلى الله بشفاعته ودعائه ، كما كان أصحابه يتوسلون إلى الله بدعائه وشفاعته ، وكما يتوسل الناس يوم القيامة إلى الله تبارك وتعالى بدعائه وشفاعته ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً .

ولفظ (التوسل) في عرف الصحابة كانوا يستعملونه في هذا المعنى . والتوسل بدعائه وشفاعته ينفع مع الإيمان به ، وأما بدون الإيمان به فالكفار والمنافقون لا تغني عنهم شفاعته الشافعين في الآخرة .

ولهذا نهى عن الاستغفار لعمه وأبيه وغيرهما من الكفار ، ونهى عن الاستغفار للنافقين وقيل له : (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) ، ولكن الكفار يتفاضلون في الكفر كما يتفاضل أهل الإيمان في الإيمان ، قال تعالى : (إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ) .

فإذا كان في الكفار من خف كفره بسبب نصرته ومعوته فإنه تنفعه شفاعته في تخفيف العذاب عنه لا في إسقاط العذاب بالكلية ، كما في صحيح مسلم عن العباس بن عبد المطلب أنه قال : قلت يا رسول الله فهل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطك ويغضب لك ؟ قال : « نعم هو في ضحضاح من نار ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار » ، وفي لفظ : إن أبا طالب كان يحوطك وينصرك ويغضب لك فهل نفعه ذلك ؟ قال « نعم » ، وجدته في غمرات من نار فأخرجته إلى ضحضاح » ، وفيه عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر عنده عمه أبو طالب فقال « لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبه يغلي منهما دماغه » ، وقال « إن أهون أهل النار عذاباً أبو طالب ، وهو متعل بنعلين من نار يغلي منهما دماغه » .

وكذلك ينفع دعاؤه لهم بأن لا يعجل عليهم العذاب في الدنيا كما كان صلى الله عليه وسلم يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه وهو يقول « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » . وروى أنه دعا بذلك أن اغفر لهم فلا تعجل عليهم العذاب في الدنيا ؛ قال تعالى : (وَلَوْ يَوَازِئُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَا يَكُن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) .

وأيضاً فقد يدعو لبعض الكفار بأن يهديه الله أو يرزقه فيهديه أو يرزقه ، كما دعا لأم أبي هريرة حتى هداها الله ، وكما دعا لدوس فقال « اللهم اهد دوساً واثبت بهم » فهداهم الله ، وكما روى أبو داود أنه استسقى لبعض المشركين لما طلبوا منه أن يستسقى لهم فاستسقى لهم ، وكان ذلك إحساناً منه إليهم يتألف به قلوبهم كما كان يتألفهم بغير ذلك .

وقد اتفق المسلمون على أنه صلى الله عليه وسلم أعظم الخلق جاهاً عند الله ، لا جاه لمخلوق عند الله أعظم من جاهه ، ولا شفاعاة أعظم من شفاعته . لكن دعاء الأنبياء وشفاعتهم ليس بمنزلة الإيمان بهم وطاعتهم ، فإن الإيمان بهم وطاعتهم يوجب سعادة الآخرة والنجاة من العذاب مطلقاً وعاماً ، فكل من مات مؤمناً بالله ورسوله مطيعاً لله ورسوله كان من أهل السعادة قطعاً ، ومن مات كافراً بما جاء به الرسول كان من أهل النار قطعاً .

وأما الشفاعاة والدعاء فارتفاع العباد به موقوف على شروط وله موانع ، فالشفاعة للكفار بالنجاة من النار والاستغفار لهم مع موتهم على الكفر لا تنفعهم - ولو كان الشفيع أعظم الشفعاء جاهاً - فلا شفيع أعظم من محمد صلى الله عليه وسلم ثم الخليل إبراهيم ، وقد دعا الخليل إبراهيم لأبيه واستغفر له كما قال تعالى عنه (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) . وقد كان صلى الله عليه وسلم أراد أن يستغفر لأبي طالب اقتداءً بإبراهيم وأراد بعض المسلمين أن يستغفر لبعض أقاربه فأنزل الله تعالى : (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) .

ثم ذكر الله عذر إبراهيم فقال : (وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ * وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ) ، وثبت في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قفرة وغبرة ، فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصني ؟ فيقول له أبوه : فاليوم لا أعصيك . فيقول إبراهيم : يارب أنت وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون ، وأى خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله عز وجل : إني حرمت الجنة على الكافرين ، ثم يقال : انظر ما تحت رجلك فينظر فإذا هو بذيخ متلطح فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار » فهذا لما مات مشركا لم ينفعه استغفار إبراهيم مع عظم جاهه وقدره ، وقد قال تعالى للمؤمنين :

(قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا الْقَوْمِ هُمْ إِنَابِرَاءٌ وَأَمِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا اسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْنِكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَارْحَمْنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

فقد أمر الله تعالى المؤمنين بأن يتأسوا بإبراهيم ومن اتبعه ، إلا في قول إبراهيم لأبيه « لا أستغفرن لك » فإن الله لا يغفر أن يشرك به .

وكذلك سيد الشفعاء محمد صلى الله عليه وسلم ، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي ، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي » . وفي رواية أن النبي صلى الله عليه وسلم

زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ثم قال « استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي ، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي ، فزوروا القبور فإنها تذكروا الموت » وثبت عن أنس في الصحيح أن رجلا قال : يا رسول الله أين أبي ؟ قال « في النار » . فلما قفي دعاه فقال « إن أبي وأباك في النار » . وثبت أيضا في الصحيح عن أبي هريرة لما أنزلت هذه الآية : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً فاجتمعوا فعم وخص فقال : « يا بني كعب ابن لؤي ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بني مرة بن كعب ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بني عبد شمس ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بني عبد مناف ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا بني عبد المطلب ، أنقذوا أنفسكم من النار . يا فاطمة ، أنقذى نفسك من النار . فإني لا أملك لكم من الله شيئا ، غير أن لكم رحما سأبلها بيلالها » . وفي رواية عنه « يا معشر قريش ، اشترُوا أنفسكم من الله ؛ فإني لا أغني عنكم من الله شيئا . يا بني عبد المطلب . لا أغني عنكم من الله شيئا . يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغني عنك من الله شيئا . يا صفية — عمة رسول الله — لا أغني عنك من الله شيئا . يا فاطمة بنت رسول الله ، سليني من مالي ما شئت ، لا أغني عنك من الله شيئا » . وعن عائشة لما نزلت : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا فاطمة بنت محمد ، يا صفية بنت عبد المطلب . لا أملك لكم من الله شيئا . سلوني من مالي ما شئتم » .

وعن أبي هريرة قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيبا ذات يوم فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره ثم قال : « لا ألفين أحداكم يحى يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول : يا رسول الله . أغثنى . فأقول : لا أملك لك شيئا

قد أبلغتك . لا ألفين أحكم يحىء يوم القيامة على رقبته فرس له حممة فيقول :
يا رسول الله أغنى . فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك . لا ألفين أحكم يحىء
يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء ، فيقول : يا رسول الله ، أغنى . فأقول :
لا أملك لك شيئاً ، قد أبلغتك . لا ألفين أحكم يحىء يوم القيامة على رقبته رقاغ
تحقق فيقول : يا رسول الله ، أغنى . فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد أبلغتك .
لا ألفين أحكم يحىء يوم القيامة على رقبته صامت فيقول : يا رسول الله ، أغنى .
فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد أبلغتك « أخرجاه في الصحيحين وزاد مسلم
» لا ألفين أحكم يحىء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح ، فيقول :
يا رسول الله ، أغنى . فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد أبلغتك « . وفي البخارى
عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ولا يأتى أحكم يوم القيامة بشاة يحملها
على رقبته لها يُعار فيقول : يا محمد ، فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد بلغت .
ولا يأتى أحكم ببعير يحمله على رقبته له رغاء فيقول : يا محمد ، فأقول : لا أملك
لك شيئاً ، قد بلغت « . وقوله هنا صلى الله عليه وسلم لا أملك لك من الله شيئاً
كقول إبراهيم لأبيه (لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) .

وأما شفاعته ودعاؤه للؤمنين فهي نافعة في الدنيا والدين باتفاق المسلمين ،
وكذلك شفاعته للؤمنين يوم القيامة في زيادة الثواب ورفع الدرجات متفق عليها
بين المسلمين ، وقد قيل إن بعض أهل البدعة ينكرها .

وأما شفاعته لأهل الذنوب من أمته فمتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم
بإحسان وسائر أئمة المسلمين الأربعة وغيرهم ، وأنكرها كثير من أهل البدع
من الخوارج والمعتزلة والزيدية ، وقال هؤلاء : من يدخل النار لا يخرج منها

لا بشفاعته ولا غيرها ، وعند هؤلاء ما ثم إلا من يدخل الجنة فلا يدخل النار ، ومن يدخل النار فلا يدخل الجنة ، ولا يجتمع عندهم في الشخص الواحد ثواب وعقاب . وأما الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر الأئمة كالأربعة وغيرهم فيقرون بما تواترت به الأحاديث الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله يخرج من النار قوما بعد أن يعذبهم الله ما شاء أن يعذبهم ، يخرجهم بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ، ويخرج آخرين بشفاعة غيره ، ويخرج قوما بلا شفاعته .

واحتج هؤلاء المنكرون للشفاعة بقوله تعالى :

(وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ) وبقوله :

(وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ) وبقوله : (مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ

وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ) وبقوله : (مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَيمٍ وَلَا شَفِيعٌ يُطَاعُ)

وبقوله : (فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ) .

وجواب أهل السنة أن هذا يراد به شيان :

أحدهما : أنها لا تنفع المشركين ، كما قال تعالى في نعتهم : (مَّاسَلَكُكُمْ

فِي سَقَرٍ * قَالُوا لَرَنَّاكَ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكْ نُطْعِمِ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ

الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ * حَتَّى أَتَيْنَا الْيَقِينَ * فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ)

فهؤلاء نفي عنهم نفع شفاعته الشافعين لأنهم كانوا كفاراً .

والثاني : أنه يراد بذلك نفي الشفاعات التي يثبتها أهل الشرك ، ومن شابههم

من أهل البدع : من أهل الكتاب والمسلمين الذين يظنون أن للخلق عند الله

من القدر أن يشفعوا عنده بغير إذنه ، كما يشفع الناس بعضهم عند بعض فيقبل

المشفوع إليه شفاعه شافع لحاجته إليه رغبة ورهبة ، وكما يعامل المخلوق المخلوق بالمعاوضة .

فالمشركون كانوا يتخذون من دون الله شفعاء من الملائكة والأنبياء والصالحين ، ويصورون تماثيلهم فيستشفعون بها ويقولون : هؤلاء خواص الله ، فنحن نتوسل إلى الله بدعائهم وعبادتهم ليشفعوا لنا ، كما يتوسل إلى الملوك بخواصهم لكونهم أقرب إلى الملوك من غيرهم ، فيشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك ، وقد يشفع أحدهم عند الملك فيما لا يختاره فيحتاج إلى إجابة شفاعته رغبة ورهبة .

فأنكر الله هذه الشفاعه فقال تعالى : (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) وقال : (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى) ، وقال عن الملائكة : (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ

بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) وقال : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرْكِ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ)

وقال تعالى : (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) وقال تعالى : (وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ

يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) وقال تعالى : (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ) ،

وقال تعالى : (وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) وقال تعالى : (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) وقال تعالى : (أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلَوْكَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفْعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) وقال تعالى : (وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا * يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفْعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا) وقال صاحب يس : (وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرَدِّنَ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفْعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ * إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ) .

فهذه الشفاعة التي أثبتها المشركون للهلائكة والأنبياء والصالحين حتى صوروا تماثيلهم وقالوا : استشفاعنا بتماثيلهم استشفاع بهم ، وكذلك قصدوا قبورهم وقالوا : نحن نستشفع بهم بعد مماتهم ليشفعوا لنا إلى الله ، وصوروا تماثيلهم فعبدوهم كذلك ، وهذه الشفاعة أبطلها الله ورسوله وذم المشركين عليها وكفرهم بها . قال الله تعالى عن قوم نوح :

(وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا) . قال ابن عباس وغيره : هؤلاء قوم صالحون كانوا في قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم ، وهذا مشهور في كتب التفسير والحديث

وغيرها كالبخاري وغيره ، وهذه أبطأها النبي صلى الله عليه وسلم وحسم مادتها
وسد ذريعتها ، حتى لعن من اتخذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد يصلّي فيها
وإن كان المصلّي فيها لا يستشفع بهم ، ونهى عن الصلاة إلى القبور وأرسل على
ابن أبي طالب فأمره أن لا يدع قبراً مشرفاً إلا سواه ، ولا تمثالاً إلا طمسه
ومحاه ، ولعن المصورين . وعن أبي الهياج الأسدي : قال لي علي بن أبي طالب :
« لا بعثك على ما بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا تدع تمثالاً
إلا طمسته ، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته » . وفي لفظ : « ولا صورة
إلا طمستها » . أخرجه مسلم .

فصل

ولفظ (التوسل) قد يراد به ثلاثة أمور . يراد به أمران متفق عليهما بين المسلمين : —

أحدهما هو أصل الإيمان والإسلام ، وهو التوسل بالإيمان به وبطاعته .
والثاني دعاؤه وشفاعته ، وهذا أيضاً نافع يتوسل به من دعا له وشفع فيه باتفاق المسلمين . ومن أنكر التوسل به بأحد هذين المعنيين فهو كافر مرتد يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل مرتداً . ولكن التوسل بالإيمان به وبطاعته هو أصل الدين ، وهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام للخاصة والعامة ، فمن أنكر هذا المعنى فكفره ظاهر للخاصة والعامة .

وأما دعاؤه وشفاعته وانتفاع المسلمين بذلك فمن أنكره فهو أيضاً كافر ، لكن هذا أخفى من الأول ، فمن أنكره عن جهل عُرف ذلك ؛ فإن أصر على إنكاره فهو مرتد .

أما دعاؤه وشفاعته في الدنيا فلم ينكره أحد من أهل القبلة .
وأما الشفاعة يوم القيامة فمذهب أهل السنة والجماعة - وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين الأربعة وغيرهم - أن له شفاعات يوم القيامة خاصة وعامة ، وأنه يشفع فيمن يأذن الله له أن يشفع فيه من أمته من أهل الكبائر . ولا ينتفع بشفاعته إلا أهل التوحيد المؤمنون ؛ دون أهل

الشرك ، ولو كان المشرك محباً له معظماً له لم تنقذه شفاعته من النار ، وإنما ينجيه من النار التوحيد والإيمان به ، ولهذا لما كان أبو طالب وغيره يحبونه ولم يقرؤا بالتوحيد الذي جاء به لم يمكن أن يخرجوا من النار بشفاعته ولا بغيرها .

وفي صحيح البخارى عن أبي هريرة أنه قال : قلت يا رسول الله أى الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة فقال « أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه » . وعنه فى صحيح مسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكل نبي دعوة مستجابة ، فتعجل كل نبي دعوته ، وإني اختبأت دعوتي شفاعة يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله تعالى من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئاً » وفى السنن عن عوف بن مالك قال : قال رسول الله « أتاني آت من عند ربي فخيرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة ، فاخترت الشفاعة ، وهى لمن مات لا يشرك بالله شيئاً » وفى لفظ قال « ومن لقي الله لا يشرك به شيئاً فهو فى شفاعتي » .

وهذا الأصل وهو التوحيد هو أصل الدين الذى لا يقبل الله من الأولين والآخرين ديناً غيره ، وبه أرسل الله الرسل وأنزل الكتب ، كما قال تعالى :

(وَسَّئِلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ)

وقال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

وقال تعالى : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ

فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) .

وقد ذكر الله عز وجل عن كل من الرسل أنه افتتح دعوته بأن قال لقومه :

(اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ) .

وفي المسند عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له ، وجعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذل والصغار على من خالف أمري . ومن تشبه بقوم فهو منهم » .

والمشركون من قريش وغيرهم — الذين أخبر القرآن بشركهم واستحل النبي صلى الله عليه وسلم دماءهم وأموالهم وسبي حريمهم وأوجب لهم النار — كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السموات والأرض كما قال : (وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) وقال : (قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِطُ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ * بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ) .

وكان المشركون الذين جعلوا معه آلهة أخرى مقرين بأن آلهتهم مخلوقة ،

ولكنهم كانوا يتخذونهم شفعاء ويتقربون بعبادتهم إليه كما قال تعالى :

(وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ)

وقال تعالى : (تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ) وكانوا يقولون في تلبيتهم :

لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك

وقال تعالى : (ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَ هُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُبِينٍ إِلَيْهِ وَآتَوْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) .

بين سبحانه بالمثل الذي ضربه لهم أنه لا ينبغي أن يجعل مملوكه شريكه فقال : (هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ) يخاف أحدكم مملوكه كما يخاف بعضكم بعضا ، فإذا كان أحدكم لا يرضى أن يكون مملوكه شريكه فكيف ترضونه لأنفسكم ؟ .

وهذا كما كانوا يقولون : له بنات ، فقال تعالى : (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ السِّنَّةُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ)

وقد قال تعالى : (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ .

والمشركون الذين وصفهم الله ورسوله بالشرك أصلهم صنفان :
قوم نوح . وقوم إبراهيم : فقوم نوح كان أصل شركهم العكوف على قبور
الصالحين ، ثم صوروا تماثيلهم ، ثم عبدوهم .

وقوم إبراهيم كان أصل شركهم عبادة الكواكب والشمس والقمر .
وكل من هؤلاء يعبدون الجن ، فإن الشياطين قد تخاطبهم وتعينهم على
أشياء ، وقد يعتقدون أنهم يعبدون الملائكة وإن كانوا في الحقيقة إنما يعبدون
الجن فإن الجن هم الذين يعينونهم ويرضون بشركهم قال تعالى : (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ
جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِئْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا
يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنُونَ) .

والملائكة لا تعينهم على الشرك لا في الحيا ولا في المات ولا يرضون
بذلك ، ولكن الشياطين قد تعينهم وتتصور لهم في صور الآدميين فيروونهم
بأعينهم ويقول أحدهم : أنا إبراهيم ، أنا المسيح ، أنا محمد ، أنا الخضر ،
أنا أبو بكر ، أنا عمر ، أنا عثمان ، أنا علي ، أنا الشيخ فلان . وقد يقول
بعضهم عن بعض : هذا هو النبي فلان أو هذا هو الخضر ويكون أولئك كلهم
جنا يشهد بعضهم لبعض . والجن كالإنس فمنهم الكافر ومنهم الفاسق ومنهم
العاصي وفيهم العابد الجاهل ، فمنهم من يحب شيئا فيتزيا في صورته ويقول :
أنا فلان . ويكون ذلك في برية ومكان قفر فيطعم ذلك الشخص طعاما ويسقيه
شرابا أو يدلّه على الطريق أو يخبره ببعض الأمور الواقعة الغائبة فيظن ذلك

الرجل أن نفس الشيخ الميت أو الحى فعل ذلك ، وقد يقول : هذا سر الشيخ وهذه رقيقته وهذه حقيقته أو هذا ملك جاء على صورته . وإنما يكون ذلك جنيا ، فإن الملائكة لا تعين على الشرك والإفك والإثم والعدوان .

وقد قال الله تعالى : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ ، فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ

عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) قال

طائفة من السلف كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء كالعزيز والمسيح فبين الله تعالى أن الملائكة والأنبياء عباد الله ، كما أن الذين يعبدونهم عباد الله ، وبين أنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ويتقربون إليه كما يفعل سائر عباده الصالحين .

والمشركون من هؤلاء قد يقولون : إنا نستشفع بهم أى نطلب من الملائكة والأنبياء أن يشفعوا ، فاذا أتينا قبر أحدهم طلبنا منه أن يشفع لنا ، فاذا صورنا تمثاله - والتماثيل إما مجسدة وإما تماثيل مصورة كما يصورها النصارى فى كنائسهم - قالوا : فمقصودنا بهذه التماثيل تذكر أصحابها وسيرهم ونحن نخاطب هذه التماثيل ومقصودنا خطاب أصحابها ليشفعوا لنا إلى الله . فيقول أحدهم : يا سيدى فلان أو يا سيدى جرجس أو بطرس أو يا ستى الحنونة مريم أو يا سيدى الخليل أو موسى بن عمران أو غير ذلك ، اشفع لى إلى ربك .

وقد يخاطبون الميت عند قبره : سل لى ربك . أو يخاطبون الحى وهو غائب كما يخاطبونه لو كان حاضرا حيا وينشدون قصائد يقول أحدهم فيها : يا سيدى فلان ! أنا فى حسبك ، أنا فى جوارك ، اشفع لى إلى الله ، سل الله لنا أن ينصرنا

على عدونا ، سل الله أن يكشف عنا هذه الشدة ، أشكو إليك كذا ، وكذا ، فسل الله أن يكشف هذه الكربة . أو يقول أحدهم : سل الله أن يغفر لي .

ومنهم من يتأول قوله تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا

اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا) ويقولون : إذا طلبنا منه الاستغفار

بعد موته كنا بمنزلة الذين طلبوا الاستغفار من الصحابة ، ويخالفون بذلك إجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر المسلمين ، فإن أحدا منهم لم يطلب من النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته أن يشفع له ولا سأل شيئا ولا ذكر ذلك أحد من أئمة المسلمين في كتبهم ، وإنما ذكر ذلك من ذكره من متأخري الفقهاء وحكوا حكاية مكذوبة على مالك رضى الله عنه سيأتى ذكرها وبسط الكلام عليها إن شاء الله تعالى .

فهذه الأنواع من خطاب الملائكة والأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم وفي مغيبهم ، وخطاب تماثيلهم ، هو من أعظم أنواع الشرك الموجود في المشركين من غير أهل الكتاب ، وفي مبتدعة أهل الكتاب والمسلمين الذين أحدثوا من الشرك والعبادات ما لم يأذن به الله تعالى . قال الله تعالى : (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ) .

فإن دعاء الملائكة والأنبياء بعد موتهم وفي مغيبهم وسؤالهم والاستغاثة بهم والاستشفاع بهم في هذه الحال ونصب تماثيلهم - بمعنى طلب الشفاعة منهم - هو من الدين الذي لم يشرعه الله ولا ابتعث به رسولا ولا أنزل به كتابا ، وليس هو واجبا ولا مستحبا باتفاق المسلمين ، ولا فعله أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا أمر به إمام من أئمة المسلمين ، وإن كان ذلك مما يفعله كثير

من الناس ممن له عبادة وزهد ، ويذكرون فيه حكايات ومنامات ، فهذا كله من الشيطان .

وفيه من ينظم القصائد في دعاء الميت ، والاستشفاع به ، والاستغاثة ، أو يذكر ذلك في ضمن مديح الأنبياء والصالحين ، فهذا كله ليس بمشروع ، ولا واجب ، ولا مستحب باتفاق أئمة المسلمين ، ومن تعبد بعبادة ليست واجبة ولا مستحبة ، وهو يعتقد أنها واجبة أو مستحبة فهو ضال مبتدع بدعة سيئة لا بدعة حسنة باتفاق أئمة الدين ، فإن الله لا يعبد إلا بما هو واجب أو مستحب . وكثير من الناس يذكرون في هذه الأنواع من الشرك منافع ومصالح ، ويحتجون عليها بحجج من جهة الرأي أو الذوق ، أو من جهة التقليد والمنامات ونحو ذلك .

وجواب هؤلاء من طريقتين :

أحدهما الاحتجاج بالنص والإجماع .

والثاني القياس والذوق والاعتبار ببيان ما في ذلك من الفساد ، فإن فساد ذلك راجح على ما يظن فيه من المصلحة .

أما الأول فيقال : قد علم بالاضطرار والتواتر من دين الإسلام وإجماع سلف الأمة وأئمتها أن ذلك ليس بواجب ولا مستحب .

وعلم أنه لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم بل ولا أحد من الأنبياء قبله شرعوا للناس أن يدعوا الملائكة والأنبياء والصالحين ولا يستشفعوا بهم ، لا بعد مماتهم ولا في مغيبهم ، فلا يقول أحد : يا ملائكة الله اشفعوا لي عند الله ، سلوا الله لنا أن ينصرنا أو يرزقنا أو يهدينا .

وكذلك لا يقول لمن مات من الأنبياء والصالحين : يا نبي الله ، يا رسول الله ! ادع الله لي ، سل الله لي ، استغفر الله لي ، سل الله لي أن يغفر لي أو يهديني أو ينصرني أو يعافيني ، ولا يقول : أشكو إليك ذنوبي أو نقص رزقي أو تسلط العدو علي ، أو أشكو إليك فلانا الذي ظلمني ولا يقول : أنا نزيلك أنا ضيفك أنا جارك أو أنت تجير من يستجير ، أو أنت خير معاذ يستعاذ به .

ولا يكتب أحد ورقة ويلقها عند القبور ، ولا يكتب أحد محضراً أنه استجار بفلان ويذهب بالمحضر إلى من يعمل بذلك المحضر ، ونحو ذلك مما يفعله أهل البدع من أهل الكتاب والمسلمين ، كما يفعله النصارى في كنائسهم ، وكما يفعله المبتدعون من المسلمين عند قبور الأنبياء والصالحين أو في مغيبهم ، فهذا مما علم بالاضطرار من دين الإسلام وبالنقل المتواتر ويأجماع المسلمين أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يشرع هذا لأئمة .

وكذلك الأنبياء قبله لم يشرعوا شيئاً من ذلك ، بل أهل الكتاب ليس عندهم عن الأنبياء نقل بذلك كما أن المسلمين ليس عندهم عن نبيهم نقل بذلك ، ولا فعل هذا أحد من أصحاب نبيهم والتابعين لهم بإحسان ، ولا استحب ذلك أحد من أئمة المسلمين ، لا الأئمة الأربعة ولا غيرهم ، ولا ذكر أحد من الأئمة لافي مناسك الحج ولا غيرها أنه يستحب لأحد أن يسأل النبي صلى الله عليه وسلم عند قبره أن يشفع له أو يدعو لأئمة أو يشكو إليه ما نزل بأئمة من مصائب الدنيا والدين .

وكان أصحابه يتلون بأنواع من البلاء بعد موته ، فتارة بالجذب ، وتارة بنقص الرزق ، وتارة بالخوف وقوة العدو ، وتارة بالذنوب والمعاصي ،

ولم يكن أحد منهم يأتي إلى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ولا قبر الخليل ولا قبر أحد من الأنبياء فيقول : نشكوا إليك جذب الزمان أو قوة العدو أو كثرة الذنوب ، ولا يقول : سل الله لنا أو لأمتك أن يرزقهم أو ينصرهم أو يغفر لهم ؛ بل هذا وما يشبهه من البدع المحدثه التي لم يستحبها أحد من أئمة المسلمين ، فليست واجبة ولا مستحبة باتفاق أئمة المسلمين .

وكل بدعة ليست واجبة ولا مستحبة فهي بدعة سيئة وهي ضلالة باتفاق المسلمين ، ومن قال في بعض البدع إنها بدعة حسنة فإنما ذلك إذا قام دليل شرعي أنها مستحبة ، فأما ما ليس بمستحب ولا واجب فلا يقول أحد من المسلمين إنها من الحسنات التي يتقرب بها إلى الله .

ومن تقرب إلى الله بما ليس من الحسنات المأمور بها أمر إيجاب ولا استحباب فهو ضال متبع للشيطان ، وسيله من سبيل الشيطان ، كما قال عبد الله ابن مسعود : خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطأ وخط خطوطاً عن يمينه وشماله ثم قال « هذا سبيل الله ، وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه » ثم قرأ : (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) .

فهذا أصل جامع يجب على كل من آمن بالله ورسوله أن يتبعه ، ولا يخالف السنة المعلومة ، وسبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، باتباع من خالف السنة والإجماع القديم ، لاسيما وليس معه في بدعته إمام من أئمة المسلمين ، ولا مجتهد يعتمد على قوله في الدين ، ولا من

يعتبر قوله في مسائل الإجماع والنزاع فلا ينخرم الإجماع بمخالفته ، ولا يتوقف الإجماع على موافقته .

ولو قدر أنه نازع في ذلك عالم مجتهد لكان مخصوصاً بما عليه السنة المتواترة وباتفاق الأئمة قبله ، فكيف إذا كان المنازع ليس من المجتهدين ولا معه دليل شرعي ، وإنما اتبع من تكلم في الدين بلا علم ، ويجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

بل إن النبي صلى الله عليه وسلم مع كونه لم يشرع هذا فليس هو واجباً ولا مستحباً ، فإنه قد حرّم ذلك وحرّم ما يفضى إليه كما حرّم اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد :

ففي صحيح مسلم عن جندب بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال قبل أن يموت بخمس « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك » . وفي الصحيحين عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال قبل موته : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذّر ما فعلوا ، قالت عائشة : ولولا ذلك لأبرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجداً .

واتخاذ المكان مسجداً هو أن يتخذ للصلوات الخمس وغيرها كما تبنى المساجد لذلك ، والمكان المتخذ مسجداً إنما يقصد فيه عبادة الله ودعاؤه لا دعاء المخلوقين .

فحرم صلى الله عليه وسلم أن تتخذ قبورهم مساجد بقصد الصلوات فيها كما تقصد المساجد وإن كان القاصد لذلك إنما يقصد عبادة الله وحده ، لأن ذلك

ذريعة إلا أن يقصدوا المسجد لأجل صاحب القبر ودعائه والدعاء به والدعاء عنده ، فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اتخاذ هذا المكان لعبادة الله وحده لئلا يتخذ ذريعة إلى الشرك بالله .

والفعل إذا كان يفضى إلى مفسدة وليس فيه مصلحة راجحة ينهى عنه ؛ كما نهى عن الصلاة في الأوقات الثلاثة لما في ذلك من المفسدة الراجحة : وهو التشبه بالمشركين الذى يفضى إلى الشرك . وليس في قصد الصلاة في تلك الأوقات مصلحة راجحة لإمكان التطوع في غير ذلك من الأوقات .

ولهذا تنازع العلماء في ذوات الأسباب فسوغها كثير منهم في هذه الأوقات ، وهو أظهر قولى العلماء لأن النهى إذا كان لسد الذريعة أيبح للمصلحة الراجحة ، وفعل ذوات الأسباب يحتاج إليه في هذه الأوقات ويفوت إذا لم يفعل فيها فتفوت مصلحتها ، فأبيحت لما فيها من المصلحة الراجحة ؛ بخلاف ما لا سبب له فإنه يمكن فعله في غير هذا الوقت فلا تفوت بالنهى عنه مصلحة راجحة ، وفيه مفسدة توجب النهى عنه .

فإذا كان نهيه عن الصلاة في هذه الأوقات لسد ذريعة الشرك لئلا يفضى ذلك إلى السجود للشمس ودعائها وسؤالها - كما يفعله أهل دعوة الشمس والقمر والكواكب الذين يدعونها ويسألونها - كان معلوما أن دعوة الشمس ، والسجود لها هو محرم في نفسه ، أعظم تحريما من الصلاة التى نهى عنها لئلا يفضى إلى دعاء الكواكب .

كذلك لما نهى عن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد - فنهى عن

قصدتها للصلاة عندها لثلا يفضى ذلك إلى دعائهم والسجود لهم - كان دعاؤهم
والسجود لهم أعظم تحريما من اتخاذ قبورهم مساجد .
ولهذا كانت زيارة قبور المسلمين على وجهين :
زيارة شرعية ، وزيارة بدعية .

فالزيارة الشرعية أن يكون مقصود الزائر الدعاء لليت ، كما يقصد بالصلاة على
جنازته الدعاء له . فالقيام على قبره من جنس الصلاة عليه ، قال الله تعالى في
المنافقين : (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ) فهي نهي
عن الصلاة عليهم والقيام على قبورهم لأنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم
كافرون . فلما نهى عن هذا وهذا لأجل هذه العلة وهي الكفر دل ذلك على
انتفاء هذا النهى عند انتفاء هذه العلة .

ودل تخصيصهم بالنهى على أن غيرهم يصلى عليه ويقام على قبره ، إذ لو كان
هذا غير مشروع فى حق أحد لم يخصوا بالنهى ولم يعلل ذلك بكفرهم . ولهذا
كانت الصلاة على الموتى من المؤمنين والقيام على قبورهم من السنة المتواترة ،
فكان النبي صلى الله عليه وسلم يصلى على موتى المسلمين وشرع ذلك لأئمة ،
وكان إذا دفن الرجل من أئمة يقوم على قبره ويقول « سلوا له التثبيت فإنه الآن
يسئل » رواه أبو داود وغيره .

وكان يزور قبور أهل البقيع والشهداء بأحد ، ويعلم أصحابه إذا زاروا القبور
أن يقول أحدهم « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن
شاء الله تعالى بكم لاحقون ، ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين ،
نسأل الله لنا ولكم العافية . اللهم لا تحرمننا أجرهم ولا تفتنا بعدهم » وفى صحيح

مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى المقبرة فقال « السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنا إن شاء الله بكم لا حقون » والآحاديث في ذلك صحيحة معروفة . فهذه الزيارة لقبور المؤمنين مقصودها الدعاء لهم .

وهذه غير الزيارة المشتركة التي تجوز في قبور الكفار كما ثبت في صحيح مسلم وأبي داود والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة أنه قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله ثم قال « استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي ، فاستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي فزوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة » فهذه الزيارة التي تنفع في تذكير الموت تشرع ولو كان المقبور كافراً ، بخلاف الزيارة التي يقصد بها الدعاء لليت فتلك لا تشرع إلا في حق المؤمنين . وأما الزيارة البدعية فهي التي يقصد بها أن يطلب من الميت الحوائج ، أو يطلب منه الدعاء والشفاعة ، أو يقصد الدعاء عند قبره لظن القاصد أن ذلك أجوب للدعاء . فالزيارة على هذه الوجوه كلها مبتدعة لم يشرعها النبي صلى الله عليه وسلم ولا فعلها الصحابة لا عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ولا عند غيره ، وهي من جنس الشرك وأسباب الشرك .

ولو قصد الصلاة عند قبور الأنبياء والصالحين من غير أن يقصد دعاءهم والدعاء عندهم مثل أن يتخذ قبورهم مساجد لكان ذلك محرماً منهيّاً عنه ولكان صاحبه متعرضاً لغضب الله ولعنته كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وقال « قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما صنعوا . وقال « إن من كان قبلكم كانوا

يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك .
فإذا كان هذا محرماً ، وهو سبب لسخط الرب ولعنته ، فكيف بمن يقصد
دعاء الميت والدعاء عنده وبه واعتقد أن ذلك من أسباب إجابة الدعوات ونيل
الطلبات وقضاء الحاجات ! ؟ وهذا كان أول أسباب الشرك في قوم نوح وعبادة
الأوثان في الناس ، قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على
الإسلام ، ثم ظهر الشرك بسبب تعظيم قبور صالحهم .

وقد استفاض عن ابن عباس وغيره في صحيح البخارى وفي كتب التفسير
وقصص الأنبياء في قوله تعالى : (وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا
وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) أن هؤلاء كانوا قوما صالحين في قوم نوح ،
فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم ، قال ابن عباس : ثم
صارت هذه الأوثان في قبائل العرب .

وقد أحدث قوم من ملاحدة الفلاسفة الدهرية للشرك شيئاً آخر ذكروه
في زيارة القبور كما ذكر ذلك ابن سينا ومن أخذ عنه كصاحب الكتب المضمون
بها وغيره ، ذكروا معنى الشفاعة على أصلهم ، فإنهم لا يقرون بأن الله خلق
السموات والأرض في ستة أيام ، ولا أنه يعلم الجزئيات ، ويسمع أصوات
عباده ، ويجب دعاءهم .

شفاعة الأنبياء والصالحين على أصلهم ليست كما يعرفه أهل الإيمان من
أنها دعاء يدعو به الرجل الصالح فيستجيب الله دعاءه ؛ كما أن ما يكون من إنزال
المطر باستسقايتهم ليس سببه عندهم إجابة دعائهم .

بل هم يزعمون أن المؤثر في حوادث العالم هو قوى النفس أو الحركات

الفلكية أو القوى الطبيعية ، فيقولون : إن الإنسان إذا أحب رجلاً صالحاً قد مات لا سيما إن زار قبره فإنه يحصل لروحه اتصال بروح ذلك الميت فيما يفيض على تلك الروح المفارقة من العقل الفعال عندهم أو النفس الفلكية ، يفيض على هذه الروح الزائرة المستشفعة من غير أن يعلم الله بشيء من ذلك — بل وقد لا تعلم الروح المستشفعة بها بذلك — ومثلوا ذلك بالشمس إذا قابلها مرآة فإنه يفيض على المرآة من شعاع الشمس ، ثم إذا قابل المرآة مرآة أخرى فاض عليها من تلك المرآة ، وإن قابل تلك المرآة حائط أو ماء فاض عليه من شعاع تلك المرآة ، فهكذا الشفاعة عندهم ، وعلى هذا الوجه ينتفع الزائر عندهم . وفي هذا القول من أنواع الكفر ما لا يخفى على من تدبره .

ولا ريب أن الأوثان يحصل عندها من الشياطين وخطابهم وتصرفهم ما هو من أسباب ضلال بني آدم ، وجعل القبور أوثاناً هو أول الشرك ، ولهذا يحصل عند القبور لبعض الناس من خطاب يسمعه وشخص يراه وتصرف عجيب ما يظن أنه من الميت وقد يكون من الجن والشياطين ، مثل أن يرى القبر قد انشق وخرج منه الميت وكله وعانقه ، وهذا يرى عند قبور الأنبياء وغيرهم ، وإنما هو شيطان ، فإن الشيطان يتصور بصور الإنس ويدعى أحدهم أنه النبي فلان أو الشيخ فلان ويكون كاذباً في ذلك .

وفي هذا الباب من الوقائع ما يضيق هذا الموضع عن ذكره ، وهي كثيرة جداً ، والجاهل يظن أن ذلك الذي رآه قد خرج من القبر وعانقه أو كله هو المقبور أو النبي أو الصالح وغيرهما ، والمؤمن العظيم يعلم أنه شيطان ويتبين ذلك بأمور :

(أحدها) : أن يقرأ آية الكرسي بصدق ، فإذا قرأها تغيب ذلك الشخص أو ساخ في الأرض أو احتجب ، ولو كان رجلاً صالحاً أو ملكاً أو جنياً مؤمناً لم تضره آية الكرسي وإنما تضر الشياطين ، كما ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة لما قال له الجني : اقرأ آية الكرسي إذا أويت إلى فراشك فإنه لا يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « صدقك وهو كذوب » .

و (منها) أن يستعيز بالله من الشياطين .

و (منها) أن يستعيز بالعوذ الشرعية ، فإن الشياطين كانت تعرض للأنبياء في حياتهم وتريد أن تؤذيهم وتفسد عبادتهم ، كما جاءت الجن إلى النبي صلى الله عليه وسلم بشعلة من النار تريد أن تحرقه فأتاه جبريل بالعوذة المعروفة التي تضمنها الحديث المروي عن أبي التياح أنه قال سأل رجل عبد الرحمن بن حبيش وكان شيخاً كبيراً قد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم : كيف صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كادته الشياطين ؟ قال : تحدت عليه من الشعاب والأودية ، وفيهم شيطان معه شعلة من نار يريد أن يحرق بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال فرعب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يا أحمد « قل » قال « ما أقول ؟ » قال قل « أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، من شر ما خلق وذراً وبرأ ، ومن شر ما ينزل من السماء ومن شر ما يعرج فيها ، ومن شر ما يخرج من الأرض ومن شر ما ينزل فيها ، ومن شر فتن الليل والنهار ، ومن شر كل طارق يطرق ، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمن » قال فطفئت نارهم وهزمهم الله عز وجل .

وثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن عفريتاً من الجن جاء يفتك في البارحة ليقطع على صلاتي ، فأمكنني الله عز وجل منه فدعته فأردت أن آخذه فأربطه إلى سارية من المسجد حتى تصبحوا فتظروا إليه ، ثم ذكرت قول سليمان عليه السلام (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي) (فرده الله تعالى خاسئاً » .

وعن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي فأتاه الشيطان فأخذه صلى الله عليه وسلم فصرعه فخنقه ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حتى وجدت برد لسانه على يدي ، ولولا دعوة سليمان لأصبح موثقاً حتى يراه الناس » أخرجه النسائي وإسناده على شرط البخاري كما ذكر ذلك أبو عبد الله المقدسي في مختاره الذي هو خير من صحيح الحاكم . وعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي صلاة الصبح وهو خلفه ، فالتبست عليه القراءة ، فلما فرغ من صلاته قال « لو رأيتموني وإبليس ، فأهويت يدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين إصبعي هاتين — الإبهام والتي تليها — ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة ، فمن استطاع أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل » رواه الإمام أحمد في مسنده وأبو داود في سننه .

وفي صحيح مسلم عن أبي الدرداء أنه قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي فسمعناه يقول « أعوذ بالله منك » ثم قال « ألعنك بلعنة الله ثلاثاً » وبسط يده كأنه يتناول شيئاً ، فلما فرغ من صلاته قلنا : يا رسول الله سمعناك تقول شيئاً في الصلاة لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك . قال « إن عدو الله

إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي ، فقلت : أعوذ بالله منك ثلاث مرات ، ثم قلت : ألعنك بلعنة الله التامة ، فاستأخر . ثم أردت أن أخذه ولولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به ولدان المدينة .

فإذا كانت الشياطين تأتي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لتؤذيهم وتفسد عبادتهم ، فيدفعهم الله تعالى بما يؤيد به الأنبياء من الدعاء والذكر والعبادة ومن الجهاد باليد ؛ فكيف من هو دون الأنبياء ؟ .

فالنبي صلى الله عليه وسلم قمع شياطين الإنس والجن بما أيده الله تعالى من أنواع العلوم والأعمال ومن أعظمها الصلاة والجهاد . وأكثر أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة والجهاد ، فمن كان متبعاً للأنبياء نصره الله سبحانه بما نصر به الأنبياء .

وأما من ابتدع ديناً لم يشرعه ، فترك ما أمروا به من عبادة الله وحده لا شريك له واتباع نبيه فيما شرعه لأئمة ، وابتدع الغلو في الأنبياء والصالحين والشرك بهم فإن هذا تتلعب به الشياطين ، قال تعالى : (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ) وقال تعالى : (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ) .

و (منها) أن يدعو الرائي بذلك ربه تبارك وتعالى ليبين له الحال .
و (منها) أن يقول لذلك الشخص : أنت فلان ؟ ويقسم عليه بالأقسام المعظمة ويقرأ عليه قوارع القرآن إلى غير ذلك من الأسباب التي تضر الشياطين . وهذا كما أن كثيراً من العباد يرى الكعبة تطوف به ، ويرى عرشاً عظيماً

وعليه صورة عظيمة ، ويرى أشخاصاً تصعد وتنزل فيظنها الملائكة ويظن أن تلك الصورة هي الله - تعالى وتقدس - ويكون ذلك شيطانا .

وقد جرت هذه القصة لغير واحد من الناس ، فمنهم من عصمه الله وعرف أنه الشيطان كالشيخ عبد القادر في حكايته المشهورة حيث قال : كنت مرة في العبادة فرأيت عرشا عظيما وعليه نور ، فقال لي : يا عبد القادر ! أنا ربك وقد حللت لك ما حرمت على غيرك . قال : فقلت له أنت الله الذي لا إله إلا هو ؟ اخسأ يا عدو الله . قال : فتمزق ذلك النور وصار ظلمة ، وقال يا عبد القادر نجوت مني بفقهك في دينك وعلمك وبمنازلاتك في أحوالك . لقد فتنت بهذه القصة سبعين رجلا . فقليل له : كيف علمت أنه الشيطان ؟ قال بقوله لي « حللت لك ما حرمت على غيرك » وقد علمت أن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم لا تنسخ ولا تبدل ، ولأنه قال أنا ربك ، ولم يقدر أن يقول أنا الله الذي لا إله إلا أنا .

ومن هؤلاء من اعتقد أن المرئي هو الله ، وصار هو وأصحابه يعتقدون أنهم يرون الله تعالى في اليقظة ، ومستندهم ما شاهدوه . وهم صادقون فيما يخبرون به ولكن لم يعلموا أن ذلك هو الشيطان .

وهذا قد وقع كثيراً لطوائف من جهال العباد ، يظن أحدهم أنه يرى الله تعالى بعينه في الدنيا لأن كثيراً منهم رأى ما ظن أنه الله وإنما هو شيطان . وكثير منهم رأى من ظن أنه نبي أو رجل صالح أو الخضر وكان شيطانا . وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من رأى في

المنام فقد رأى حقاً فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي « فهذا في رؤية المنام لأن الرؤية في المنام تكون حقاً وتكون من الشيطان فمنعه الله أن يتمثل به في المنام ، وأما في اليقظة فلا يراه أحد بعينه في الدنيا .

فمن ظن أن المرئى هو الميت فإنما أتى من جهله ، ولهذا لم يقع مثل هذا لأحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان .

وبعض من رأى هذا — أو صدق من قال إنه رآه — اعتقد أن الشخص الواحد يكون بمكانين في حالة واحدة بخالف صريح المعقول .

ومنهم من يقول هذه رقيقة ذلك المرئى أو هذه روحانيته أو هذا معناه تشكّل ، ولا يعرفون أنه جنى تصور بصورته .

ومنهم من يظن أنه ملك ، والملك يتميز عن الجنى بأمر كثيرة ، والجن فيهم الكفار والفساق والجهال وفيهم المؤمنون المتبعون لمحمد صلى الله عليه وسلم تسليماً ، فكثير ممن لم يعرف أن هؤلاء جن وشياطين يعتقدهم ملائكة .

وكذلك الذين يدعون الكواكب وغيرها من الأوثان تنزل على أحدهم روح يقول هي روحانية الكواكب ويظن بعضهم أنه من الملائكة وإنما هو من الجن والشياطين يغوون المشركين .

والشياطين يوالون من يفعل ما يحبونه من الشرك والفسوق والعصيان .

فتارة يخبرونه ببعض الأمور الغائبة ليكشف بها .

وتارة يؤذون من يريد أذاه بقتل وتمريض ونحو ذلك .

وتارة يجلبون له من يريده من الإنس .

وتارة يسرقون له ما يسرقونه من أموال الناس من نقد وطعام وثياب وغير ذلك ، فيعتقد أنه من كرامات الأولياء وإنما يكون مسروقاً .

وتارة يحملونه في الهواء فيذهبون به إلى مكان بعيد . فمنهم من يذهبون به إلى مكة عشية عرفة ويعودون به فيعتقد هذا كرامة ، مع أنه لم يحج حج المسلمين : لا أحرم ولا لبي ولا طاف بالبيت ولا بين الصفا والمروة ، ومعلوم أن هذا من أعظم الضلال .

ومنهم من يذهب إلى مكة ليطوف بالبيت من غير عمرة شرعية فلا يحرم إذا حاذى الميقات . ومعلوم أن من أراد نسكاً بمكة لم يكن له أن يجاوز الميقات إلا محرماً ولو قصد لها لتجارة أو لزيارة قريب له أو طلب علم كان مأموراً أيضاً بالإحرام من الميقات ، وهل ذلك واجب أو مستحب ؟ فيه قولان مشهوران للعلماء . وهذا باب واسع .

ومنه السحر والكهانة ، وقد بسط الكلام على هذا في غير هذا الموضع . وعند المشركين عباد الأوثان ومن ضاهاهم من النصارى ومبتدعة هذه الأمة في ذلك من الحكايات ما يطول وصفه ، فإنه ما من أحد يعتاد دعاء الميت والاستغاثة به نياً كان أو غير نبي إلا وقد بلغه من ذلك ما كان من أسباب ضلاله ؛ كما أن الذين يدعونهم في مغيبهم ويستغيثون بهم فيرون من يكون في صورتهم أو يظنون أنه في صورتهم ويقول أنا فلان ويكلمهم ويقضى بعض حوائجهم ، فإنهم يظنون أن الميت المستغاث به هو الذي كلمهم وقضى مطلوبهم وإنما هو من الجن والشياطين .

ومنهم من يقول هو ملك من الملائكة ، والملائكة لاتعين المشركين وإنما هم شياطين أضلوهم عن سبيل الله .

وفي مواضع الشرك من الوقائع والحكايات التي يعرفها من هنالك ومن وقعت له ما يطول وصفه .

وأهل الجاهلية فيها نوعان :

نوع يكذب بذلك كله .

ونوع يعتقد ذلك كرامات لأولياء الله .

فالأول يقول إنما هذا خيال في أنفسهم لا حقيقة له في الخارج ، فإذا قالوا ذلك لجماعة بعد جماعة فمن رأى ذلك وعينه موجوداً أو تواتر عنده ذلك عمن رآه موجوداً في الخارج وأخبره به من لا يرتاب في صدقه كان هذا من أعظم أسباب ثبات هؤلاء المشركين المتدعين المشاهدين لذلك ، والعارفين به بالأخبار الصادقة .

ثم هؤلاء المكذبون لذلك متى عاينوا بعض ذلك خضعوا لمن حصل له ذلك وانقادوا له واعتقدوا أنه من أولياء الله ، مع كونهم يعلمون أنه لا يؤدي فرائض الله حتى ولا الصلوات الخمس ، ولا يجتنب محارم الله ؛ لا الفواحش ولا الظلم ؛ بل يكون من أبعد الناس عن الإيمان والتقوى التي وصف الله بها أوليائه في قوله تعالى : (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) .

فيرون من هو من أبعد الناس عن الإيمان والتقوى له من المكشفات

والتصرفات الخارقات ما يعتقدون أنه من كرامات أولياء الله المتقين .

فمنهم من يرتد عن الإسلام وينقلب على عقبيه ، ويعتقد فيمن لا يصلي ، بل ولا يؤمن بالرسول ؛ بل يسب الرسل ، ويتنقصهم ، أنه من أعظم أولياء الله المتقين .

ومنهم من يبقى حائراً متردداً شاكاً مرتاباً يقدم إلى الكفر رجلاً وإلى الإسلام أخرى ، وربما كان إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان .

وسبب ذلك أنهم استدلوا على الولاية بما لا يدل عليها ، فإن الكفار والمشركين والسحرة والكهان معهم من الشياطين من يفعل بهم أضعاف أضعاف ذلك قال تعالى : (هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ) .

وهؤلاء لا بد أن يكون فيهم كذب وفيهم مخالفة للشرع ، ففيهم من الإثم والإفك بحسب ما فارقوا أمر الله ونهيه الذي بعث به نبيه صلى الله عليه وسلم . وتلك الأحوال الشيطانية نتيجة ضلالهم وشركهم وبدعتهم وجهلهم وكفرهم وهي دلالة وعلامة على ذلك .

والجاهل الضال يظن أنها نتيجة إيمانهم وولايتهم لله تعالى ، وأنها علامة ودلالة على إيمانهم وولايتهم لله سبحانه ، وذلك أنه لم يكن عنده فرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان كما قد تكلمنا على ذلك في مسألة (الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) ، ولم يعلم أن هذه الأحوال التي جعلها دليلاً على الولاية تكون للكفار - من المشركين وأهل الكتاب - أعظم مما تكون للنتسبين إلى الإسلام ، والدليل مستلزم للمدلول محتص به لا يوجد بدون مدلوله ، فإذا

وجدت للكفار والمشركين وأهل الكتاب لم تكن مستلزمة للإيمان فضلا عن
الولاية ولا كانت مختصة بذلك ، فامتنع أن تكون دليلا عليه .

وأولياء الله هم المؤمنون المتقون ، وكراماتهم ثمرة إيمانهم وتقواهم لا ثمرة
الشرك والبدعة والفسق .

وأكابر الأولياء إنما يستعملون هذه الكرامات بحجة للدين أو لحاجة
للسلبيين .

والمقتصدون قد يستعملونها في المباحات .

وأما من استعان بها في المعاصي فهو ظالم لنفسه ، متعدد حدربه ، وإن كان
سيها الإيمان والتقوى . فمن جاهد العدو فغنم غنيمة فأنفقها في طاعة الشيطان
فهذا المال وإن ناله بسبب عمل صالح فإذا أنفقته في طاعة الشيطان كان وبالا
عليه ، فكيف إذا كان سبب الخوارق الكفر والفسوق والعصيان وهي تدعو
إلى كفر آخر وفسوق وعصيان .

ولهذا كان أئمة هؤلاء معترفين بأن أكثرهم يموتون على غير الإسلام .
ولبسطة هذه الأمور موضع آخر .

والمقصود هنا أن من أعظم أسباب ضلال المشركين ما يرونه أو يسمعون
عند الأوثان كإخبار عن غائب أو أمر يتضمن قضاء حاجة ونحو ذلك ؛ فإذا
شاهد أحدهم القبر انشق وخرج منه شيخ بهي عانقه أو كلمه ظن أن ذلك هو
النبي المقبور ، أو الشيخ المقبور ، والقبر لم ينشق ؛ وإنما الشيطان مثل له ذلك ،

كما يمثل لأحدهم أن الحائط انشق وأنه خرج منه صورة إنسان ويكون هو الشيطان تمثل له في صورة إنسان وأراه أنه خرج من الحائط .

ومن هؤلاء من يقول لذلك الشخص الذي رآه قد خرج من القبر : نحن لا نبقى في قبورنا ، بل من حين يقبر أحدا يخرج من قبره ويمشى بين الناس .
ومنهم من يرى ذلك الميت في الجنازة يمشى ويأخذ بيده ، إلى أنواع أخرى معروفة عند من يعرفها .

وأهل الضلال إما أن يكذبوا بها وإما أن يظنوها من كرامات أولياء الله ، ويظنون أن ذلك الشخص هو نفس النبي أو الرجل الصالح أو ملك على صورته وربما قالوا هذه روحانيته أو رقيقته أو سره أو مثاله أو روحه تجسدت ، حتى قد يكون من يرى ذلك الشخص في مكانين فيظن أن الجسم الواحد يكون في الساعة الواحدة في مكانين ، ولا يعلم أن ذلك حين تصور بصورته : ليس هو ذلك الإنسى .

وهذا ونحوه مما يبين أن الذين يدعون الأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم وغير قبورهم : هم من المشركين الذين يدعون غير الله ، كالذين يدعون الكواكب والذين اتخذوا الملائكة والنبين أرباباً ، قال تعالى : (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)
وقال تعالى : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا

تَحْوِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ
وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا)

وقال تعالى : (قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُوكُمْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي
السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ
عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) .

ومثل هذا كثير في القرآن : ينهى أن يدعى غير الله لا من الملائكة ولا
الأنبياء ولا غيرهم ؛ فإن هذا شرك أو ذريعة إلى الشرك ؛ بخلاف ما يطلب من
أحدهم في حياته من الدعاء والشفاعة فإنه لا يفضى إلى ذلك ؛ فإن أحداً من
الأنبياء والصالحين لم يعبد في حياته بحضرته ، فإنه ينهى من يفعل ذلك ؛ بخلاف
دعائهم بعد موتهم فإن ذلك ذريعة إلى الشرك بهم ، وكذلك دعاؤهم في مغيبهم
هو ذريعة إلى الشرك .

فمن رأى نبياً أو ملكاً من الملائكة وقال له « ادع لى » لم يفض ذلك إلى
الشرك به ، بخلاف من دعاه في مغيبه فإن ذلك يفضى إلى الشرك به كما قد وقع ،
فإن الغائب والميت لا ينهى من يشرك ، بل إذا تعلقت القلوب بدعائه وشفاعته
أفضى ذلك إلى الشرك به فدعى وقصد مكان قبره أو تمثاله أو غير ذلك كما قد
وقع فيه المشركون ومن ضاهاهم من أهل الكتاب ومبتدعة المسلمين .

ومعلوم أن الملائكة تدعوا للمؤمنين وتستغفر لهم كما قال تعالى :

(الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ

لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا
سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ
مِنْ آبَائِهِمْ وَازْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ
وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (وقال تعالى :
(تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ
لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ أَلَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ
حَفِظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ) .

فالملائكة يستغفرون للمؤمنين من غير أن يسألهم أحد . وكذلك ما روى
أن النبي صلى الله عليه وسلم أو غيره من الأنبياء والصالحين يدعوا ويشفع للأخيار
من أمته هو من هذا الجنس ، هم يفعلون ما أذن الله لهم فيه بدون سؤال أحد .
وإذا لم يشرع دعاء الملائكة لم يشرع دعاء من مات من الأنبياء والصالحين
ولا أن نطلب منهم الدعاء والشفاعة وإن كانوا يدعون ويشفعون ، لوجهين :
أحدهما : أن ما أمرهم الله به من ذلك هم يفعلونه وإن لم يطلب
منهم ، وما لم يؤمروا به لا يفعلونه ولو طلب منهم ، فلا فائدة في
الطلب منهم .

الثاني : أن دعاءهم وطلب الشفاعة منهم في هذه الحال يفضي إلى الشرك
بهم ففيه هذه المفسدة فلو قدر أن فيه مصلحة لكانت هذه المفسدة راجحة ،
فكيف ولا مصلحة فيه ، بخلاف الطلب منهم في حياتهم وحضورهم فإنه لا مفسدة

فيه ، فإنهم ينهون عن الشرك بهم . بل فيه منفعة ، وهو أنهم يثابون ويؤجرون على ما يفعلونه حينئذ من نفع الخلق كلهم ، فإنهم في دار العمل والتكليف ، وشفاعتهم في الآخرة فيها إظهار كرامة الله لهم يوم القيامة .

وأصل سؤال الخلق الحاجات الدنيوية التي لا يجب عليهم فعلها ليس واجبا على السائل ولا مستحبا ، بل المأمور به سؤال الله تعالى والرغبة إليه والتوكل عليه . وسؤال الخلق في الأصل محرم ، لكنه أيسر للضرورة ، وتركه توكلا على الله أفضل ، قال تعالى : (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب) أي ارجب إلى الله لا إلى غيره ، وقال تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ) فجعل الإيتاء لله والرسول لقوله تعالى : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) فأمرهم بإرضاء الله ورسوله .

وأما في الحسب فأمرهم أن يقولوا (حَسْبُنَا اللَّهُ) لا يقولوا : حسبنا الله ورسوله . ويقولوا : (إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ) لم يأمرهم أن يقولوا : إنا لله ورسوله راغبون ، فالرغبة إلى الله وحده كما قال تعالى في الآية الأخرى : (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) فجعل الطاعة لله والرسول ، وجعل الخشية والتقوى لله وحده .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس « يا غلام ! إني معلمك كلمات : احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، جف القلم بما

أنت لاق ، فلو جهدت الخليفة على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك ،
فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا مع اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فإن في الصبر على
ماتكره خيراً كثيراً » ، وهذا الحديث معروف مشهور ، ولكن قد يروى مختصراً .

وقوله « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » هو من أصح
ما روى عنه . وفي المسند لأحمد أن أبا بكر الصديق كان يسقط السوط من يده
فلا يقول لأحد ناولني إياه ، ويقول : إن خيلي أمرني أن لا أسأل الناس شيئاً .
وفي صحيح مسلم عن عوف بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم بايع طائفة
من أصحابه وأسر إليهم كلمة خفية : أن لا تسألوا الناس شيئاً . قال عوف : فقد
رأيت بعض أولئك نفر يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد ناولني إياه .

وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « يدخل من أمتي الجنة
سبعون ألفاً بغير حساب » ، وقال : « هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا
يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون » فمدح هؤلاء بأنهم لا يسترقون ، أى لا يطلبون
من أحد أن يرقىهم . والرقية من جنس الدعاء فلا يطلبون من أحد ذلك .

وقد روى فيه « ولا يرقون » وهو غلط ، فإن رقيهم لغيرهم ولأنفسهم
حسنة ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يرقى نفسه وغيره ولم يكن يسترقى ،
فإن رقيته نفسه وغيره من جنس الدعاء لنفسه ولغيره ، وهذا مأمور به ،
فإن الأنبياء كلهم سألوا الله ودعوه كما ذكر الله ذلك في قصة آدم وإبراهيم
وموسى وغيرهم .

وما يروى أن الخليل لما ألقى في المنجنيق قال له جبريل : سل ، قال « حسبي من سؤالي عليه بحالي » ليس له إسناد معروف وهو باطل ، بل الذي ثبت في الصحيح عن ابن عباس أنه قال « حسبي الله ونعم الوكيل » قال ابن عباس : قالها إبراهيم حين ألقى في النار ، وقالها محمد حين : (قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ) وقد روى أن جبريل قال : هل لك من حاجة ؟ قال « أما إليك فلا » وقد ذكر هذا الإمام أحمد وغيره .

وأما سؤال الخليل لربه عز وجل فهذا مذكور في القرآن في غير موضع فكيف يقول حسبي من سؤالي عليه بحالي ، والله بكل شيء عليم ، وقد أمر العباد بأن يعبدوه ويتوكلوا عليه ويسألوه ، لأنه سبحانه جعل هذه الأمور أسباباً لما يرتبه عليها من إثابة العابدين ، وإجابة السائلين . وهو سبحانه يعلم الأشياء على ما هي عليه ، فعلبه بأن هذا محتاج أو هذا مذنب لا ينافي أن يأمر هذا بالتوبة والاستغفار ، ويأمر هذا بالدعاء وغيره من الأسباب التي تقضى بها حاجته ، كما يأمر هذا بالعبادة والطاعة التي بها ينال كرامته .

ولكن العبد قد يكون مأموراً في بعض الأوقات بما هو أفضل من الدعاء كما روى في الحديث « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » وفي الترمذى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من شغله قراءة القرآن عن ذكرى ومسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » قال الترمذى حديث حسن غريب .

وأفضل العبادات البدنية الصلاة ، وفيها القراءة والذكر والدعاء ، وكل

واحد في موطنه مأمور به ، ففي القيام بعد الاستفتاح يقرأ القرآن ، وفي الركوع والسجود ينهي عن قراءة القرآن ويؤمر بالتسبيح والذكر وفي آخرها يؤمر بالدعاء كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو في آخر الصلاة ويأمر بذلك والدعاء في السجود حسن مأمور به ويجوز الدعاء في القيام أيضاً وفي الركوع ، وإن كان جنس القراءة والذكر أفضل فالمقصود أن سؤال العبد لربه السؤال المشروع حسن مأمور به .

وقد سأل الخليل وغيره ، قال تعالى عنه : (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي

بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ * رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نَخْفِي وَمَا نَعْلَنُ وَمَا نَخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ * رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) وقال تعالى : (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

وكذلك دعاء المسلم لأخيه حسن مأمور به ، وقد ثبت في الصحيح

عن أبي الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من رجل يدعو

لأخيه بظهر الغيب إلا وكل الله به ملكا كلما دعا لأخيه بدعوة قال الملك الموكل به : آمين ولك بمثله « أى بمثل ما دعوت لأخيك به .

وأما سؤال المخلوق المخلوق أن يقضى حاجة نفسه أو يدعو له فلم يؤمر به ؛ بخلاف سؤال العلم فإن الله أمر بسؤال العلم كما فى قوله تعالى : (فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) ، وقال تعالى : (فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ) ، وقال تعالى : (وَسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ) وهذا لأن العلم يجب بذله ، فمن سئل عن علم يعلمه فكتمه أجمه الله بلجام من نار يوم القيامة . وهو يزكو على التعليم ، لا ينقص بالتعليم كما تنقص الأموال بالبذل ، ولهذا يشبه بالمصباح .

وكذلك من له عند غيره حق من عين أو دين كالأمانات مثل الوديعة والمضاربة ، لصاحبها أن يسألها ممن هى عنده ، وكذلك مال الفىء وغيره من الأموال المشتركة التى يتولى قسمتها ولى الأمر ، للرجل أن يطلب حقه منه كما يطلب حقه من الوقف والميراث والوصية ؛ لأن المستولى يجب عليه أداء الحق إلى مستحقه .

ومن هذا الباب سؤال النفقة لمن تجب عليه ، وسؤال المسافر الضيافة لمن تجب عليه كما استطعم موسى والخضر أهل القرية . وكذلك الغريم له أن يطلب دينه ممن هو عليه . وكل واحد من المتعاقدين له أن يسأل الآخر أداء حقه إليه :

فالبائع يسأل الثمن ، والمشتري يسأل المبيع . ومن هذا الباب قوله تعالى :
(وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ) .

ومن السؤال مالا يكون مأموراً به ، والمستول مأمور بإجابة السائل . قال
تعالى : (وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ) وقال تعالى : (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ *
لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) وقال تعالى : (فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ) ومنه الحديث
« إن أحدم ليسألني المسألة فيخرج بها يتأبطها نارا » وقوله « اقطعوا عني لسان هذا »

وقد يكون السؤال منهيًا عنه نهى تحريم أو تنزيه ، وإن كان المستول
مأموراً بإجابة سؤاله . فالنبي صلى الله عليه وسلم كان من كماله أن يعطى السائل ،
وهذا في حقه من فضائله ومناقبه ، وهو واجب أو مستحب ، وإن كان نفس
سؤال السائل منهيًا عنه . ولهذا لم يعرف قط أن الصديق ونحوه من أكابر
الصحابة سألوه شيئاً من ذلك ، ولا سألوه أن يدعو لهم وإن كانوا يطلبون منه
أن يدعو للمسلمين ، كما أشار عليه عمر في بعض مغازيه لما استأذنه في نحر
بعض ظهرهم فقال عمر : يا رسول الله كيف بنا إذا لقينا العدو غداً رجالاً جوعاً
ولكن إن رأيت أن تدعو الناس يبقايا أزوادهم فتجمعها ثم تدعو الله بالبركة
فإن الله يبارك لنا في دعوتك . وفي رواية : فإن الله سيغنيئنا بدعائك . وإنما كان
سأله ذلك بعض المسلمين كما سأله الأعمى أن يدعو الله له ليرد عليه بصره ، وكما سأله
أم سليم أن يدعو الله لخادمه أنس ، وكما سأله أبو هريرة أن يدعو الله أن يحبه
وأمه إلى عباده المؤمنين ، ونحو ذلك .

وأما الصديق فقد قال الله فيه وفي مثله : (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي

مَالَهُ يُتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى)
وقد ثبت في الصحاح عنه أنه قال صلى الله عليه وسلم « ان آمن الناس علينا في
صحبه وذات يده أبو بكر ، ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً
لاتخذت أبا بكر خليلاً » فلم يكن في الصحابة أعظم منه من الصديق في
نفسه وماله .

وكان أبو بكر يعمل هذا ابتغاء وجه ربه الأعلى لا يطلب جزاء من مخلوق ،
فقال تعالى (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ
نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى) فلم يكن لأحد عند الصديق
نعمة تجزى ، فإنه كان مستغنيا بكسبه وماله عن كل أحد ، والنبي صلى الله عليه
وسلم كان له على الصديق وغيره نعمة الإيمان والعلم ، وتلك النعمة لا تجزى ،
فإن أجر الرسول فيها على الله كما قال تعالى : (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ
إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

وأما على وزيد وغيرهما فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان له عندهم نعمة
تجزى ، فإن زيدا كان مولاه فأعتقه . قال تعالى : (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ
وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ) وعلى كان في عيال النبي صلى الله عليه وسلم
لجذب أصاب أهل مكة فأراد النبي صلى الله عليه وسلم والعباس التخفيف عن
أبي طالب من عياله ، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم علياً إلى عياله وأخذ العباس
جعفراً إلى عياله ، وهذا مبسوط في موضع آخر .

والمقصود هنا أن الصديق كان آمن الناس في صحبه وذات يده لأفضل

الخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لكونه كان ينفق ماله في سبيل الله كاشترائه
المعذبين . ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم محتاجاً في خاصة نفسه لا إلى أبي بكر
ولا غيره ، بل لما قال له في سفر الهجرة : إن عندي راكبتين فخذ إحداهما ،
فقال النبي صلى الله عليه وسلم « بالتمن » فهو أفضل صديق لأفضل نبي ، وكان
من كماله أنه لا يعمل ما يعمل إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى لا يطلب جزاء من أحد
من الخلق ، لا الملائكة ولا الأنبياء ولا غيرهم .

ومن الجزاء أن يطلب الدعاء ، قال تعالى عمن أثني عليهم :

(إِنَّمَا نَطْعُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا) والدعاء جزاء كما في الحديث « من
أسدى إليكم معروفًا فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئونه به فادعوا له حتى تلبوا
أن قد كافأتموه » . وكانت عائشة إذا أرسلت إلى قوم بصدقة تقول للرسول :
اسمع ما يدعون به لنا حتى ندعو لهم بمثل ما دعوا لنا ويقتى أجرنا على الله .

وقال بعض السلف : إذا قال لك السائل : بارك الله فيك ، فقل : وفيك
بارك الله ، فمن عمل خيراً مع المخلوقين سواء كان المخلوق نبياً أو رجلاً صالحاً
أو ملكاً من الملوك أو غنياً من الأغنياء فهذا العامل للخير مأمور بأن يفعل ذلك
خالصاً لله يبتغي به وجه الله ، لا يطلب به من المخلوق جزاء ولا دعاء ولا غيره ،
لا من نبي ولا رجل صالح ولا من الملائكة ، فإن الله أمر العباد كلهم أن يعبدوه
مخلصين له الدين .

وهذا هو دين الإسلام الذي بعث الله به الأولين والآخرين من الرسل

فلا يقبل من أحد ديناً غيره ، قال تعالى : (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ)
وكان نوح وإبراهيم وموسى
والمسيح وسائر أتباع الأنبياء عليهم السلام على الإسلام ، قال نوح :
(وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ) وقال عن إبراهيم :

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي
الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى
بِهَآ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)
(وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمُ إِن كُنْتُمْ ءَامِنُومٌ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ) وقالت السحرة :
(رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ) وقال يوسف : (تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي
بِالصَّالِحِينَ) ، وقال تعالى : (إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ
الَّذِينَ اسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا) وقال عن الحواريين : (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ
أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامِنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) .

ودين الإسلام مبنى على أصليين : أن نعبد الله وحده لا شريك له ، وأن
نعبد به بما شرعه من الدين وهو ما أمرت به الرسل أمر إيجاب أو أمر استحباب ،
فيعبد فى كل زمان بما أمر به فى ذلك الزمان . فلما كانت شريعة التوراة محكمة
كان العاملون بها مسلمين ، وكذلك شريعة الإنجيل .

وكذلك فى أول الإسلام لما كان النبى صلى الله عليه وسلم يصلى إلى بيت
المقدس كانت صلاته إليه من الإسلام ، ولما أمر بالتوجه إلى الكعبة كانت
الصلاة إليها من الإسلام ، والعدول عنها إلى الصخرة خروجاً عن دين

الإسلام . فكل من لم يعبد الله بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم بما شرعه الله من واجب ومستحب فليس بمسلم .

ولا بد في جميع الواجبات والمستحبات أن تكون خالصة لله رب العالمين ؛ كما قال تعالى : (وَمَا نَفَرَ قُلُوبُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ * وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ) وقال تعالى : (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ) .

فكل ما يفعله المسلم من القرب الواجبة والمستحبة ، كالإيمان بالله ورسوله والعبادات البدنية والمالية ومحبة الله ورسوله والإحسان إلى عباد الله بالنفع والمال هو مأمور بأن يفعله خالصاً لله رب العالمين ، لا يطلب من مخلوق عليه جزاء : لا دعاء ولا غير دعاء ، فهذا مما لا يسوغ أن يطلب عليه جزاء ، لا دعاء ولا غيره .

وأما سؤال المخلوق غير هذا فلا يجب بل ولا يستحب إلا في بعض المواضع ، ويكون المسئول مأموراً بالإعطاء قبل السؤال ، وإذا كان المؤمنون ليسوا مأمورين بسؤال المخلوقين فالرسول أولى بذلك صلى الله عليه وسلم ، فإنه أجل قدراً وأغنى بالله عن غيره . فإن سؤال المخلوقين فيه ثلاث مفسدات :

مفسدة الافتقار إلى غير الله وهي من نوع الشرك .

ومفسدة إيذاء المسئول وهي من نوع ظلم الخلق .

وفيه ذل لغير الله وهو ظلم للنفس . فهو مشتمل على أنواع الظلم الثلاثة ،
وقد نزه الله رسوله عن ذلك كله .

وحيث أمر الأمة بالدعاء له فذاك من باب أمرهم بما ينتفعون به كما يأمرهم
بسائر الواجبات والمستحبات ، وإن كان هو ينتفع بدعائهم له فهو أيضاً ينتفع
بما يأمرهم به من العبادات والأعمال الصالحة ، فإنه ثبت عنه في الصحيح أنه قال :
« من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من
أجورهم شيء » ، ومحمد صلى الله عليه وسلم هو الداعي إلى ما تفعله أمته من
الخيرات ، فما يفعلونه له فيه من الأجر مثل أجورهم من غير أن ينقص
من أجورهم شيء .

ولهذا لم تجر عادة السلف بأن يهدوا إليه ثواب الأعمال ، لأن له مثل
ثواب أعمالهم بدون الإهداء من غير أن ينقص من ثوابهم شيء . وليس كذلك
الأبوان ، فإنه ليس كل ما يفعله الولد يكون للوالد مثل أجره ، وإنما ينتفع
الوالد بدعاء الولد ونحوه مما يعود نفعه إلى الأب ، كما قال في الحديث الصحيح :
« إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، وعلم ينتفع به ،
وولد صالح يدعو له » . فالنبي صلى الله عليه وسلم — فيما يطلبه من أمته من
الدعاء — طلبه طلب أمر وترغيب ليس بطلب سؤال . فمن ذلك أمره لنا
بالصلاة والسلام عليه ، فهذا أمر الله به في القرآن بقوله : (صَلُّوا عَلَيْهِ
وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) .

والأحاديث عنه في الصلاة والسلام معروفة .

ومن ذلك أمره بطلب الوسيلة والفضيلة والمقام المحمود كما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على ، فإنه من صلى على مرة صلى الله عليه عشرآ ، ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها درجة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد ، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه شفاعتى يوم القيامة » ، وفى صحيح البخارى عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من قال حين سمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة ، وابعثه مقاماً محموداً الذى وعدته إنك لا تخلف الميعاد . حلت له شفاعتى يوم القيامة » فقد رغب المسلمين فى أن يسألوا الله له الوسيلة ، وبين أن من سألها له حلت له شفاعته يوم القيامة ، كما أنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه عشرآ ، فإن الجزاء من جنس العمل .

ومن هذا الباب الحديث الذى رواه أحمد وأبو داود والترمذى وصححه وابن ماجه أن عمر بن الخطاب استأذن النبي صلى الله عليه وسلم فى العمرة فأذن له ثم قال « لا تنسنا يا أخى من دعائك » فطلب النبي صلى الله عليه وسلم من عمر أن يدعو له كطلبه أن يصلى عليه ، ويسلم عليه ، وأن يسأل الله له الوسيلة والدرجة الرفيعة ، وهو كطلبه أن يعمل سائر الصالحات ، فمقصوده نفع المطلوب منه والإحسان إليه . وهو صلى الله عليه وسلم أيضاً ينتفع بتعليمهم الخير وأمرهم به ، وينتفع أيضاً بالخير الذى يفعلونه من الأعمال الصالحة ومن دعائهم له .

ومن هذا الباب قول القائل : إني أكثر الصلاة عليك ، فكم أجعل لك من صلاتي ؟ قال « ما شئت » قال : الربع ؟ قال : « ما شئت ، وإن زدت فهو خير لك » قال : النصف ؟ قال « ما شئت ، وإن زدت فهو خير لك » قال : الثلثين ؟ قال « ما شئت ، وإن زدت فهو خير لك » قال : أجعل لك صلاتي كلها ؟ قال « إذا تكفي همك ويغفر لك ذنبك » رواه أحمد في مسنده والترمذي وغيرهما .

وقد بسط الكلام عليه في (جواب المسائل البغدادية) . فإن هذا كان له دعاء يدعو به ، فإذا جعل مكان دعائه الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم كفاه الله ما أهمه من أمر دنياه وآخرته ، فإنه كلما صلى عليه مرة صلى الله عليه عشرا ، وهو لو دعا لآحاد المؤمنين ل قالت الملائكة « آمين ، ولك بمثله » فدعاؤه للنبي صلى الله عليه وسلم أولى بذلك .

ومن قال لغيره من الناس : ادع لي - أو لنا - وقصده أن ينتفع ذلك المأمور بالدعاء وينتفع هو أيضا بأمره ويفعل ذلك المأمور به كما يأمره بسائر فعل الخير فهو مقتد بالنبي صلى الله عليه وسلم مؤتم به ليس هذا من السؤال المرجوح .

وأما إن لم يكن مقصوده إلا طلب حاجته لم يقصد نفع ذلك والإحسان إليه ، فهذا ليس من المقتدين بالرسول المؤتمين به في ذلك ، بل هذا هو من السؤال المرجوح الذي تركه إلى الرغبة إلى الله ورسوله أفضل من الرغبة إلى المخلوق وسؤاله . وهذا كله من سؤال الأحياء السؤال الجائز المشروع .

وأما سؤال الميت فليس بمشروع ، لا واجب ولا مستحب ؛ بل ولا مباح ؛ ولم يفعل هذا قط أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا استحب ذلك أحد من سلف الأمة ، لأن ذلك فيه مفسدة راجحة وليس فيه مصلحة راجحة ، والشرعية إنما تأمر بالمصالح الخالصة أو الراجحة ، وهذا ليس فيه مصلحة راجحة بل إما أن يكون مفسدة محضة أو مفسدة راجحة ، وكلاهما غير مشروع .

فقد تبين أن ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم من طلب الدعاء من غيره : هو من باب الإحسان إلى الناس الذي هو واجب أو مستحب .

وكذلك ما أمر به من الصلاة على الجنائز ومن زيارة قبور المؤمنين والسلام عليهم والدعاء لهم هو من باب الإحسان إلى الموتي الذي هو واجب أو مستحب ، فإن الله تعالى أمر المسلمين بالصلاة والزكاة ، فالصلاة حق الحق في الدنيا والآخرة ، والزكاة حق الخلق ، فالرسول أمر الناس بالقيام بحقوق الله وحقوق عباده ، بأن يعبدوا الله لا يشركوا به شيئاً .

ومن عبادته الإحسان إلى الناس حيث أمرهم الله سبحانه به كالصلاة على الجنائز وزيارة قبور المؤمنين ، فاستحوذ الشيطان على أتباعه فجعل قصدهم بذلك الشرك بالخالق وإيذاء المخلوق ، فإنهم إذا كانوا إنما يقصدون زيارة قبور الأنبياء والصالحين سؤالهم أو السؤال عندهم أو أنهم لا يقصدون السلام عليهم ولا الدعاء لهم كما يقصد بالصلاة على الجنائز كانوا بذلك مشركين ، مؤذنين ظالمين لمن يسألونه ، وكانوا ظالمين لأنفسهم . فجمعوا بين أنواع الظلم الثلاثة .

فالذى شرعه الله ورسوله توحيد وعدل وإحسان وإخلاص وصلاح للعباد فى المعاش والمعاد ، وما لم يشرعه الله ورسوله من العبادات المبتدعة فيه شرك وظلم وإساءة وفساد العباد فى المعاش والمعاد .

فإن الله تعالى أمر المؤمنين بعبادته والإحسان إلى عباده كما قال تعالى : (وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ) وهذا أمر بمعالى الأخلاق ، وهو سبحانه يحب معالى الأخلاق ويكره سفاسفها .

وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » رواه الحاكم فى صحيحه ، وقد ثبت عنه فى الصحيح صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اليد العليا خير من اليد السفلى » ، وقال : « اليد العليا هى المعطية ، واليد السفلى السائلة » وهذا ثابت عنه فى الصحيح .

فأين الإحسان إلى عباد الله من إيدائهم بالسؤال والشحاذة لهم ؟ وأين التوحيد للخالق بالرغبة إليه والرجاء له والتوكل عليه والحب له من الإشراف به بالرغبة إلى المخلوق والرجاء له والتوكل عليه وأن يحب كما يحب الله ؟ وأين صلاح العبد فى عبودية الله والذل له والافتقار إليه من فسادة فى عبودية المخلوق والذل له والافتقار إليه ؟ .

فالرسول صلى الله عليه وسلم أمر بتلك الأنواع الثلاثة الفاضلة المحمودة التى تصلح أمور أصحابها فى الدنيا والآخرة ، ونهى عن الأنواع الثلاثة التى تفسد أمور أصحابها .

ولكن الشيطان يأمر بخلاف ما يأمر به الرسول ، قال تعالى : (أَلَمْ أَعْهَدْ

إِلَيْكُمْ يَبْنَىءَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) وقال تعالى : (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ) وقال تعالى : (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ) وقال تعالى : (وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ) ،

وذكر الرحمن : هو الذكر الذي أنزل الله على رسوله الذي قال فيه :

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وقال تعالى : (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى) وقد قال تعالى :

(الْمَص * كَتَبُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ ءَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ) وقد قال تعالى : (كَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى

صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) وقال تعالى : (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِءَ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ

لَتَهْدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ .

فالصراط المستقيم هو ما بعث الله به رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بفعل ما أمر ، وترك ما حظر ، وتصديقه فيما أخبر ، ولا طريق إلى الله إلا ذلك ، وهذا سبيل أولياء الله المتقين وحزب الله المفلحين وجند الله الغالبين .

وكل ما خالف ذلك فهو من طرق أهل الغي والضلال ، وقد نزه الله تعالى نبيه عن هذا وهذا فقال تعالى (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) وقد أمرنا الله سبحانه أن نقول في صلاتنا (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) .

وقد روى الترمذى وغيره عن عدى بن حاتم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون » قال الترمذى حديث صحيح . وقال سفيان بن عيينة : كانوا يقولون من فسد من علمائنا فقيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا فقيه شبه من النصارى .

وكان غير واحد من السلف يقول : احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل ، فان فتنتهما فتنة لكل مفتون .

فمن عرف الحق ولم يعمل به أشبه اليهود الذين قال الله فيهم : (أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) .

ومن عبد الله بغير علم بل بالغلو والشرك أشبه النصارى الذين قال الله
فيهم : (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ
قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ) .

فالأول من الغاوين ، والثاني من الضالين .

فإن الغي اتباع الهوى ، والضلال عدم الهدى . قال تعالى : (وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ
نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ
شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ
تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا فَاقْصُصْ
الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) وقال تعالى : (سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ
فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ
لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِءَايَاتِنَا
وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) .

ومن جمع الضلال والغي ففيه شبه من هؤلاء وهؤلاء . نسأل الله أن يهدينا
وسائر إخواننا صراط الذين أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء
والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

فصل

إذا عرف هذا فقد تبين أن لفظ « الوسيلة » و « التوسل » فيه إجمال واشتباه يجب أن تعرف معانيه ، ويعطى كل ذى حق حقه .

فيعرف ما ورد به الكتاب والسنة من ذلك ومعناه .

وما كان يتكلم به الصحابة ويفعلونه ومعنى ذلك .

ويعرف ما أحدثه المحدثون في هذا اللفظ ومعناه .

فإن كثيرا من اضطراب الناس في هذا الباب هو بسبب ما وقع من الإجمال والاشتراك في الألفاظ ومعانيها حتى تجد أكثرهم لا يعرف في هذا الباب فصل الخطاب .

فلفظ الوسيلة مذكور في القرآن في قوله تعالى : (يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ) وفي قوله تعالى : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ دُونِي فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) .

فالوسيلة التي أمر الله أن تبتغى إليه وأخبر عن ملائكته وأنبيائه أنهم يبتغونها إليه هي ما يتقرب إليه من الواجبات والمستحبات . فهذه الوسيلة التي

أمر الله المؤمنين بابتغائها تتناول كل واجب ومستحب ، وما ليس بواجب ولا مستحب لا يدخل في ذلك سواء كان محرماً أو مكروهاً أو مباحاً .

فالواجب والمستحب هو ما شرعه الرسول فأمر به أمر إيجاب أو استحباب وأصل ذلك الإيمان بما جاء به الرسول . فجماع الوسيلة التي أمر الله لخلق بابتغائها هو التوسل إليه . باتباع ما جاء به الرسول ، لا وسيلة لأحد إلى الله إلا ذلك .

والثاني لفظ « الوسيلة » في الأحاديث الصحيحة كقوله صلى الله عليه وسلم « سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد . فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة » وقوله « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد ، حلت له الشفاعة » .

فهذه الوسيلة للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة . وقد أمرنا أن نسأل الله له هذه الوسيلة ، وأخبر أنها لا تكون إلا لعبد من عباد الله وهو يرجو أن يكون ذلك العبد ، وهذه الوسيلة أمرنا أن نسألها للرسول وأخبر أن من سأل له هذه الوسيلة فقد حلت عليه الشفاعة يوم القيامة لأن الجزاء من جنس العمل ، فلما دعوا للنبي صلى الله عليه وسلم استحقوا أن يدعوا هو لهم ، فإن الشفاعة نوع من الدعاء كما قال إنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشراً .

وأما التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم والتوجه به في كلام الصحابة
فيريدون به التوسل بدعائه وشفاعته .

والتوسل به في عرف كثير من المتأخرين يراد به الإقسام به والسؤال به
كما يقسمون بغيره من الأنبياء والصالحين ومن يعتقدون فيه الصلاح .

وحينئذ فلفظ التوسل به يراد به معنيان صحيحان باتفاق المسلمين ، ويراد
به معنى ثالث لم ترد به سنة .

فأما المعنيان الأولان — الصحيحان باتفاق العلماء : —

فأحدهما هو أصل الإيمان والإسلام وهو التوسل بالإيمان به وبطاعته .

والثاني دعاؤه وشفاعته كما تقدم .

فهذان جائزان بإجماع المسلمين ، ومن هذا قول عمر بن الخطاب : « اللهم إنا
كنا إذا أجدبنا توسلنا إليك بنينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا »
أى بدعائه وشفاعته وقوله تعالى : (وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ) أى القربة إليه
بطاعته ، وطاعة رسوله طاعته قال تعالى : (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) .
فهذا التوسل الأول هو أصل الدين ، وهذا لا ينكره أحد من المسلمين .

وأما التوسل بدعائه وشفاعته — كما قال عمر — فإنه توسل بدعائه لا بذاته ؛
ولهذا عدلوا عن التوسل به إلى التوسل بعمه العباس ، ولو كان التوسل هو بذاته
لكان هذا أولى من التوسل بالعباس ، فلما عدلوا عن التوسل به إلى التوسل

بالعباس : علم أن ما يفعل في حياته قد تعذر بموته ؛ بخلاف التوسل الذي هو الإيمان به والطاعة له فإنه مشروع دائماً .

فلفظ التوسل يراد به ثلاثة معان :-

(أحدها) التوسل بطاعته ، فهذا فرض لا يتم الإيمان إلا به .

و (الثاني) التوسل بدعائه وشفاعته ، وهذا كان في حياته ، ويكون يوم القيامة يتوسلون بشفاعته .

و (الثالث) التوسل به بمعنى الإقسام على الله بذاته ، والسؤال بذاته ، فهذا هو الذي لم تكن الصحابة يفعلونه في الاستسقاء ونحوه ، لا في حياته ولا بعد مماته ، لا عند قبره ولا غير قبره ، ولا يعرف هذا في شيء من الأدعية المشهورة بينهم ، وإنما ينقل شيء من ذلك في أحاديث ضعيفة مرفوعة وموقوفة أو عمن ليس قوله حجة كما سنذكر ذلك إن شاء الله تعالى .

وهذا هو الذي قال أبو حنيفة وأصحابه : إنه لا يجوز، ونهوا عنه حيث قالوا : لا يسأل بمخلوق ، ولا يقول أحد : أسألك بحق أنبيائك . قال أبو الحسين القدوري في كتابه الكبير في الفقه المسمى بشرح الكرخي في باب الكراهة : وقد ذكر هذا غير واحد من أصحاب أبي حنيفة .

قال بشر بن الوليد حدثنا أبو يوسف قال أبو حنيفة : لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به . وأكره أن يقول « بمعاقب العز من عرشك » أو « بحق

خلقتك . وهو قول أبي يوسف قال أبو يوسف : بمعقد العز من عرشه هو الله فلا أكره هذا ، وأكره أن يقول بحق فلان أو بحق أنبيائك ورسلك وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام .

قال القدوري : المسألة بخلقه لا تجوز لأنه لا حق للخلق على الخالق فلا تجوز وفاقا . وهذا الذي قاله أبو حنيفة وأصحابه من أن الله لا يسأل بمخلوق له معنيان :

أحدهما هو موافق لسائر الأئمة الذين يمنعون أن يقسم أحد بالمخلوق ، فإنه إذا منع أن يقسم على مخلوق بمخلوق فلأن يمنع أن يقسم على الخالق بمخلوق أولى وأحرى .

وهذا بخلاف إقسامه سبحانه بمخلوقاته كالليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، والشمس وضحاها ، والنازعات غرقا ، والصافات صفا ، فإن إقسامه بمخلوقاته يتضمن من ذكر آياته الدالة على قدرته وحكمته ووحدانيته ما يحسن معه إقسامه ، بخلاف المخلوق فإن إقسامه بالمخلوقات شرك بخالقها كما في السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من حلف بغير الله فقد أشرك » وقد صححه الترمذي وغيره ، وفي لفظ « فقد كفر » وقد صححه الحاكم . وقد ثبت عنه في الصحيحين أنه قال « من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » وقال « لا تحلفوا بآبائكم فإن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم » وفي الصحيحين عنه أنه قال « من حلف باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله » .

وقد اتفق المسلمون على أنه من حلف بالمخلوقات المحترمة ، أو بما يعتقد هو حرمة كالعرش ، والكرسي ، والكعبة ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى ، ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، والملائكة ، والصالحين ، والملوك ، وسيوف المجاهدين ، وترب الأنبياء والصالحين ، وأيمان البندق ، وسراويل الفتوة ، وغير ذلك ، لا ينعقد يمينه ، ولا كفارة في الحلف بذلك .

والحلف بالمخلوقات حرام عند الجمهور وهو مذهب أبي حنيفة وأحد القولين في مذهب الشافعي وأحمد ، وقد حكى إجماع الصحابة على ذلك . وقيل هي مكروهة كراهة تنزيه ، والأول أصح حتى قال عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر : لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلى [من] أن أحلف بغير الله صادقا . وذلك لأن الحلف بغير الله شرك ، والشرك أعظم من الكذب .

وإنما نعرف النزاع في الحلف بالأنبياء ، فعن أحمد في الحلف بالنبي صلى الله عليه وسلم روايتان .

إحداهما لا ينعقد اليمين به كقول الجمهور مالك وأبي حنيفة والشافعي .

والثانية ينعقد اليمين به واختار ذلك طائفة من أصحابه كالقاضي وأتباعه ، وابن المنذر وفاق هؤلاء . وقصراً أكثر هؤلاء النزاع في ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، وعدى ابن عقيل هذا الحكم إلى سائر الأنبياء . وإيجاب الكفارة بالحلف بمخلوق وإن كان نيا قول ضعيف في الغاية مخالف للأصول والنصوص ،

فالإقسام به على الله - والسؤال به بمعنى الإقسام - هو من هذا الجنس .

وأما السؤال بالمخلوق إذا كانت فيه باء السبب ليست بباء القسم - وبينهما فرق - فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بإبرار القسم ، وثبت عنه في الصحيحين أنه قال : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » قال ذلك لما قال أنس ابن النضر : أتكسر ثنية الربيع ؟ قال : لا والذي بعثك بالحق لا تكسر سنها . فقال : « يا أنس كتاب الله القصاص » ، فرضى القوم وعفوا ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » وقال : « رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره رواه مسلم وغيره ، وقال : « ألا أخبركم بأهل الجنة ؟ كل ضعيف متضعف ، لو أقسم على الله لأبره . ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ مستكبر » وهذا في الصحيحين .

وكذلك حديث أنس بن النضر والآخر من أفراد مسلم ، وقد روى في قوله : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » أنه قال : « منهم البراء بن مالك » وكان البراء إذا اشتدت الحرب بين المسلمين والكفار يقولون : يا براء أقسم على ربك . فيقسم على الله فتنهزم الكفار . فلما كانوا على قنطرة بالسوس قالوا : يا براء أقسم على ربك . فقال : يا رب أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم وجعلتني أول شهيد . فأبر الله قسمه فانهزم العدو واستشهد البراء بن مالك يومئذ . وهذا هو أخو أنس بن مالك ، قتل مائة رجل مبارزة غير من شرك في دمه ، وحمل يوم مسيلة على ترس ورمى به إلى الحديقة حتى فتح الباب .

والإقسام به على الغير أن يحلف المقسم على غيره ليفعلن كذا فإن حثته ولم
يرقسمه فالكفارة على الحالف لا على المحلوف عليه عند عامة الفقهاء ، كما
لو حلف على عبده أو ولده أو صديقه ليفعلن شيئاً ولم يفعله فالكفارة على
الحالف الحانث .

وأما قوله : « سألتك بالله أن تفعل كذا » فهذا سؤال وليس بقسم ، وفي
الحديث « من سألكم بالله فأعطوه » ولا كفارة على هذا إذا لم يجب سؤاله .
والخلق كلهم يسألون الله مؤمنهم وكافرهم ، وقد يجيب الله دعاء الكفار ، فإن
الكفار يسألون الله الرزق فيرزقهم ويسقيهم ، وإذا مسهم الضر في البحر ضل
من يدعون إلا إياه ، فلما نجاهم إلى البر أعرضوا وكان الإنسان كفوراً .

وأما الذين يقسمون على الله فيبر قسمهم فإنهم ناس مخصوصون .

فالسؤال كقول السائل لله : أسألك بأن لك الحمد أنت الله المنان بديع
السموات والأرض إذا الجلال والإكرام . وأسألك بأنك أنت الله الأحد
الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . وأسألك بكل اسم هو لك
سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به
في علم الغيب عندك .

فهذا سؤال الله تعالى بأسمائه وصفاته ، وليس ذلك إقساماً عليه ، فإن أفعاله
هي مقتضى أسمائه وصفاته ، فمغفرته ورحمته من مقتضى اسمه الغفور الرحيم ،
وعفوه من مقتضى اسمه العفو ؛ ولهذا لما قالت عائشة للنبي صلى الله عليه وسلم :

إن وافقت ليلة القدر ماذا أقول ؟ قال « قولي : اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني » .

وهدايته ودلالته من مقتضى اسمه الهادي ، وفي الأثر المنقول عن أحمد ابن حنبل أنه أمر رجلاً أن يقول : يادليل الحيارى دلني على طريق الصادقين ، واجعلني من عبادك الصالحين .

وجميع ما يفعل الله بعبده من الخير من مقتضى اسمه الرب ، ولهذا يقال في الدعاء : يارب ! يارب ! كما قال آدم : (رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) ، وقال نوح : (رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) وقال إبراهيم : (رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ...) وكذلك سائر الأنبياء .

وقد كره مالك وابن أبي عمران من أصحاب أبي حنيفة وغيرهما أن يقول الداعي ياسيدي ! ياسيدي ! وقالوا : قل كما قالت الأنبياء : رب ! رب ! واسمه الحى القيوم يجمع أصل معانى الأسماء والصفات كما قد بسط هذا في غير هذا الموضع ، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يقوله إذا اجتهد في الدعاء .

فإذا سئل المسئول بشيء — والباء للسبب — سئل بسبب يقتضى وجود المسئول .

فإذا قال : أسألك بأن لك الحمد أنت الله المنان بديع السموات والأرض كان كونه محموداً مناناً بديع السموات والأرض يقتضى أن يمن على عبده السائل

وكونه محموداً هو يوجب أن يفعل ما يحمد عليه ، وحمد العبد له سبب إجابة دعائه ؛ ولهذا أمر المصلي أن يقول : «سمع الله لمن حمده» أى استجاب الله دعاء من حمده ، فالسمع هنا بمعنى الإجابة والقبول كقوله صلى الله عليه وسلم : «أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعاء لا يسمع» أى لا يستجاب .

ومنه قول الخليل فى آخر دعائه (إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ) ومنه قوله تعالى : (وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ) وقوله : (وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُوا لِلْكَذِبِ سَمَّعُوا لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ) أى يقبلون الكذب ، ويقبلون من قوم آخرين لم يأتوك ولهذا أمر المصلي أن يدعو بعد حمد الله بعد التشهد المتضمن الثناء على الله سبحانه .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم لمن رآه يصلى ويدعو ولم يحمد ربه ولم يصل على نبيه فقال «عجل هذا» ثم دعاه فقال «إذا صلى أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه وليصل على النبى صلى الله عليه وسلم وليدع بعد بما شاء» أخرجه أبو داود والترمذى وصححه .

وقال عبد الله بن مسعود : كنت أصلى والنبى صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر معه ، فلما جلست بدأت بالثناء على الله ثم بالصلاة على نبيه ثم دعوت لنفسى فقال النبى صلى الله عليه وسلم «سل تعطه» رواه الترمذى وحسنه .

فلفظ السمع يراد به إدراك الصوت ، ويراد به معرفة المعنى مع ذلك ،

ويراد به القبول والاستجابة مع الفهم . قال تعالى : (وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّاسْمَعَهُمْ) ثم قال (وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ) على هذه الحال التي هم عليها لم يقبلوا الحق ثم (لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) ، فذمهم بأنهم لا يفهمون القرآن ولو فهموه لم يعملوا به .

وإذا قال السائل لغيره : أسأل بالله فإنما سأله بإيمانه بالله ، وذلك سبب لإعطاء من سأله به ، فإنه سبحانه يحب الإحسان إلى الخلق ، لا سيما إن كان المطلوب كف الظلم ، فإنه يأمر بالعدل وينهى عن الظلم ، وأمره أعظم الأسباب في حض الفاعل ، فلا سبب أولى من أن يكون مقتضيا لمسيبه من أمر الله تعالى .

وقد جاء في حديث رواه أحمد في مسنده وابن ماجه عن عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه علم الخارج إلى الصلاة أن يقول في دعائه : « وأسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشأى هذا فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة ، ولكن خرجت اتقاء سخطك ، وابتغاء مرضاتك » .

فإن كان هذا صحيحاً فحق السائلين عليه أن يجيبهم ، وحق العابدين له أن يثيبهم ، وهو حق أوجبه على نفسه لهم ، كما يسأل بالإيمان والعمل الصالح الذي جعله سبباً لإجابة الدعاء كما في قوله تعالى : (وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ) .

وكما يسأل بوعده لأن وعده يقتضى إنجاز ما وعده ، ومنه قول المؤمنين :

(رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا
وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ) وقوله : (إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي
يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّى
أَنْسَوُكُمْ ذِكْرِي) .

ويشبه هذا مناشدة النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر حيث يقول : « اللهم
أنجز لي ما وعدتني » وكذلك ما في التوراة أن الله تعالى غضب على بني إسرائيل
فجعل موسى يسأل ربه ويذكر ما وعد به إبراهيم فإنه سأله بسابق وعده
لإبراهيم .

ومن السؤال بالأعمال الصالحة سؤال الثلاثة الذين أوتوا إلى غار ، فسأل
كل واحد منهم بعمل عظيم أخلص فيه لله ، لأن ذلك العمل مما يحبه الله ويرضاه
محبة تقتضي إجابة صاحبه : هذا سأل يبره لوالديه ، وهذا سأل بعفته التامة ، وهذا
سأل بأمانته وإحسانه .

وكذلك كان ابن مسعود يقول وقت السحر « اللهم أمرتني فأطعتك ،
ودعوتني فأجبتك ، وهذا سحر فاغفر لي » ، ومنه حديث ابن عمر أنه كان يقول
على الصفا : « اللهم إني أتكلم بك ، وقولك الحق (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) ، « إِنَّكَ
لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ » ثم ذكر الدعاء المعروف عن ابن عمر أنه كان يقوله
على الصفا .

فقد تبين أن قول القائل « أسألك بكذا » نوعان : فإن الباء قد تكون

للقسم ، وقد تكون للسبب . فقد تكون قسماً به على الله ، وقد تكون سؤالاً بسببه .

فأما الأول : فالقسم بالمخلوقات لا يجوز على المخلوق فكيف على الخالق ؟ .

وأما الثاني وهو السؤال بالمعظم كالسؤال بحق الأنبياء فهذا فيه نزاع ، وقد تقدم عن أبي حنيفة وأصحابه أنه لا يجوز ذلك ، ومن الناس من يجوز ذلك ، فنقول : قول السائل لله تعالى : « أسألك بحق فلان وفلان من الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم ، أو بجاه فلان أو بحرمة فلان » يقتضى أن هؤلاء لهم عند الله جاه ، وهذا صحيح .

فإن هؤلاء لهم عند الله منزلة وجاه وحرمة يقتضى أن يرفع الله درجاتهم ويعظم أقدارهم ويقبل شفاعتهم إذا شفَعُوا ، مع أنه سبحانه قال : (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) .

ويقتضى أيضاً أن من اتبعهم واقتدى بهم فيما سن له الاقتداء بهم فيه كان سعيداً ، ومن أطاع أمرهم الذى بلغوه عن الله كان سعيداً ، ولكن ليس نفس مجرد قدرهم وجاههم مما يقتضى إجابة دعائه إذا سأل الله بهم حتى يسأل الله بذلك ، بل جاههم ينفعه أيضاً إذا اتبعهم وأطاعهم فيما أمروا به عن الله ، أو تأسى بهم فيما سنوه للمؤمنين ، وينفعه أيضاً إذا دعوا له وشفَعُوا فيه .

فأما إذا لم يكن منهم دعاء ولا شفاعاة ، ولا منه سبب يقتضى الإجابة ، لم يكن متشفعاً بجاههم ولم يكن سؤاله بجاههم نافعاً له عند الله ، بل يكون قد سأل

بأمر أجنبي عنه ليس سبباً لنفعه . ولو قال الرجل لمطاع كبير : « أسألك بطاعة فلان لك ، وبحبك له على طاعتك ، وبجاهه عندك الذي أوجبه طاعته لك لكان قد سأله بأمر أجنبي لا تعلق له به ، فكذلك إحسان الله إلى هؤلاء المقربين ومحبة لهم وتعظيمه لأقدارهم مع عبادتهم له وطاعتهم إياه ليس في ذلك ما يوجب إجابة دعاء من يسأل بهم ، وإنما يوجب إجابة دعائه بسبب منه لطاعته لهم ، أو سبب منهم لشفاعتهم له ، فإذا اتقى هذا وهذا فلا سبب .

نعم لو سأل الله بإيمانه بمحمد صلى الله عليه وسلم ومحبة له وطاعته له واتباعه لكان قد سأله بسبب عظيم يقتضى إجابة الدعاء بل هذا أعظم الأسباب والوسائل . والنبي صلى الله عليه وسلم بين أن شفاعته في الآخرة تنفع أهل التوحيد لا أهل الشرك ، وهى مستحقة لمن دعا له بالوسيلة كما فى الصحيح أنه قال « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علىّ فإنه من صلى على مرة صلى الله عليه عشرآ ، ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها درجة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا هو ذلك العبد . فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه شفاعتى يوم القيامة » وفى الصحيح أن أبا هريرة قال له : أى الناس أسعد بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال « من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه » .

فبين صلى الله عليه وسلم أن أحق الناس بشفاعته يوم القيامة من كان أعظم توحيداً وإخلاصاً ، لأن التوحيد جماع الدين والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، فهو سبحانه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ، فإذا شفع محمداً صلى الله عليه وسلم حد له ربه حداً فيدخلهم الجنة ، وذلك بحسب

ما يقوم بقلوبهم من التوحيد والإيمان . وذكر صلى الله عليه وسلم أنه من سأل الله له الوسيلة حلت عليه شفاعته يوم القيامة ، فبين أن شفاعته تنال باتباعه بما جاء به من التوحيد والإيمان ، وبالدعاء الذى سن لنا أن ندعوه به .

وأما السؤال بحق فلان فهو مبنى على أصلين :

أحدهما ما له من الحق عند الله ، والثانى هل نسأل الله بذلك كما نسأل بالجاه والحرمة ؟ .

أما الأول فمن الناس من يقول : للمخلوق على الخالق حق يعلم بالعقل ، وقاس المخلوق على الخالق ، كما يقول ذلك من يقوله من المعتزلة وغيرهم .

ومن الناس من يقول : لا حق للمخلوق على الخالق بحال ، لكن يعلم ما يفعله بحكم وعده وخبره ، كما يقول ذلك من يقوله من أتباع جهم والأشعرى وغيرهما من ينتسب إلى السنة .

ومنهم من يقول : بل كتب الله على نفسه الرحمة ، وأوجب على نفسه حقاً لعباده المؤمنين كما حرم الظلم على نفسه ، لم يوجب ذلك مخلوق عليه ولا يقاس بمخلوقاته ، بل هو بحكم رحمته وحكمته وعدله كتب على نفسه الرحمة وحرم على نفسه الظلم كما قال فى الحديث الصحيح الإلهى : « يا عبادى إني حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا » . وقال تعالى : (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) . وقال تعالى : (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) وفى الصحيحين عن معاذ عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يا معاذ ، أتدرى ما حق الله على

عباده ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . يامعاذ ، أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قلت الله ورسوله أعلم قال : حقهم عليه أن لا يعذبهم ، فعلى هذا القول لأنبيائه وعباده الصالحين عليه سبحانه حق أوجه على نفسه مع إخباره ، وعلى الثاني يستحقون ما أخبر بوقوعه وإن لم يكن ثم سبب يقتضيه .

فمن قال ليس للمخلوق على الخالق حق يسأل به — كما روى أن الله تعالى قال لداود : وأى حق لآبائك على ؟ — فهو صحيح إذا أريد بذلك أنه ليس للمخلوق عليه حق بالقياس والاعتبار على خلقه كما يجب للمخلوق على المخلوق ، وهذا كما يظنه جهال العباد من أن لهم على الله سبحانه حقاً بعبادتهم .

وذلك أن النفوس الجاهلية تتخيل أن الإنسان بعبادته وعليه يصير له على الله حق من جنس ما يصير للمخلوق على المخلوق كالذين يخدمون ملوكهم وملاكمهم فيجلبون لهم منفعة ويدفعون عنهم مضرة ويبقى أحدهم يتقاضى العوض والمجازاة على ذلك ، ويقول له عند جفاء أو إعراض يراه منه : ألم أفعل كذا ؟ بمن عليه بما يفعله معه ، وإن لم يقله بلسانه كان ذلك في نفسه .

وتخيل مثل هذا في حق الله تعالى من جهل الإنسان وظلمه ، ولهذا بين سبحانه أن عمل الإنسان يعود نفعه عليه وأن الله غنى عن الخلق كما في قوله تعالى : (إِن أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِنَفْسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا) وقوله تعالى : (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) وقوله تعالى :

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ) وقوله تعالى : (وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) وقال تعالى : في قصة موسى عليه السلام : (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ * وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ) وقال تعالى : (وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْرِِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنِیْضُرُوا اللَّهَ شَيْئًا) وقال تعالى : (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) .

وقد بين سبحانه أنه المان بالعمل فقال تعالى : (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) وقال تعالى : (وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضَلَا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

وفي الحديث الصحيح الإلهي : « يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني . يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً ولا أباي ، فاستغفروني أغفر لكم . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً . يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان منهم

مسأله ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر .

وبين الخالق تعالى والمخلوق من الفروق ما لا يخفى على من له أدنى بصيرة .

(منها) أن الرب تعالى غنى بنفسه عما سواه ، ويمتنع أن يكون مفتقراً إلى

غيره بوجه من الوجوه . والملوك وسادة العبيد محتاجون إلى غيرهم حاجة ضرورية .

و (منها) أن الرب تعالى وإن كان يحب الأعمال الصالحة ويرضى ويفرح

بتوبة التائبين فهو الذى يخلق ذلك ويسره فلم يحصل ما يحبه ويرضاه إلا بقدرته

ومشيئته . وهذا ظاهر على مذهب أهل السنة والجماعة الذين يقرون بأن الله هو

المنعم على عباده بالإيمان ، بخلاف القدرية . والمخلوق قد يحصل له ما يحبه بفعل غيره .

و (منها) أن الرب تعالى أمر العباد بما يصلحهم ونهاهم عما يفسدهم كما قال

قتادة : إن الله لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليهم ، ولا ينهاهم عما نهاهم عنه

بخلافهم ، بل أمرهم بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم . بخلاف المخلوق الذى يأمر

غيره بما يحتاج إليه وينهاهم عما ينهاه بخلافه . وهذا أيضاً ظاهر على مذهب

السلف وأهل السنة الذين يثبتون حكمته ورحمته ويقولون : إنه لم يأمر العباد

إلا بخير ينفعهم ، ولم ينههم إلا عن شر يضرهم ؛ بخلاف المجبرة الذين يقولون :

إنه قد يأمرهم بما يضرهم وينهاهم عما ينفعهم .

و (منها) أنه سبحانه هو المنعم بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، وهو

المنعم بالقدرة والحواس وغير ذلك مما به يحصل العلم والعمل الصالح ، وهو الهادى

لعباده ، فلا حول ولا قوة إلا به . ولهذا قال أهل الجنة : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا

لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ) وليس يقدر المخلوق على شيء من ذلك .

و (منها) أن نعمه على عباده أعظم من أن تحصى . فلو قدر أن العبادة جزاء النعمة لم تقم العبادة بشكر قليل منها ، فكيف والعبادة من نعمته أيضاً .

و (منها) أن العباد لا يزالون مقصرين محتاجين إلى عفوه ومغفرته ، فلن يدخل أحد الجنة بعمله ، وما من أحد إلا وله ذنوب يحتاج فيها إلى مغفرة الله لها : (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَى ظُهُرِهِمْ دَابَّةٌ) وقوله صلى الله عليه وسلم « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله » لا يناقض قوله تعالى : (جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

فإن المنفى نفي بياء المقابلة والمعاوضة كما يقال بعت هذا بهذا ، وما أثبت أثبت بياء السبب ، فالعمل لا يقابل الجزاء وإن كان سبباً للجزاء ، ولهذا من ظن أنه قام بما يجب عليه وأنه لا يحتاج إلى مغفرة الرب تعالى وعفوه فهو ضال ، كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لن يدخل أحد الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل » وروى « بمغفرته » ومن هذا أيضاً الحديث الذي في السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم . ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم » الحديث .

ومن قال : بل للمخلوق على الله حق فهو صحيح إذا أراد به الحق الذي أخبر

الله بوقوعه ، فإن الله صادق لا يخلف الميعاد ، وهو الذى أوجبه على نفسه بحكمته وفضله ورحمته ، وهذا المستحق لهذا الحق إذا سأل الله تعالى به يسأل الله تعالى إنجاز وعده ، أو يسأله بالأسباب التى علق الله بها المسببات كالأعمال الصالحة ، فهذا مناسب ، وأما غير المستحق لهذا الحق إذا سأل به بحق ذلك الشخص فهو كما لو سأل به بجاه ذلك الشخص ، وذلك سؤال بأمر أجنبي عن هذا السائل لم يسأله بسبب يناسب إجابة دعائه .

وأما سؤال الله بأسمائه وصفاته التى تقتضى ما يفعله بالعباد من الهدى والرزق والنصر . فهذا أعظم ما يسأل الله تعالى به . فقول المنازع : لا يسأل بحق الأنبياء ، فإنه لا حق للمخلوق على الخالق : ممنوع ، فإنه قد ثبت فى الصحيحين حديث معاذ الذى تقدم إيراده ، وقال تعالى : (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) (٤٧ : ٣٠) : (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) .

فيقال للمنازع : الكلام فى هذا فى مقامين : —

أحدهما فى حق العباد على الله .

والثانى فى سؤاله بذلك الحق .

أما الأول فلا ريب أن الله تعالى وعد المطيعين بأن يثيبهم ووعد السائلين بأن يجيبهم ، وهو الصادق الذى لا يخلف الميعاد ، قال الله تعالى : (وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا) ، (وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) : (فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ) فهذا مما يجب وقوعه

بحكم الوعد باتفاق المسلمين . وتنازعوا : هل عليه واجب بدون ذلك ؟ على ثلاثة أقوال — كما تقدم .

قيل : لا يجب لأحد عليه حق بدون ذلك .

وقيل : بل يجب عليه واجبات ويحرم عليه محرمات بالقياس على عباده .

وقيل : هو أوجب على نفسه وحرمة على نفسه ، فيجب عليه ما أوجبه

على نفسه ، ويحرم عليه ما حرمه على نفسه ، كما ثبت في الصحيح من حديث أبي ذر كما تقدم .

والظلم ممتنع منه باتفاق المسلمين ، لكن تنازعوا في الظلم الذي لا يقع فقيل :

هو الممتنع وكل ممكن يمكن أن يفعله لا يكون ظلماً ، لأن الظلم إما التصرف في ملك الغير ، وإما مخالفة الأمر الذي يجب عليه طاعته وكلاهما ممتنع منه .

وقيل : بل ما كان ظلماً من العباد فهو ظلم منه :

وقيل : الظلم وضع الشيء في غير موضعه فهو سبحانه لا يظلم الناس شيئاً

قال تعالى : (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا)

قال المفسرون : هو أن يحمل عليه سيئات غيره ويعاقب بغير ذنبه ، والهضم أن

يهضم من حسناته . وقال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً

يُضَعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا) ، (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) .

وأما المقام الثاني فإنه يقال : ما بين الله ورسوله أنه حق للعباد على الله فهو

حق ؛ لكن الكلام في السؤال بذلك ، فيقال : إن كان الحق الذي سأل به سبياً لإجابة السؤال حسن السؤال به كالحق الذي يجب لعابديه وسائليه .

وأما إذا قال السائل : بحق فلان وفلان ، فأولئك إذا كان لهم عند الله حق أن لا يعذبهم وأن يكرمهم بثوابه ويرفع درجاتهم - كما وعدهم بذلك وأوجهه على نفسه - فليس في استحقاق أولئك ما استحقوه من كرامة الله ما يكون سبياً لمطلوب هذا السائل ، فإن ذلك استحق ما استحقه بما يسره الله له من الإيمان والطاعة . وهذا لا يستحق ما استحقه ذلك . فليس في إكرام الله لذلك سبب يقتضى إجابة هذا .

وإن قال : السبب هو شفاعته ودعاؤه فهذا حق إذا كان قد شفع له ودعا له ، وإن لم يشفع له ولم يدع له لم يكن هناك سبب .

وإن قال : السبب هو محبتي له وإيماني به وموالاتي له ، فهذا سبب شرعي وهو سؤال الله وتوسل إليه بإيمان هذا السائل ومحبته لله ورسوله ؛ وطاعته لله ورسوله لكن يجب الفرق بين المحبة لله والمحبة مع الله : فمن أحب مخلوقاً كما يحب الخالق فقد جعله نداً لله ، وهذه المحبة تضره ولا تنفعه ، وأما من كان الله تعالى أحب إليه مما سواه ، وأحب أنبياءه وعباده الصالحين له فحبه لله تعالى هو أنفع الأشياء ، والفرق بين هذين من أعظم الأمور .

فإن قيل : إذا كان التوسل بالإيمان به ومحبته وطاعته على وجهين — تارة يتوسل بذلك إلى ثوابه وجنته (وهذا أعظم الوسائل) ، وتارة يتوسل بذلك

في الدعاء كما ذكرتم نظائره — فيحمل قول القائل : أسألك بنبيك محمد ، على أنه أراد: إني أسألك بإيماني به وبمحبتته ، وأتوسل إليك بإيماني به ومحبتته ، ونحو ذلك ، وقد ذكرتم أن هذا جائز بلا نزاع . قيل : من أراد هذا المعنى فهو مصيب في ذلك بلا نزاع ، وإذا حمل على هذا المعنى كلام من توسل بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد مماته من السلف - كما نقل عن بعض الصحابة والتابعين وعن الإمام أحمد وغيره كان هذا حسنا . وحيث فلا يكون في المسألة نزاع .

ولكن كثير من العوام يطلقون هذا اللفظ ولا يريدون هذا المعنى ، فهؤلاء الذين أنكر عليهم من أنكر .

وهذا كما أن الصحابة كانوا يريدون بالتوسل به التوسل بدعائه وشفاعته وهذا جائز بلا نزاع ، ثم إن أكثر الناس في زماننا لا يريدون هذا المعنى بهذا اللفظ .

فإن قيل : فقد يقول الرجل لغيره بحق الرحم ، قيل : الرحم توجب على صاحبها حقاً لدى الرحم كما قال الله تعالى : (وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ) وقال النبي صلى الله عليه وسلم « الرحم شجنة من الرحمن من وصلها وصله الله ومن قطعها قطعها الله » وقال « لما خلق الله الرحم تعلق بحقوى الرحمن وقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، فقال : ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ؟ قالت : بلى قد رضيت » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى : أنا الرحمن ، خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي ، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته » .

وقد روى عن علي أنه كان إذا سأله ابن أخيه بحق جعفر أييه أعطاه لحق جعفر على علي . وحق ذى الرحم باق بعد موته كما فى الحديث أن رجلا قال : يا رسول الله ! هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما به بعد موتهما ؟ قال « نعم ! الدعاء لهما والاستغفار لهما ، وإنفاذ وعدهما من بعدهما ، وصلة رحمك التى لا رحم لك إلا من قبلهما » ، وفى الحديث الآخر حديث ابن عمر « من أبر البر أن يصل الرجل أهل وداييه بعد أن يولى » . فصلة أقارب الميت وأصدقائه بعد موته هو من تمام بره .

والذى قاله أبو حنيفة وأصحابه وغيرهم من العلماء — من أنه لا يجوز أن يسأل الله تعالى بمخلوق : لا بحق الأنبياء ولا غير ذلك — يتضمن شيئين كما تقدم .

(أحدهما) الإقسام على الله سبحانه وتعالى به ، وهذا منهى عنه عند جماهير العلماء كما تقدم ، كما ينهى أن يقسم على الله بالكعبة والمشاعر باتفاق العلماء .

و (الثانى) السؤال به ، فهذا يجوز طائفة من الناس ، ونقل فى ذلك آثار عن بعض السلف ، وهو موجود فى دعاء كثير من الناس ، لكن ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك كله ضعيف بل موضوع . وليس عنه حديث ثابت قد يظن أن لهم فيه حجة ، إلا حديث الأعمى الذى عليه أن يقول : « أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة » ، وحديث الأعمى لا حجة لهم فيه ، فإنه صريح فى أنه إنما توسل بدعاء النبى صلى الله عليه وسلم وشفاعته ، وهو

طلب من النبي صلى الله عليه وسلم الدعاء ، وقد أمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول : « اللهم شفعه في » ولهذا رد الله عليه بصره لما دعا له النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك مما يعد من آيات النبي صلى الله عليه وسلم . ولو توسل غيره من العميان الذين لم يدع لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالسؤال به لم تكن حالهم كحاله .

ودعاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في الاستسقاء المشهور بين المهاجرين والأنصار وقوله : « اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنينا فقسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نينا » : يدل على أن التوسل المشروع عندهم هو التوسل بدعائه وشفاعته لا السؤال بذاته ؛ إذ لو كان هذا مشروعاً لم يعدل عمر والمهاجرون والأنصار عن السؤال بالرسول إلى السؤال بالعباس .

وشاع النزاع في السؤال بالأنبياء والصالحين ؛ دون الإقسام بهم ؛ لأن بين السؤال والإقسام فرقاً : فإن السائل متضرع ذليل يسأل بسبب يناسب الإجابة ، والمقسم أعلى من هذا فإنه طالب مؤكد طلبه بالقسم ، والمقسم لا يقسم إلا على من يرى أنه يبر قسمه ، فإبرار القسم خاص ببعض العباد .

وأما إجابة السائلين فعام ؛ فإن الله يحيب دعوة المضطر ودعوة المظلوم وإن كان كافراً ، وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من داع يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى خصال ثلاث : إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخر له من الخير مثلها ،

وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها » قالوا : يا رسول الله إذا نكثر .
قال « الله أكثر » .

وهذا التوسل بالأنبياء بمعنى السؤال بهم — وهو الذى قال أبو حنيفة
وأصحابه وغيرهم إنه لا يجوز — ليس فى المعروف من مذهب مالك ما يناقض
ذلك فضلاً أن يجعل هذا من مسائل السب ؛ فمن نقل عن مذهب مالك أنه جَوَّزَ
التوسل به بمعنى الإقسام به أو السؤال به : فليس معه فى ذلك نقل عن مالك
وأصحابه ، فضلاً عن أن يقول مالك : إن هذا سب للرسول أو تنقص له .
بل المعروف عن مالك أنه كره للداعى أن يقول : ياسيدى سيدى ، وقال :
قل كما قالت الأنبياء : يارب يارب يا كريم . وكره أيضاً أن يقول : يا حنان
يا منان . فإنه ليس بمأثور عنه .

فإذا كان مالك يكره مثل هذا الدعاء إذ لم يكن مشروعاً عنده فكيف يجوز
عنده أن يسأل الله بمخلوق نبياً كان أو غيره ، وهو يعلم أن الصحابة لما أجدبوا
عام الرمادة لم يسألوا الله بمخلوق ، لا نبي ولا غيره ، بل قال عمر : اللهم
إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم بنينا
فاسقنا . فيسقون .

وكذلك ثبت فى صحيح مسلم عن ابن عمر وأنس وغيرهما أنهم كانوا إذا
أجدبوا إنما يتوسلون بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم واستسقائه ، لم ينقل عن
أحد منهم أنه كان فى حياته صلى الله عليه وسلم سأل الله تعالى بمخلوق ،

لا به ولا بغيره ، لا فى الاستسقاء ولا غيره ، وحديث الأعمى سنتكلم عليه
إن شاء الله تعالى ؛ فلو كان السؤال به معروفاً عند الصحابة لقالوا لعمر :
إن السؤال والتوسل به أولى من السؤال والتوسل بالعباس ، فلم نعدل عن الأمر
المشروع الذى كنا نفعله فى حياته وهو التوسل بأفضل الخلق إلى أن تتوسل
ببعض أقاربه ، وفى ذلك ترك السنة المشروعة وعدول عن الأفضل وسؤال
الله تعالى بأضعف السببين مع القدرة على أعلاهما — ونحن مضطرون غاية
الاضطرار فى عام الرمادة الذى يضرب به المثل فى الجذب .

والذى فعله عمر فعل مثله معاوية بحضرة من معه من الصحابة والتابعين ،
فتوسلوا يزيد بن الأسود الجرشى كما توسل عمر بالعباس ؛ وكذلك ذكر الفقهاء
من أصحاب الشافعى وأحمد وغيرهم أنه يتوسل فى الاستسقاء بدعاء أهل الخير
والصلاح ، قالوا : وإن كانوا من أقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو
أفضل ، اقتداء بعمر ، ولم يقل أحد من أهل العلم إنه يسأل الله تعالى فى ذلك
لا بنى ولا بغير نبي .

وكذلك من نقل عن مالك أنه جوز سؤال الرسول أو غيره بعد موتهم
أو نقل ذلك عن إمام من أئمة المسلمين — غير مالك — كالشافعى وأحمد وغيرهما
فقد كذب عليهم ، ولكن بعض الجهال ينقل هذا عن مالك ويستند إلى حكاية
مكتوبة عن مالك ، ولو كانت صحيحة لم يكن التوسل الذى فيها هو هذا ؛ بل هو
التوسل بشفاعته يوم القيامة ، ولكن من الناس من يحرف نقلها ، وأصلها
ضعيف كما سنبينه إن شاء الله تعالى ،

والقاضي عياض لم يذكرها في كتابه في باب زيارة قبره ، بل ذكر
هناك ما هو المعروف عن مالك وأصحابه ، وإنما ذكرها في سياق أن حرمة النبي
صلى الله عليه وسلم بعد موته ، وتوقيره وتعظيمه لازم ؛ كما كان حال حياته ،
وكذلك عند ذكره وذكر حديثه ، وسنته ، وسماع اسمه . وذكر عن مالك أنه
سئل عن أيوب السخيتاني فقال : ما حدثكم عن أحد إلا وأيوب أفضل منه . قال :
وحج حجتين فكنت أرمقه فلا أسمع منه غير أنه كان إذا ذكر النبي صلى الله
عليه وسلم بكى حتى أرحمه ، فلما رأيت منه ما رأيت وإجلاله للنبي صلى الله عليه
وسلم كتبت عنه .

وقال مصعب بن عبد الله : كان مالك إذا ذكر النبي صلى الله عليه
وسلم يتغير لونه وينحني حتى يصعب ذلك على جلسائه . فقليل له يوماً في
ذلك فقال : لو رأيتم ما رأيتم لما أنكرتم عليّ ما ترون ، لقد كنت أرى
محمد بن المنكدر — وكان سيد القراء — لا تكاد نسأله عن حديث أبداً إلا يبكي
حتى نرحمه .

ولقد كنت أرى جعفر بن محمد — وكان كثير الدعاة والتبسم — فإذا
ذكر عنده النبي صلى الله عليه وسلم اصفر لونه ، وما رأيته يحدث عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم إلا على طهارة . ولقد اختلفت إليه زماناً فما كنت أراه
إلا على ثلاث خصال : إما مصلياً ، وإما صامتاً ، وإما يقرأ القرآن . ولا يتكلم
فيما لا يعنيه ، وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله .

ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم يذكر النبي صلى الله عليه وسلم
فينظر إلى لونه كأنه نزف منه الدم ، وقد جف لسانه في فمه هية لرسول الله
صلى الله عليه وسلم .

ولقد كنت آتى عامر بن عبد الله بن الزبير فإذا ذكر عنده النبي صلى الله
عليه وسلم بكى حتى لا يبقى في عينيه دموع .

ولقد رأيت الزهري — وكان لمن أهلنا الناس وأقربهم — فإذا ذكر عنده
النبي صلى الله عليه وسلم فكأنه ما عرفك ولا عرفته .

ولقد كنت آتى صفوان بن سليم وكان من المتعبدين المجتهدين ، فإذا ذكر
النبي صلى الله عليه وسلم بكى فلا يزال يبكي حتى يقوم الناس عنه ويتركوه .

فهذا كله نقله القاضي عياض من كتب أصحاب مالك المعروفة ، ثم ذكر
حكاية بإسناد غريب منقطع رواها عن غير واحد إجازة ، قالوا : حدثنا
أبو العباس أحمد بن عمر بن دلهات ، قال : حدثنا أبو الحسن علي بن فهر ، حدثنا
أبو بكر محمد بن أحمد بن الفرخ ، حدثنا أبو الحسن عبد الله بن المتاب ، حدثنا
يعقوب بن إسحاق بن أبي إسرائيل ، حدثنا ابن حميد قال : ناظر أبو جعفر
أمير المؤمنين مالكا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له مالكا .
يا أمير المؤمنين ، لا ترفع صوتك في هذا المسجد ، فإن الله أدب قوما فقال :
(لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) الآية ، ومدح قوما فقال : (إِنَّ الَّذِينَ
يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ) الآية ، وذم قوما فقال : (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ

مِنْ وَرَاءِ الْحُجْرَتِ) الآية ، وإن حرمة ميتاً كحرمة حياً . فاستكان لها أبو جعفر ، فقال : يا أبا عبد الله ، أستقبل القبلة وأدعو ؟ أم أستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أهلك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة ؟ بل استقبله واستشفع به فيشفعك الله ، قال الله تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا) .

قلت وهذه الحكاية منقطعة؛ فإن محمد بن حميد الرازي لم يدرك مالكا ، لاسيما في زمن أبي جعفر المنصور ، فإن أبا جعفر توفي بمكة سنة ثمان وخمسين ومائة ، وتوفي مالك سنة تسع وسبعين ومائة . وتوفي محمد بن حميد الرازي سنة ثمان وأربعين ومائتين ، ولم يخرج من بلده حين رحل في طلب العلم إلا وهو كبير مع أبيه ، وهو مع هذا ضعيف عند أكثر أهل الحديث ، كذبه أبو زرعة ، وابن وارة ، وقال صالح بن محمد الأسدي : مارأيت أحدا أجرا على الله منه وأحذق بالكذب منه . وقال يعقوب بن شيبه : كثير المناكير . وقال النسائي : ليس بثقة . وقال ابن حبان : ينفرد عن الثقات بالمقلوبات . وآخر من روى الموطأ عن مالك هو أبو مصعب وتوفي سنة اثنتين وأربعين ومائتين . وآخر من روى عن مالك على الإطلاق هو أبو حذيفة أحمد بن إسماعيل السهمي توفي سنة تسع وخمسين ومائتين . وفي الإسناد أيضاً من لا تعرف حاله .

وهذه الحكاية لم يذكرها أحد من أصحاب مالك المعروفين بالأخذ عنه ،

ومحمد بن حميد ضعيف عند أهل الحديث إذا أسند ، فكيف إذا أرسل حكاية لا تعرف إلا من جهته ؟! هذا إن ثبت عنه ، وأصحاب مالك متفقون على أنه بمثل هذا النقل لا يثبت عن مالك قول له في مسألة في الفقه ، بل إذا روى عنه الشاميون كالوليد بن مسلم ، ومروان بن محمد الطاطري ضعفوا رواية هؤلاء ، وإنما يعتمدون على رواية المدنيين والمصريين ، فكيف بحكاية تناقض مذهبه المعروف عنه من وجوه رواها واحد من الخراسانيين لم يدركه وهو ضعيف عند أهل الحديث ؟ .

مع أن قوله « وهو وسيلتك ووسيلة إليك آدم عليه السلام إلى الله يوم القيامة » إنما يدل على توسل آدم وذريته به يوم القيامة ، وهذا هو التوسل بشفاعته يوم القيامة ، وهذا حق ؛ كما جاءت به الأحاديث الصحيحة حين تأتي الناس يوم القيامة آدم ليشفع لهم ، فيردهم آدم إلى نوح ، ثم يردهم نوح إلى إبراهيم ، وإبراهيم إلى موسى ، وموسى إلى عيسى ، ويردhem عيسى إلى محمد صلى الله عليه وسلم فإنه كما قال « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا نخر » ، آدم فمن دونه تحت لوأى يوم القيامة ولا نخر » ولكنها مناقضة لمذهب مالك المعروف من وجوه :-

(أحدها) قوله « أستقبل القبلة وأدعو ، أم أستقبل رسول الله وأدعو ؟ » فقال « ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة إليك آدم » . فإن المعروف عن مالك وغيره من الأئمة وسائر السلف من الصحابة والتابعين أن الداعي إذا سلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم أراد أن يدعو لنفسه فإنه يستقبل القبلة ويدعو في مسجده ، ولا يستقبل القبر ويدعو لنفسه ، بل إنما يستقبل

القبر عند السلام على النبي صلى الله عليه وسلم والدعاء له . هذا قول أكثر العلماء كمالك في إحدى الروايتين والشافعي وأحمد وغيرهم .

وعند أصحاب أبي حنيفة لا يستقبل القبر وقت السلام عليه أيضاً .

ثم منهم من قال : يجعل الحجرة على يساره - وقد رواه ابن وهب عن مالك - ويسلم عليه .

ومنهم من قال : بل يستدبر الحجرة ويسلم عليه ، وهذا هو المشهور عندهم ، ومع هذا فكره مالك أن يطيل القيام عند القبر لذلك . قال القاضي عياض في المبسوط عن مالك قال « لا أرى أن يقف عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ، ولكن يسلم ويمضي » قال : وقال نافع : كان ابن عمر يسلم على القبر ، رأيته مرة أو أكثر يحىء إلى القبر فيقول : السلام على النبي صلى الله عليه وسلم ، السلام على أبي بكر ، السلام على أبي . ثم ينصرف . ورؤى واضعاً يده على مقعد النبي صلى الله عليه وسلم من المنبر ثم وضعها على وجهه . قال : وعن ابن أبي قسيط والقعني كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا خلا المسجد جسوا برمانة المنبر التي تلقاء القبر بيمينهم ، ثم استقبلوا القبلة يدعون . قال : وفي الموطأ من رواية يحيى بن يحيى الليثي أنه كان - يعني ابن عمر - يقف على قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيصل على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أبي بكر وعمر ، وعند ابن القاسم والقعني : ويدعو لأبي بكر وعمر . قال مالك في رواية ابن وهب : يقول السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته . وقال في المبسوط : ويسلم على أبي بكر وعمر .

قال أبو الوليد الباجي : وعندي أن يدعو للنبي صلى الله عليه وسلم بلفظ الصلاة ولأبي بكر وعمر [بلفظ السلام] لما في حديث ابن عمر من الخلاف . وهذا الدعاء يفسر الدعاء المذكور في رواية ابن وهب ، قال مالك في رواية ابن وهب : إذا سلم على النبي صلى الله عليه وسلم ودعا يقف ووجهه إلى القبر لا إلى القبلة ويدنو ويسلم ولا يمس القبر . فهذا هو السلام عليه والدعاء له بالصلاة عليه كما تقدم تفسيره .

وكذلك كل دعاء ذكره أصحابه كما ذكر ابن حبيب في الواضحة وغيره قال : وقال مالك في المبسوط : وليس يلزم من دخل المسجد وخرج من أهل المدينة الوقوف بالقبر ، وإنما ذلك للغرباء . وقال فيه أيضا : ولا بأس لمن قدم من سفر أو خرج إلى سفر أن يقف على قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيصلي عليه ويدعوه ولأبي بكر وعمر . قيل له : فإن ناساً من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ولا يريدونه يفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر ، وربما وقفوا في الجمعة أو الأيام المرة والمرتين أو أكثر عند القبر فيسلمون ويدعون ساعة . فقال مالك : لم يبلغني هذا عن أهل الفقه ببلدنا ، وتركه واسع ، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، ولم يبلغني عن أول هذه الأمة وصدورها أنهم كانوا يفعلون ذلك ، ويكره إلا لمن جاء من سفر أو أراد .

قال ابن القاسم : ورأيت أهل المدينة إذا خرجوا منها ، أو دخلوا أتوا القبر فسلموا قال ولذلك رأى^(١) .

(١) بياض بالأصل .

قال أبو الوليد الباجي : ففرق بين أهل المدينة والغرباء لأن الغرباء قصدوا لذلك وأهل المدينة مقيمون بها لم يقصدوها من أجل القبر والتسليم .

قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد » « اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » قال : وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تجعلوا قبري عيداً » . قال ومن كتاب أحمد بن شعبة فيمن وقف بالقبر لا يلتصق به ولا يمسه ولا يقف عنده طويلاً ، وفي (العتية) يعني عن مالك : يبدأ : بالركوع قبل السلام في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ^(١) ، وأحب مواضع التنفل فيه مصلى النبي صلى الله عليه وسلم حيث العمود المخلق ، وأما في الفريضة فالتقدم إلى الصفوف . قال : والتنفل فيه للغرباء أحب إلى من التنفل في البيوت .

فهذا قول مالك وأصحابه وما نقلوه عن الصحابة يبين أنهم لم يقصدوا القبر إلا للسلام على النبي صلى الله عليه وسلم والدعاء له . وقد كره مالك إطالة القيام لذلك ، وكره أن يفعله أهل المدينة كلما دخلوا المسجد وخرجوا منه ، وإنما يفعل ذلك الغرباء ومن قدم من سفر أو خرج له ، فإنه تحية للنبي صلى الله عليه وسلم . فأما إذا قصد الرجل الدعاء لنفسه فإنما يدعو في مسجده مستقبل القبلة كما ذكروا ذلك عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم ينقل عن أحد من الصحابة أنه فعل ذلك عند القبر ، بل ولا أطال الوقوف عند القبر للدعاء للنبي صلى الله عليه وسلم ، فكيف بدعائه لنفسه .

(١) أي يقدم صلاة تحية المسجد على السلام على الرسول صلى الله عليه وسلم

وأما دعاء الرسول وطلب الخوارج منه وطلب شفاعته عند قبره أو بعد موته فهذا لم يفعله أحد من السلف، ومعلوم أنه لو كان قصد الدعاء عند القبر مشروعا لفعله الصحابة والتابعون، وكذلك السؤال به، فكيف بدعائه وسؤاله بعد موته؟ .
فدل ذلك على أن ما في الحكاية المنقطعة من قوله «استقبله واستشفع به» كذب على مالك، يخالف لأقواله وأقوال الصحابة والتابعين وأفعاله التي يفعلها مالك وأصحابه ونقلها سائر العلماء، إذ كان أحد منهم لم يستقبل القبر للدعاء لنفسه فضلا عن أن يستقبله ويستشفع به يقول له يا رسول الله اشفع لي أو ادع لي، أو يشتكى إليه مصائب الدين والدنيا، أو يطلب منه أو من غيره من الموتي من الأنبياء والصالحين أو من الملائكة الذين لا يراهم أن يشفعوا له، أو يشتكى إليهم المصائب، فإن هذا كله من فعل النصارى وغيرهم من المشركين ومن ضاهاهم من مبتدعة هذه الأمة؛ ليس هذا من فعل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، ولا مما أمر به أحد من أئمة المسلمين، وإن كانوا يسلون عليه إذ كان يسمع السلام عليه من القريب ويبلغ سلام البعيد.

وقد احتج أحمد وغيره بالحديث الذي رواه أحمد وأبو داود بإسناد جيد من حديث حيوة بن شريح المصري حدثنا أبو صخر عن يزيد بن قسيط عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما من أحد يسلم عليّ إلا رد الله عليّ روحه حتى أورد عليه السلام» .

وعلى هذا الحديث اعتمد الأئمة في السلام عليه عند قبره وصلوات الله

وسلامه عليه ، فإن أحاديث زيارة قبره كلها ضعيفة لا يعتمد على شيء منها في الدين . ولهذا لم يرو أهل الصحاح والسنن شيئاً منها ، وإنما يروونها من يروى الضعاف كالدارقطني والبزار وغيرهما .

وأجود حديث فيها ما رواه عبد الله بن عمر العمرى - وهو ضعيف والكذب ظاهر عليه - مثل قوله : « من زارني بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي » فإن هذا كذبه ظاهر مخالف لدين المسلمين « فإن من زاره في حياته وكان مؤمناً به كان من أصحابه لاسيما إن كان من المهاجرين إليه المجاهدين معه ، وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » أخرجاه في الصحيحين .

والواحد من بعد الصحابة لا يكون مثل الصحابة بأعمال مأمور بها واجبة كالحج والجهاد والصلوات الخمس والصلاة عليه ، فكيف بعمل ليس بواجب باتفاق المسلمين ؟ بل ولا شرع السفر إليه ، بل هو منهي عنه .

وأما السفر إلى مسجده للصلاة فيه والسفر إلى المسجد الأقصى للصلاة فيه فهو مستحب ، والسفر إلى الكعبة للحج فواجب . فلو سافر أحد السفر الواجب والمستحب لم يكن مثل واحد من الصحابة الذين سافروا إليه في حياته ، فكيف بالسفر المنهي عنه ؟ وقد اتفق الأئمة على أنه لو نذر أن يسافر إلى قبره صلوات الله وسلامه عليه ، أو قبر غيره من الأنبياء والصالحين ؛ لم يكن عليه

أن يوفى بنذره ، بل ينهى عن ذلك . ولو نذر السفر إلى مسجده أو المسجد الأقصى للصلاة ففيه قولان للشافعي :

أظهرهما عنه يجب ذلك وهو مذهب مالك وأحمد .

والثاني لا يجب وهو مذهب أبي حنيفة ، لأن من أصله أنه لا يجب من النذر إلا ما كان واجباً بالشرع ، وإتيان هذين المسجدين ليس واجباً بالشرع فلا يجب بالنذر عنده .

وأما الأكثرون فيقولون هو طاعة الله ، وقد ثبت في صحيح البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من نذر أن يطيع الله فليطعه ، ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه » .

وأما السفر إلى زيارة قبور الأنبياء والصالحين فلا يجب بالنذر عند أحد منهم لأنه ليس بطاعة ، فكيف يكون من فعل هذا كواحد من أصحابه ؟ وهذا مالك كره أن يقول الرجل : زرت قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستعظمه . وقد قيل إن ذلك ككراهية زيارة القبور ، وقيل لأن الزائر أفضل من المزور ، وكلاهما ضعيف عند أصحاب مالك .

والصحيح أن ذلك لأن لفظ زيارة القبر يحمل يدخل فيها الزيارة البدعية التي هي من جنس الشرك ، فإن زيارة قبور الأنبياء وسائر المؤمنين على وجهين كما تقدم ذكره :

زيارة شرعية ، وزيارة بدعية .

فالزيارة الشرعية يقصد بها السلام عليهم والدعاء لهم كما يقصد الصلاة على أحدهم إذا مات فيصلى عليه صلاة الجنازة ، فهذه الزيارة الشرعية .

والثانى : أن يزورها كزيارة المشركين وأهل البدع لدعاء الموتى وطلب الحاجات منهم ؛ أو لاعتقاده أن الدعاء عند قبر أحدهم أفضل من الدعاء في المساجد والبيوت ؛ أو أن الإقسام بهم على الله وسؤاله سبحانه بهم أمر مشروع يقتضى إجابة الدعاء ، فمثل هذه الزيارة بدعة منهي عنها .

فإذا كان لفظ « الزيارة » مجملاً يحتمل حقاً وباطلاً عدل عنه إلى لفظ لا لبس فيه كلفظ « السلام » عليه ، ولم يكن لأحد أن يحتج على مالك بما روى في زيارة قبره أو زيارته بعد موته ، فإن هذه كلها أحاديث ضعيفة بل موضوعة ، لا يحتج بشيء منها في أحكام الشريعة .

والثابت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة » ، هذا هو الثابت في الصحيح ، ولكن بعضهم رواه بالمعنى فقال قبري . وهو صلى الله عليه وسلم حين قال هذا القول لم يكن قد قبر بعد - صلوات الله وسلامه عليه - ولهذا لم يحتج بهذا أحد من الصحابة ، لما تنازعوا في موضع دفنه ، ولو كان هذا عندهم لكان نصاً في محل النزاع . ولكن دفن في حجرة عائشة في الموضع الذي مات فيه ، بأبي هو وأمي صلوات الله عليه وسلامه .

ثم لما وسع المسجد في خلافة الوليد بن عبد الملك وكان نائبه على المدينة

عمر بن عبد العزيز أمره أن يشتري الحجر ويزيدها في المسجد ، وكانت الحجر من جهة المشرق والقبلة فزيدت في المسجد ودخلت حجرة عائشة في المسجد من حينئذ ، وبنوا الحائط البراني مسنما محرفا ، فإنه ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي مرثد الغنوي أنه قال صلى الله عليه وسلم « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها » لأن ذلك يشبه السجود لها ، وإن كان المصلي إنما يقصد الصلاة لله تعالى . وكما نهى عن اتخاذها مساجد ونهى عن قصد الصلاة عندها ، وإن كان المصلي إنما يقصد الصلاة لله سبحانه والدعاء له . فمن قصد قبور الأنبياء والصالحين لأجل الصلاة والدعاء عندها فقد قصد نفس المحرم الذي سد الله ورسوله ذريعته ، وهذا بخلاف السلام المشروع حسبا تقدم .

وقد روى سفيان الثوري عن عبد الله بن السائب عن زاذان عن عبد الله ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام » رواه النسائي وأبو حاتم في صحيحه ، وروى نحوه عن أبي هريرة . فهذا فيه أن سلام البعيد تبلغه الملائكة .

وفي الحديث المشهور الذي رواه أبو الأشعث الصنعاني عن أوس بن أوس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكثروا على من الصلاة في كل يوم جمعة ، فإن صلاة أمتي تعرض على يومئذ ، فمن كان أكثرهم على صلاة كان أقربهم مني منزلة » .

وفي مسند الإمام أحمد : حدثنا شريح حدثنا عبد الله بن نافع عن ابن أبي

ذئب عن المقبرى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
« لا تتخذوا قبرى عيداً ، ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً ، وصلوا على حيثما كنتم فإن
صلاتكم تبلغنى » ورواه أبو داود . قال القاضى عياض وروى أبو بكر بن أبى
شيبه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى على عند
قبرى سمعته . ومن صلى على نائياً أبلغته » . وهذا قد رواه محمد بن مروان
السدى عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة ، وهذا هو السدى الصغير
وليس بثقة ، وليس هذا من حديث الأعمش .

وروى أبو يعلى الموصلى فى مسنده عن موسى بن محمد بن حبان عن أبى
بكر الحنفى : حدثنا عبد الله بن نافع ، حدثنا العلاء بن عبد الرحمن ، سمعت
الحسن بن على قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلوا فى بيوتكم ولا
تتخذوها قبوراً ، ولا تتخذوا بيتى عيداً . صلوا على وصلوها فإن صلواتكم
وسلامكم يبلغنى » .

وروى سعيد بن منصور فى سننه أن عبد الله بن حسن بن حسن بن على بن
أبى طالب رأى رجلاً يكثر الاختلاف إلى قبر النبى صلى الله عليه وسلم قال له :
يا هذا ! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تتخذوا قبرى عيداً ، وصلوا
على حيثما كنتم فإن صلواتكم تبلغنى » فما أنت ورجل بالأندلس منه إلا سواء .

وروى هذا المعنى عن على بن الحسين زين العابدين عن أبيه عن على بن
أبى طالب ، ذكره أبو عبد الله محمد بن الواحد المقدسى الحافظ فى مختاره الذى

هو أصح من صحيح الحاكم . وذكر القاضي عياض عن الحسن بن علي قال :
إذا دخلت فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم
قال « لا تتخذوا بيتي عيداً ، ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً ، وصلوا على حيث كنتم
فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم » .

ومما يوهن هذه الحكاية أنه قال فيها « ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك
ووسيلة أيك آدم إلى الله يوم القيامة » إنما يدل على أنه يوم القيامة تتوسل
الناس بشفاعته وهذا حق كما تواترت به الأحاديث ، لكن إذا كان الناس
يتوسلون بدعائه وشفاعته يوم القيامة كما كان أصحابه يتوسلون بدعائه وشفاعته
في حياته ، فإنما ذاك طلب لدعائه وشفاعته ، فنظير هذا - لو كانت الحكاية صحيحة -
أن يطلب منه الدعاء والشفاعة في الدنيا عند قبره .

ومعلوم أن هذا لم يأمر به النبي صلى الله عليه وسلم ولا سنه لأئمة ، ولا
فعله أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا استحبه أحد من أئمة المسلمين
لا مالك ولا غيره من الأئمة ، فكيف يجوز أن ينسب إلى مالك مثل هذا الكلام
الذي لا يقوله إلا جاهل لا يعرف الأدلة الشرعية ولا الأحكام المعلومة أدلتها
الشرعية ، مع علو قدر مالك وعظم فضيلته وإمامته ، وتمام رغبته في اتباع السنة
وذم البدع وأهلها ، ؟ وهل يأمر بهذا أو يشرعه إلا مبتدع ؟ فلو لم يكن عن مالك
قول يناقض هذا لعلم أنه لا يقول مثل هذا .

ثم قال في الحكاية : « استقبله واستشفع به فيشفعك الله » والاستشفاع به

معناه في اللغة أن يطلب منه الشفاعة كما يستشفع الناس به يوم القيامة ، وكما كان أصحابه يستشفعون به . ومنه الحديث الذي في السنن أن أعرابياً قال : يا رسول الله جهدت الأنفس وجاع العيال ، وهلك المال ، فادع الله لنا فإننا نستشفع بالله عليك ونستشفع بك على الله فسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه وقال « ويحك أتدرى ما تقول ؟ شأن الله أعظم من ذلك ، إنه لا يستشفع به على أحد من خلقه » وذكر تمام الحديث .

فأنكر قوله « نستشفع بالله عليك » ومعلوم أنه لا ينكر أن يسأل المخلوق بالله أو يقسم عليه بالله ، وإنما أنكر أن يكون الله شافعاً إلى المخلوق ولهذا لم ينكر قوله « نستشفع بك على الله » فإنه هو الشافع المشفع .

وهم — لو كانت الحكاية صحيحة — إنما يجيئون إليه لأجل طلب شفاعته صلى الله عليه وسلم ولهذا قال في تمام الحكاية : (وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ) الآية ، وهؤلاء إذا شرع لهم أن يطلبوا منه الشفاعة والاستغفار بعد موته فإذا أجابهم فإنه يستغفر لهم ، واستغفاره لهم دعاء منه وشفاعة أن يغفر الله لهم .

وإذا كان الاستشفاع منه طلب شفاعته فإنما يقال في ذلك « استشفع به فيشفعه الله فيك » لا يقال : فيشفعك الله فيه . وهذا معروف الكلام ، ولغة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وسائر العلماء ، يقال : شفّع فلان في فلان فشفع فيه . فالمشفع الذي يشفعه المشفوع إليه هو الشفيع المستشفع به .

لا السائل الطالب من غيره أن يشفع له ، فإن هذا ليس هو الذى شفع ، فمحمد صلى الله عليه وسلم هو الشفيع المشفع ، ليس المشفع الذى يستشفع به . ولهذا يقول فى دعائه : يارب شفنى ، فيشفعه الله ، فيطلب من الله سبحانه أن يشفعه لا أن يشفع طالبى شفاعته ، فكيف يقول : واستشفع به فيشفعك الله ؟

وأيضاً فإن طلب شفاعته ودعائه واستغفاره بعد موته وعند قبره ليس مشروعاً عند أحد من أئمة المسلمين ، ولا ذكر هذا أحد من الأئمة الأربعة وأصحابهم القدماء ، وإنما ذكر هذا بعض المتأخرين : ذكروا حكاية عن العتي أنه رأى أعرابياً أتى قبره وقرأ هذه الآية وأنه رأى فى المنام أن الله غفر له . وهذا لم يذكره أحد من المجتهدين من أهل المذاهب المتبوعين . الذين يفتى الناس بأقوالهم ، ومن ذكرها لم يذكر عليها دليلاً شرعياً .

ومعلوم أنه لو كان طلب دعائه وشفاعته واستغفاره عند قبره مشروعاً لكان الصحابة والتابعون لهم بإحسان أعلم بذلك وأسبق إليه من غيرهم ، ولكن أئمة المسلمين يذكرون ذلك ، وما أحسن ما قال مالك « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها » قال : ولم يبلغنى عن أول هذه الأمة وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك .

فمثل هذا الإمام كيف يشرع ديناً لم ينقل عن أحد السلف ، ويأمر الأمة أن يطلبوا الدعاء والشفاعة والاستغفار — بعد موت الأنبياء والصالحين — منهم عند قبورهم ، وهو أمر لم يفعله أحد من سلف الأمة ؟

ولكن هذا اللفظ الذى فى الحكاية يشبه لفظ كثير من العامة الذين يستعملون لفظ الشفاعة فى معنى التوسل ، فيقول أحدهم : اللهم إنا نستشفع إليك بفلان وفلان أى تتوسل به . ويقولون لمن توسل فى دعائه بنبي أو غيره « قد تشفع به » من غير أن يكون المستشفع به شفيع له ولا دعا له ، بل وقد يكون غائباً لم يسمع كلامه ولا شفيع له ، وهذا ليس هو لغة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وعلماء الأمة ؛ بل ولا هو لغة العرب ، فإن الاستشفاع طلب الشفاعة . والشافع هو الذى يشفع السائل فيطلب له ما يطلب من المسئول المدعو المشفوع إليه .

وأما الاستشفاع بمن لم يشفع للسائل ولا طلب له حاجة بل وقد لا يعلم بسؤاله ، فليس هذا استشفاعاً لافى اللغة ولا فى كلام من يدرى ما يقول : نعم هذا سؤال به ، ودعاؤه ليس هو استشفاعاً به . ولكن هؤلاء لما غيروا اللغة — كما غيروا الشريعة — وسموا هذا استشفاعاً أى سؤالاً بالشافع صاروا يقولون « استشفع به فيشفعك » أى يجيب سؤالك به ، وهذا مما يبين أن هذه الحكاية وضعها جاهل بالشرع واللغة وليس لفظها من ألفاظ مالك .

نعم قد يكون أصلها صحيحاً ويكون مالك قد نهى عن رفع الصوت فى مسجد الرسول اتباعاً للسنة كما كان عمر ينهى عن رفع الصوت فى مسجده ، ويكون مالك أمر بما أمر الله به من تعزيره وتوقيره ونحو ذلك مما يليق بمالك أن يأمر به .

ومن لم يعرف لغة الصحابة التي كانوا يتخاطبون بها ويخاطبهم بها النبي صلى الله عليه وسلم ، وعادتهم في الكلام ، وإلا حرف الكلم عن مواضعه ، فإن كثيراً من الناس ينشأ على اصطلاح قومه وعادتهم في الألفاظ ثم يجد تلك الألفاظ في كلام الله أو رسوله أو الصحابة فيظن أن مراد الله أو رسوله أو الصحابة بتلك الألفاظ ما يريد به ذلك أهل عادته واصطلاحه ، ويكون مراد الله ورسوله والصحابة خلاف ذلك .

وهذا واقع لطوائف من الناس من أهل الكلام والفقه والنحو والعامّة وغيرهم ، وآخرون يعتمدون وضع ألفاظ الأنبياء وأتباعهم على معاني آخر مخالفة لمعانيهم ، ثم ينطقون بتلك الألفاظ مريدين بها ما يعنونه هم ، ويقولون : إنا موافقون للأنبياء ! وهذا موجود في كلام كثير من الملاحدة المتفلسفة والإسماعيلية ومن ضاهاهم من ملاحدة المتكلمة والمتصوفة ، مثل من وضع « المحدث » و « المخلوق » و « المصنوع » على ما هو معلول وإن كان عنده قديماً أزلياً ، ويسمى ذلك « الحدوث الذاتي » ثم يقول : نحن نقول إن العالم محدث ، وهو مراده . ومعلوم أن لفظ المحدث بهذا الاعتبار ليس لغة أحد من الأمم ، وإنما المحدث عندهم ما كان بعد أن لم يكن .

وكذلك يضعون لفظ « الملائكة » على ما يثبتونه من العقول والنفوس وقوى النفس . ولفظ « الجن » و « الشياطين » على بعض قوى النفس ، ثم يقولون : نحن ثبت ما أخبرت به الأنبياء وأقر به جمهور الناس من الملائكة والجن والشياطين .

ومن عرف مراد الأنبياء ومرادهم علم بالاضطرار أن هذا ليس هو ذاك ،
مثل أن يعلم مرادهم بالعقل الأول وأنه مقارن عندهم لرب العالمين أزلاً وأبداً ،
وأنه مبدع لكل ما سواه ، أو بتوسطه حصل كل ما سواه . والعقل الفعال عندهم
عنه يصدر كل ماتحت فلك القمر ، ويعلم بالاضطرار من دين الأنبياء أنه ليس
من الملائكة عندهم من هو رب كل ما سوى الله ، ولا رب كل ماتحت فلك
القمر ، ولا من هو قديم أزلى أبدى لم يزل ولا يزال .

ويعلم أن الحديث الذى يروى « أول ما خلق الله العقل » حديث باطل عن
النبي صلى الله عليه وسلم مع أنه لو كان حقاً لكان حجة عليهم فإن لفظه « أول
ما خلق الله العقل » بنصب الأول على الظرفية « فقال له : أقبل ، فأقبل . ثم
قال له : أدبر ، فأدبر . فقال : وعزنى ما خلقت خلقاً أكرم على منك ، فبك
آخذ ، وبك أعطى ، وبك الثواب ، وبك العقاب » وروى « لما خلق الله
العقل » فالحديث لو كان ثابتاً كان معناه أنه خاطب العقل فى أول أوقات خلقه ،
وأنه خلق قبل غيره ، وأنه تحصل به هذه الأمور الأربعة لا كل المصنوعات .

و « العقل » فى لغة المسلمين مصدر عقل يعقل عقلاً ، يراد به القوة التى بها
يعقل ، وعلوم وأعمال تحصل بذلك ، لا يراد بها قط فى لغة جوهر قائم بنفسه ،
فلا يمكن أن يراد هذا المعنى بلفظ العقل . مع أننا قد بينا فى مواضع آخر فساد
ما ذكره من جهة العقل الصريح ، وأن ما ذكره من المجردات والمفارقات
ينتهى أمرهم فيه إلى إثبات النفس التى تفارق البدن بالموت ، وإلى إثبات ما تجرده
النفس من المعقولات القائمة بها ، فهذا منتهى ما يثبتونه من الحق فى هذا الباب .

والمقصود هنا أن كثيراً من كلام الله ورسوله يتكلم به من يسلك مسلكهم ،
ويريد مرادهم لا مراد الله ورسوله ، كما يوجد في كلام صاحب (الكتب المضمون
بها) وغيره ، مثل ما ذكره في « اللوح المحفوظ » حيث جعله النفس الفلكية ،
ولفظ « القلم » حيث جعله العقل الأول ، ولفظ « الملكوت » و « الجبروت »
و « الملك » حيث جعل ذلك عبارة عن النفس والعقل ، ولفظ « الشفاعة »
حيث جعل ذلك فيضا يفيض من الشفيع على المستشفع وإن كان الشفيع قد
لا يدري ، وسلك في هذه الأمور ونحوها مسالك ابن سينا كما قد بسط في
موضع آخر .

والمقصود هنا ذكر من يقع ذلك منه من غير تدبر منه للغة الرسول صلى
الله عليه وسلم كلفظ القديم ، فإنه في لغة الرسول التي جاء بها القرآن خلاف
الحديث وإن كان مسبوقا بغيره كقوله تعالى : (حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ) وقال
تعالى عن إخوة يوسف : (تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ) وقوله تعالى :
(أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَاَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ) .

وهو عند أهل الكلام عبارة عما لم يزل أو عما لم يسبقه وجود غيره إن
لم يكن مسبوقا بعدم نفسه ، ويجعلونه — إذا أريد به هذا — من باب المجاز ،
ولفظ « المحدث » في لغة القرآن يقابل للفظ « القديم » في القرآن .

وكذلك لفظ « الكلمة » في القرآن والحديث وسائر لغة العرب إنما
يراد به الجملة التامة ، كقوله صلى الله عليه وسلم « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ،

خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان سبحانه الله وبحمده سبحانه الله العظيم «
وقوله « إن أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة ليد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل » ،
ومنه قوله تعالى : (كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا) ، وقوله
تعالى : (قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) الآية وقوله تعالى :
(وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا) وأمثال ذلك ؛
ولا يوجد لفظ الكلام في لغة العرب إلا بهذا المعنى .

والنحاة اصطلاحوا على أن يسموا (الاسم) وحده (والفعل) (والحرف)
كلمة ، ثم يقول بعضهم : وقد يراد بالكلمة الكلام ؛ فيظن من اعتاد هذا أن هذا هو
لغة العرب ، وكذلك لفظ « ذوى الأرحام » في الكتاب والسنة يراد به الأقارب
من جهة الأبوين فيدخل فيهم العصبه وذوو الفروض ، وإن شمل ذلك من
لا يرث بفرض ولا تعصيب ، ثم صار ذلك في اصطلاح الفقهاء اسماً لهؤلاء
دون غيرهم ، فيظن من لا يعرف إلا ذلك أن هذا هو المراد بهذا اللفظ في كلام
الله ورسوله وكلام الصحابة ، ونظائر هذا كثيرة .

ولفظ « التوسل » و « الاستشفاع » ونحوهما دخل فيها من تغيير لغة
الرسول وأصحابه ما أوجب غلط من غلط عليهم في دينهم ولغتهم .

والعلم يحتاج إلى نقل مصدق ونظر محقق .

والمنقول عن السلف والعلماء يحتاج إلى معرفة بثبوت لفظه ومعرفة دلالاته ،
كما يحتاج إلى ذلك المنقول عن الله ورسوله . فهذا ما يتعلق بهذه الحكاية .

ونصوص الكتاب والسنة متظاهرة بأن الله أمرنا أن نصلي على النبي ونسلم عليه في كل مكان ؛ فهذا مما اتفق عليه المسلمون ، وكذلك رغبتنا وحضنا في الحديث الصحيح على أن نسأل الله له الوسيلة والفضيلة وأن يبعثه مقاما محمودا الذي وعده .

فهذه الوسيلة التي شرع لنا أن نسألها الله تعالى — كما شرع لنا أن نصلي عليه ونسلم عليه — هي حق له ، كما أن الصلاة عليه والسلام حقه صلى الله عليه وسلم .
والوسيلة التي أمرنا الله أن نبتغيها إليه هي التقرب إلى الله بطاعته ، وهذا يدخل فيه كل ما أمرنا الله به ورسوله .

وهذه الوسيلة لا طريق لنا إليها إلا باتباع النبي صلى الله عليه وسلم بالإيمان به وطاعته ، وهذا التوسل به فرض على كل أحد .

وأما التوسل بدعائه وشفاعته — كما يسأله الناس يوم القيامة أن يشفع لهم ، وكما كان الصحابة يتوسلون بشفاعته في الاستسقاء وغيره ، مثل توسل الأعشى بدعائه حتى رد الله عليه بصره بدعائه وشفاعته — فهذا نوع ثالث هو من باب قبول الله دعاءه وشفاعته لكرامته عليه ، فمن شفع له الرسول صلى الله عليه وسلم ودعا له فهو بخلاف من لم يدع له ولم يشفع له .

ولكن بعض الناس ظن أن توسل الصحابة به كان بمعنى أنهم يقسمون به ويسألون به ، فظن هذا مشروعا مطلقا لكل أحد في حياته ومماته ، وظنوا

أن هذا مشروع في حق الأنبياء والملائكة بل وفي الصالحين وفيمن يظن فيهم
الصلاح ، وإن لم يكن صالحا في نفس الأمر .

وليس في الأحاديث المرفوعة في ذلك حديث في شيء من دواوين المسلمين
التي يعتمد عليها في الأحاديث — لا في الصحيحين ولا كتب السنن ولا المسانيد
المعتمدة كمسند الإمام أحمد وغيره — وإنما يوجد في الكتب التي عرف أن فيها
كثيرا من الأحاديث الموضوعة المكذوبة التي يخلقها الكذابون ، بخلاف من
قد يغلط في الحديث ولا يعتمد الكذب ، فإن هؤلاء توجد الرواية عنهم في
السنن ومسند الإمام أحمد ونحوه ، بخلاف من يعتمد الكذب فإن أحمد لم يرو
في مسنده عن أحد من هؤلاء .

ولهذا تنازع الحافظ أبو العلاء الهمداني والشيخ أبو الفرج بن الجوزي :
هل في المسند حديث موضوع ؟ فأنكر الحافظ أبو العلاء أن يكون في المسند
حديث موضوع ، وأثبت ذلك أبو الفرج وبين أن فيه أحاديث قد علم أنها
باطلة ؛ ولا منافاة بين القولين .

فإن الموضوع في اصطلاح أبي الفرج هو الذي قام دليل على أنه باطل وإن
كان المحدث به لم يعتمد الكذب بل غلط فيه ، ولهذا روى في كتابه في الموضوعات
أحاديث كثيرة من هذا النوع ، وقد نازعه طائفة من العلماء في كثير مما ذكره
وقالوا إنه ليس مما يقوم دليل على أنه باطل ، بل بينوا ثبوت بعض ذلك ، لكن
الغالب على ما ذكره في الموضوعات أنه باطل باتفاق العلماء .

وأما الحافظ أبو العلاء وأمثاله فإنما يريدون بالموضوع المخلوق المصنوع
الذى تعتمد صاحبه الكذب ، والكذب كان قليلا فى السلف .

أما الصحابة فلم يعرف فىهم — والله الحمد — من تعتمد الكذب على النبى
صلى الله عليه وسلم ، كما لم يعرف فىهم من كان من أهل البدع المعروفة كبذع
الخوارج والرافضة والقدرية والمرجئة ، فلم يعرف فىهم أحد من هؤلاء الفرق .

ولا كان فىهم من قال إنه أتاه الخضر ، فإن خضر موسى مات كما بين هذا
فى غير هذا الموضع ، والخضر الذى يأتى كثيرا من الناس إنما هو جنى تصور
بصورة إنسى أو إنسى كذاب ، ولا يجوز أن يكون ملكا مع قوله أنا الخضر ،
فإن الملك لا يكذب وإنما يكذب الجنى والإنسى . وأنا أعرف من أتاه الخضر
وكان جنيا مما يطول ذكره فى هذا الموضع . وكان الصحابة أعلم من أن يروج
عليهم هذا التلبیس .

وكذلك لم يكن فىهم من حملته الجن إلى مكة وذهبت به إلى عرفات ليقف
بها كما فعلت ذلك بكثير من الجهال والعباد وغيرهم ، ولا كان فىهم من تسرق الجن
أموال الناس وطعامهم وتأتيه به فيظن أن هذا من باب الكرامات كما قد بسط
الكلام على ذلك فى مواضع .

وأما التابعون فلم يعرف تعتمد الكذب فى التابعين من أهل مكة والمدينة
والشام والبصرة ، بخلاف الشيعة فإن الكذب معروف فىهم ، وقد عرف
الكذب بعد هؤلاء فى طوائف .

وأما الغلط فلا يسلم منه أكثر الناس ، بل في الصحابة من قد يغلط أحيانا
وفيمن بعدهم .

ولهذا كان فيما صنف في الصحيح أحاديث يعلم أنها غلط وإن كان جمهور
متون الصحيحين مما يعلم أنه حق .

فالحافظ أبو العلاء يعلم أنها غلط ، والإمام أحمد نفسه قد بين ذلك وبين
أنه رواها لتعرف ، بخلاف ما تعتمد صاحبه الكذب ؛ ولهذا نزه أحمد مسنده
عن أحاديث جماعة يروى عنهم أهل السنن كأبي داود والترمذي مثل مشيخة
كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده ، وإن كان أبو
داود يروى في سننه منها ، فشرط أحمد في مسنده أجود من شرط أبي داود
في سننه .

والمقصود أن هذه الأحاديث التي تروى في ذلك من جنس أمثالها من
الأحاديث الغريبة المنكرة بل الموضوعة التي يرويها من يجمع في الفضائل
والمناقب الغث والسمين ، كما يوجد مثل ذلك فيما يصنف في فضائل الأوقات ،
وفضائل العبادات ، وفضائل الأنبياء والصحابة ، وفضائل البقاع ، ونحو ذلك ، فإن
هذه الأبواب فيها أحاديث صحيحة وأحاديث حسنة وأحاديث ضعيفة وأحاديث
كذب موضوعة ؛ ولا يجوز أن يعتمد في الشريعة على الأحاديث الضعيفة التي
ليست صحيحة ولا حسنة ، لكن أحمد بن حنبل وغيره من العلماء جوزوا أن
يروى في فضائل الأعمال ما لم يعلم أنه ثابت إذا لم يعلم أنه كذب .

وذلك أن العمل إذا علم أنه مشروع بدليل شرعى وروى فى فضله حديث لا يعلم أنه كذب جاز أن يكون الثواب حقا ، ولم يقل أحد من الأئمة إنه يجوز أن يجعل الشيء واجبا أو مستحبا بحديث ضعيف ، ومن قال هذا فقد خالف الإجماع .

وهذا كما أنه لا يجوز أن يحرم شيء إلا بدليل شرعى ، لكن إذا علم تحريمه ، وروى حديث فى وعيد الفاعل له ، ولم يعلم أنه كذب جاز أن يرويه ، فيجوز أن يروى فى الترغيب والترهيب ما لم يعلم أنه كذب ، لكن فيما علم أن الله رغب فيه أو رهب منه بدليل آخر غير هذا الحديث المجهول حاله .

وهذا كالإسرائيليات : يجوز أن يروى منها ما لم يعلم أنه كذب للترغيب والترهيب فيما علم أن الله تعالى أمر به فى شرعنا ونهى عنه فى شرعنا . فأما أن يثبت شرعا لنا بمجرد الإسرائيليات التى لم تثبت فهذا لا يقوله عالم ، ولا كان أحمد ابن حنبل ولا أمثاله من الأئمة يعتمدون على مثل هذه الأحاديث فى الشريعة .

ومن نقل عن أحمد أنه كان يحتج بالحديث الضعيف الذى ليس بصحيح ولا حسن فقد غلط عليه ، ولكن كان فى عرف أحمد بن حنبل ومن قبله من العلماء أن الحديث ينقسم إلى نوعين : صحيح ، وضعيف . والضعيف عندهم ينقسم إلى ضعيف متروك لا يحتج به ، وإلى ضعيف حسن ؛ كما أن ضعف الإنسان بالمرض ينقسم إلى مرض مخوف يمنع التبرع من رأس المال وإلى ضعيف خفيف لا يمنع من ذلك .

وأول من عرف أنه قسم الحديث ثلاثة أقسام - صحيح ، وحسن ، وضعيف - هو أبو عيسى الترمذى فى جامعہ . والحسن عنده ما تعددت طرقه ولم يكن فى رواته متهم وليس بشاذ . فهذا الحديث وأمثاله يسميه أحمد ضعيفاً ويحتج به ، ولهذا مثل أحمد الحديث الضعيف الذى يحتج به بحديث عمرو ابن شعيب وحديث إبراهيم الهجرى ونحوهما . وهذا مبسوط فى موضعه .

والأحاديث التى تروى فى هذا الباب - وهو السؤال بنفس المخلوقين - هى من الأحاديث الضعيفة الواهية بل الموضوعة ، ولا يوجد فى أئمة الإسلام من احتج بها ولا اعتمد عليها ، مثل الحديث الذى يروى عن عبد الملك ابن هارون بن عذرة عن أبيه عن جده أن أبا بكر الصديق أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : إني أتعلم القرآن ويتفلى منى . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قل : اللهم إني أسألك بمحمد نبيك ، وبإبراهيم خليلك ، وبموسى نبيك ، وعيسى روحك وكلمتك ، وبتوراة موسى وإنجيل عيسى وزبور داود وفرقان محمد ، وبكل وحى أوحىته وقضاء قضيته » وذ كر تمام الحديث .

وهذا الحديث ذكره رزين بن معاوية العبدري فى جامعہ ونقله ابن الأثير فى جامع الأصول ولم يعزه لا هذا ولا هذا إلى كتاب من كتب المسلمين ، لكنه قد رواه من صنف فى عمل (اليوم والليلة) كابن السنى وأبى نعيم ، وفى مثل هذه الكتب أحاديث كثيرة موضوعة لا يجوز الاعتماد عليها فى الشريعة باتفاق العلماء . وقد رواه أبو الشيخ الأصبهاني فى كتاب فضائل الأعمال ، وفى هذا

الكتاب أحاديث كثيرة كذب موضوعة ورواه أبو موسى المديني من حديث زيد بن الحباب عن عبد الملك بن هارون بن عنترة وقال هذا حديث حسن مع أنه ليس بالمتصل ، قال أبو موسى : ورواه محرز بن هشام عن عبد الملك عن أبيه عن جده عن الصديق رضى الله عنه ، وعبد الملك ليس بذاك القوى وكان بالرى ، وأبوه وجده ثقتان .

قلت : عبد الملك بن هارون بن عنترة من المعروفين بالكذب . قال يحيى ابن معين : هو كذاب . وقال السعدى : دجال كذاب . وقال أبو حاتم بن حبان : يضع الحديث . وقال النسائي : متروك . وقال البخارى : منكر الحديث . وقال أحمد بن حنبل : ضعيف . وقال ابن عدى : له أحاديث لا يتابعه عليها أحد . وقال الدارقطنى : هو وأبوه ضعيفان . وقال الحاكم فى (كتاب المدخل) : عبد الملك ابن هارون بن عنترة الشيباني روى عن أبيه أحاديث موضوعة : وأخرجه أبو الفرج بن الجوزى فى كتاب (الموضوعات) وقول الحافظ أبى موسى « هو منقطع » يريد أنه لو كان رجاله ثقات فإن إسناده منقطع .

وقد روى عبد الملك هذه الأحاديث الأخر المناسبة لهذا فى استفتاح أهل الكتاب به كما سيأتى ذكره وخالف فيه عامة مانقله المفسرون وأهل السير وما دل عليه القرآن ، وهذا يدل على ما قاله العلماء فيه : من أنه متروك إما لعدم الكذب وإما لسوء حفظه ، وتبين أنه لا حجة لا فى هذا ولا فى ذاك .

ومثل ذلك الحديث الذى رواه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه

عن جده عن عمر بن الخطاب مرفوعاً وموقوفاً عليه « إنه لما اقترف آدم الخطيئة قال : يارب أسألك بحق محمد لما غفرت لي ، قال : وكيف عرفت محمدآ ؟ قال : لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلبت أنك لم تضيف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك . قال : صدقت يا آدم ، ولو لا محمد ما خلقتك » وهذا الحديث رواه الحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن مسلم الفهرى عن إسماعيل بن سلمة عنه . قال الحاكم : وهو أول حديث ذكرته لعبد الرحمن في هذا الكتاب ، وقال الحاكم : هو صحيح .

ورواه الشيخ أبو بكر الآجورى في كتاب الشريعة موقوفاً على عمر من حديث عبد الله بن إسماعيل بن أبي مريم عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم موقوفاً ، ورواه الآجورى أيضاً من طريق آخر من حديث عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه موقوفاً عليه ، وقال حدثنا هارون بن يوسف التاجر ، حدثنا أبو مروان العثماني ، حدثني أبو عثمان بن خالد عن عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه أنه قال : « من الكلمات التي تاب الله بها على آدم قال : اللهم إني أسألك بحق محمد عليك . قال الله تعالى : وما يدريك ما محمد ؟ قال : يارب رفعت رأسي فرأيت مكتوباً على عرشك : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فعلبت أنه أكرم خلقك » .

قلت : ورواية الحاكم لهذا الحديث مما أنكر عليه ، فإنه نفسه قد قال في (كتاب المدخل إلى معرفة الصحيح من السقيم) : عبد الرحمن بن زيد بن أسلم

روى عن أبيه أحاديث موضوعة لا تخفى على من تأملها من أهل الصنعة
أن الحمل فيها عليه .

قلت : وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف باتفاقهم يغلط كثيراً ، ضعفه
أحمد بن حنبل وأبو زرعة وأبو حاتم والنسائي والدارقطني وغيرهم ، وقال
أبو حاتم بن حبان : كان يقلب الأخبار وهو لا يعلم ، حتى كثر ذلك من روايته
من رفع المراسيل وإسناد الموقوف فاستحق الترك .

وأما تصحيح الحاكم لمثل هذا الحديث وأمثاله فهذا مما أنكره عليه أئمة العلم
بالحديث وقالوا : إن الحاكم يصحح أحاديث وهي موضوعة مكذوبة عند أهل
المعرفة بالحديث ، كما صحح حديث زريب بن برثملى : الذى فيه ذكر وصى المسيح
وهو كذب باتفاق أهل المعرفة كما بين ذلك البيهقي وابن الجوزى وغيرهما ،
وكذلك أحاديث كثيرة فى مستدركه يصححها وهي عند أئمة أهل العلم بالحديث
موضوعة ، ومنها ما يكون موقوفا يرفعه .

ولهذا كان أهل العلم بالحديث لا يعتمدون على مجرد تصحيح الحاكم وإن
كان غالب ما يصححه فهو صحيح ، لكن هو فى المصححين بمنزلة الثقة الذى يكثر
غلطه وإن كان الصواب أغلب عليه . وليس فيمن يصحح الحديث أضعف من
تصحيحه ، بخلاف أبي حاتم بن حبان البستي فإن تصحيحه فوق تصحيح الحاكم
وأجل قدرا ، وكذلك تصحيح الترمذى والدارقطني وابن خزيمة وابن مندة
وأمثالهم فيمن يصحح الحديث .

فإن هؤلاء وإن كان في بعض ما ينقلونه نزاع فهم أتقن في هذا الباب من الحاكم ، ولا يبلغ تصحيح الواحد من هؤلاء مبلغ تصحيح مسلم ، ولا يبلغ تصحيح مسلم مبلغ تصحيح البخاري ، بل كتاب البخاري أجل ما صنف في هذا الباب ؛ والبخاري من أعرف خلق الله بالحديث وعلمه مع فقهه فيه ، وقد ذكر الترمذي أنه لم ير أحدا أعلم بالعلل منه ، ولهذا كان من عادة البخاري إذا روى حديثا اختلف في إسناده أو في بعض ألفاظه أن يذكر الاختلاف في ذلك لئلا يغتر بذكره له بأنه إنما ذكره مقرونا بالاختلاف فيه .

ولهذا كان جمهور ما أنكر على البخاري مما صححه يكون قوله فيه راجحا على قول من نازعه . بخلاف مسلم بن الحجاج فإنه نوزع في عدة أحاديث مما خرجها وكان الصواب فيها مع من نازعه ، كما روى في حديث الكسوف أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى بثلاث ركوعات وبأربع ركوعات كما روى أنه صلى بركوعين .

والصواب أنه لم يصل إلا بركوعين ، وأنه لم يصل الكسوف إلا مرة واحدة يوم مات إبراهيم ، وقد بين ذلك الشافعي ، وهو قول البخاري وأحمد ابن حنبل في إحدى الروايتين عنه ، والأحاديث التي فيها الثلاث والأربع فيها أنه صلاها يوم مات إبراهيم . ومعلوم أنه لم يمت في يوم كسوف ، ولا كان له إبراهيم . ومن نقل أنه مات عاشر الشهر فقد كذب ، وكذلك روى مسلم « خلق الله التربة يوم السبت » ونازعه فيه من هو أعلم منه كيحيى بن معين والبخاري وغيرهما فينبوا أن هذا غلط ليس هذا من كلام النبي صلى الله عليه وسلم .

والحجة مع هؤلاء ، فإنه قد ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام ، وأن آخر ما خلقه هو آدم وكان خلقه يوم الجمعة ، وهذا الحديث المختلف فيه يقتضى أنه خلق ذلك في الأيام السبعة ، وقد روى إسناده أصح من هذا أن أول الخلق كان يوم الأحد ، وكذلك روى أن أبا سفيان لما أسلم طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يتزوج بأم حبيبة وأن يتخذ معاوية كاتباً وغلطه في ذلك طائفة من الحفاظ .

ولكن جمهور متون الصحيحين متفق عليها بين أئمة الحديث تلقوها بالقبول وأجمعوا عليها وهم يعلمون علماً قطعياً أن النبي صلى الله عليه وسلم قالها . وبسط الكلام في هذا له موضع آخر .

وهذا الحديث المذكور في آدم يذكره طائفة من المصنفين بغير إسناده وما هو من جنسه مع زيادات أخر ، كما ذكر القاضي عياض قال : وحكى أبو محمد المكي وأبو الليث السمرقندي وغيرهما « أن آدم عند معصيته قال : اللهم بحق محمد اغفر لي خطيئتي — قال ويروى تقبل توبتي — فقال الله له : من أين عرفت محمداً؟ قال رأيت في كل موضع من الجنة مكتوباً : لا إله إلا الله محمد رسول الله » قال ويروى : « محمد عبدي ورسولي ، فعلت أنه أكرم خلقك عليك ؛ فتاب عليه وغفر له » .

ومثل هذا لا يجوز أن تبني عليه الشريعة ولا يحتج به في الدين باتفاق المسلمين ؛ فإن هذا من جنس الإسرائيليات ونحوها التي لا تعلم صحتها إلا بنقل

ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذه لو نقلها مثل كعب الأحبار ووهب ابن منبه وأمثالهما ممن ينقل أخبار (المبتدأ ، وقصص المتقدمين) عن أهل الكتاب لم يجز أن يحتج بها في دين المسلمين باتفاق المسلمين ؛ فكيف إذا نقلها من لا ينقلها لا عن أهل الكتاب ولا عن ثقات علماء المسلمين ؟ بل إنما ينقلها عن هو عند المسلمين مجروح ضعيف لا يحتج بحديثه ، واضطرب عليه فيها اضطراباً يعرف به أنه لم يحفظ ذلك .

ولا ينقل ذلك ولا ما يشبهه أحد من ثقات علماء المسلمين الذين يعتمد على نقلهم ، وإنما هي من جنس ما ينقله إسحاق بن بشر وأمثاله في (كتب المبتدأ) ، وهذه لو كانت ثابتة عن الأنبياء لكانت شرعاً لهم ، وحينئذ فكان الاحتجاج بها مبنياً على أن شرع من قبلنا هل هو شرع لنا أم لا ؟ والنزاع في ذلك مشهور . لكن الذي عليه الأئمة وأكثر العلماء أنه شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه ، وهذا إنما هو فيما ثبت أنه شرع لمن قبلنا من نقل ثابت عن نبينا صلى الله عليه وسلم ، أو بما تواتر عنهم لا بما يروى على هذا الوجه فإن هذا لا يجوز أن يحتج به في شرع المسلمين أحد من المسلمين .

ومن هذا الباب حديث ذكره موسى بن عبد الرحمن الصنعاني صاحب التفسير بإسناده عن ابن عباس مرفوعاً أنه قال : « من سره أن يوعيه الله حفظ القرآن وحفظ أصناف العلم فليكتب هذا الدعاء في إناء نظيف أو في صحف قوارير بعسل وزعفران وماء مطر وليشربه على الريق ، وليصم ثلاثة أيام وليكن إفطاره عليه ، ويدعوه به في أدبار صلواته : اللهم إني أسألك بأنك مسئول لم يسأل

مثلك ولا يسأل ، وأسألك بحق محمد نبيك وإبراهيم خليلك وموسى نبيك وعيسى روحك وكلمتك ووجهك » وذكر تمام الدعاء .

وموسى بن عبد الرحمن هذا من الكذابين ، قال أبو أحمد بن عدى فيه : منكر الحديث . وقال أبو حاتم بن حبان : دجال يضع الحديث ، وضع على ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس كتاباً فى التفسير جمعه من كلام الكلبي ومقاتل ، ويروى نحو هذا — دون الصوم — عن ابن مسعود من طريق موسى بن إبراهيم المروزى حدثنا وكيع عن عبيدة عن شقيق عن ابن مسعود وموسى بن إبراهيم هذا قال فيه يحيى بن معين : كذاب ، وقال الدار قطنى : متروك ، وقال ابن حبان : كان مغفلاً يلحن فيتلحن فاستحق الترك . ويروى هذا عن عمر ابن عبد العزيز عن مجاهد بن جبر عن ابن مسعود بطريق أضعف من الأول .

ورواه أبو الشيخ الأصبهاني من حديث أحمد بن إسحاق الجوهري : حدثنا أبو الأشعث ، حدثنا زهير بن العلاء العتيبي حدثنا يوسف بن يزيد عن الزهري ورفع الحديث قال « من سره أن يحفظ فليصم سبعة أيام وليكن إفطاره فى آخر الأيام السبعة على هؤلاء الكلمات » . قلت : وهذه أسانيد مظلمة لا يثبت بها شيء .

وقد رواه أبو موسى المدينى فى أماليه وأبو عبد الله المقدسى على عادة أمثالهم فى رواية ما يروى فى الباب سواء كان صحيحاً أو ضعيفاً كما اعتاده أكثر المتأخرين من المحدثين أنهم يروون ما روى به الفضائل ويجعلون العهدة

فى ذاك على الناقل كما هى عادة المصنفين فى فضائل الأوقات والأمكنة والأشخاص والعبادات .

كما يرويه أبو الشيخ الأصبهاني فى فضائل الأعمال وغيره حيث يجمع أحاديث كثيرة لكثرة روايته ، وفيها أحاديث كثيرة قوية صحيحة وحسنة ، وأحاديث كثيرة ضعيفة موضوعة وواهية .

وكذلك ما يرويه خيشمة بن سليمان فى فضائل الصحابة ، وما يرويه أبو نعيم الأصبهاني فى (فضائل الخلفاء) فى كتاب مفرد وفى أول (حلية الأولياء) ، وما يرويه أبو الليث السمرقندى وعبد العزيز الكنانى ، وأبو على بن البناء وأمثالهم من الشيوخ ، وما يرويه أبو بكر الخطيب ، وأبو الفضل بن ناصر ، وأبو موسى المدينى ، وأبو القاسم بن عساكر ، والحافظ عبد الغنى ، وأمثالهم ممن لهم معرفة بالحديث ، فإنهم كثيراً ما يروون فى تصانيفهم ما روى مطلقاً على عادتهم الجارية ؛ ليعرف ما روى فى ذلك الباب لا ليحتج بكل ما روى ، وقد يتكلم أحدهم على الحديث ويقول : غريب ، ومنكر ، وضعيف ؛ وقد لا يتكلم .

وهذا بخلاف أئمة الحديث الذين يحتجون به ، ويبنون عليه دينهم ؛ مثل مالك بن أنس ، وشعبة بن الحجاج ، ويحيى بن سعيد القطان ، وعبد الرحمن بن مهدي ، وسفيان بن عيينة ، وعبد الله بن المبارك ، ووكيع بن الجراح ، والشافعى وأحمد بن حنبل ، وإسحاق بن راهويه ، وعلى بن المدينى ، والبخارى ، وأبى زرعة وأبى حاتم ، وأبى داود ، ومحمد بن نصر المروزى ، وابن خزيمة وابن المنذر ، وداود بن على ، ومحمد بن جرير الطبرى ، وغير هؤلاء ؛ فإن هؤلاء الذين

يننون الأحكام على الأحاديث يحتاجون أن يجتهدوا في معرفة صحيحها وضعيفها وتمييز رجالها .

وكذلك الذين تكلموا في الحديث والرجال ؛ ليميزوا بين هذا وهذا لأجل معرفة الحديث ؛ كما يفعل أبو أحمد بن عدى ، وأبو حاتم البستي ، وأبو الحسن الدار قطنى ، وأبو بكر الإسماعيلي وكما قد يفعل ذلك أبو بكر البيهقي ، وأبو إسماعيل الأنصارى ، وأبو القاسم الزنجاني ، وأبو عمر بن عبد البر ، وأبو محمد ابن حزم ، وأمثال هؤلاء ؛ فإن بسط هذه الأمور له موضع آخر . ولم نذكر من لا يروى بإسناد - مثل كتاب (وسيلة المتعبدين) لعمر الملا الموصلى وكتاب (الفردوس) لشهر يار الديلى ، وأمثال ذلك - فإن هؤلاء دون هؤلاء الطبقات ؛ وفيما يذكرونه من الأكاذيب أمر كبير .

والمقصود هنا : أنه ليس في هذا الباب حديث واحد مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم يعتمد عليه في مسألة شرعية باتفاق أهل المعرفة بحديثه ؛ بل المروى في ذلك إنما يعرف أهل المعرفة بالحديث أنه من الموضوعات إما تعمداً من واضعه وإما غلطاً منه .

وفي الباب آثار عن السلف أكثرها ضعيفة .

فمنها حديث الأربعة الذين اجتمعوا عند الكعبة وسألوا ؛ وهم عبد الله ومصعب ابنا الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الملك بن مروان ، وذكره ابن أبي الدنيا في كتاب (مجايب الدعاء) ورواه من طريق إسماعيل بن أبان الغنوى

عن سفيان الثوري عن طارق بن عبد العزيز عن الشعبي أنه قال : « لقد رأيت عجباً ! كنا بفناء الكعبة أنا وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ومصعب بن الزبير وعبد الملك بن مروان ؛ فقال القوم بعد أن فرغوا من حديثهم : ليقم كل رجل منكم فليأخذ بالركن اليماني ، ويسأل الله حاجته فإنه يعطى من سعة . ثم قالوا : قم يا عبد الله بن الزبير فإنك أول مولود في الإسلام بعد الهجرة ، فقام فأخذ بالركن اليماني ثم قال : اللهم إنك عظيم ترجي لكل عظيم ؛ أسألك بحرمة وجهك وحرمة عرشك وحرمة نبيك أن لا تميتني من الدنيا حتى توليني الحجاز ، ويسلم علي بالخلافة ؛ ثم جاء فجلس .

ثم قام مصعب فأخذ بالركن اليماني ثم قال : اللهم إنك رب كل شيء ، وإليك يصير كل شيء ، أسألك بقدرتك على كل شيء ، ألا تميتني من الدنيا حتى توليني العراق ، وتزوجني بسكينة بنت الحسين .

ثم قام عبد الملك بن مروان فأخذ بالركن اليماني ثم قال : اللهم رب السموات السبع ، ورب الأرض ذات النبت بعد القفر ، أسألك بما سألك به عبادك المطيعون لأمرك ، وأسألك بحقك على خلقك وبحق الطائفين حول عرشك « إلى آخره .

قلت : وإسماعيل بن أبان الذي روى هذا عن سفيان الثوري كذاب ، قال أحمد بن حنبل : كتبت عنه ، ثم حدث بأحاديث موضوعة فتركناه . وقال يحيى ابن معين : وضع حديثاً على السابع من ولد العباس يلبس الخضره يعنى المأمون

وقال البخارى ومسلم وأبو زرعة والدارقطنى : متروك . وقال الجوزجاني : ظهر منه على الكذب . وقال أبو حاتم : كذاب . وقال ابن حبان : يضع على الثقات . وطارق بن عبدالعزيز الذى ذكر أن الثورى روى عنه لا يعرف من هو . قال : فإن طارق بن عبد العزيز المعروف الذى روى عنه ابن عجلان ليس من هذه الطبقة .

وقد خولف فيها فرواها أبو نعيم عن الطبرانى : حدثنا أحمد بن زيد بن الجريش ، حدثنا أبو حاتم السجستاني ، حدثنا الأصمعى قال : حدثنا عبد الرحمن ابن أبي الزناد عن أبيه قال : « اجتمع فى الحجر مصعب وعروة وعبد الله أبناء الزبير وعبد الله بن عمر فقالوا : تمنوا . فقال عبد الله بن الزبير : أما أنا فأتمنى الخلافة ، وقال عروة : أما أنا فأتمنى أن يؤخذ عني العلم ، وقال مصعب : أما أنا فأتمنى إمرة العراق ، والجمع بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين ، وقال عبد الله بن عمر : أما أنا فأتمنى المغفرة . قال : فقال كلهم ما تمنوا ، ولعل ابن عمر قد غفر له . »

قلت : وهذا إسناد خير من ذاك الإسناد باتفاق أهل العلم ، وليس فيه سؤال بالمخلوقات .

وفى الباب حكايات عن بعض الناس أنه رأى مناما قيل له فيه : ادع بكذا وكذا ، ومثل هذا لا يجوز أن يكون دليلا باتفاق العلماء ، وقد ذكر بعض هذه الحكايات من جمع الأدعية ، وروى فى ذلك أثر عن بعض السلف مثل ما رواه

ابن أبي الدنيا في كتاب (مجاى الدعاء) ، قال : حدثنا أبو هاشم ، سمعت كثير بن محمد ابن كثير بن رفاعة يقول : جاء رجل إلى عبد الملك بن سعيد بن أبجر فجس بطنه فقال : بك داء لا يبرأ . قال : ما هو ؟ قال : الدبيلة . قال فتحول الرجل فقال : الله ، الله ، الله ربى لا أشرك به شيئاً ، اللهم إنى أتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة صلى الله عليه وسلم تسليماً ، يا محمد إنى أتوجه بك إلى ربك وربى يرحمنى مما بى . قال فجس بطنه فقال : قد برئت ، ما بك علة .

قلت : فهذا الدعاء ونحوه قد روى أنه دعا به السلف ، ونقل عن أحمد بن حنبل فى منسك المروذى التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم فى الدعاء ، ونها عنه آخرون . فإن كان مقصود المتوسلين التوسل بالإيمان به وبمحبتة وبموالاته وبطاعته فلا نزاع بين الطائفتين ، وإن كان مقصودهم التوسل بذاته فهو محل النزاع ، وما تنازعوا فيه يرد إلى الله والرسول .

وليس مجرد كون الدعاء حصل به المقصود ما يدل على أنه سائغ فى الشريعة ، فإن كثيراً من الناس يدعون من دون الله من الكواكب والمخلوقين ويحصل ما يحصل من غرضهم ، وبعض الناس يقصدون الدعاء عند الأوثان والكنائس وغير ذلك ، ويدعو التماثيل التى فى الكنائس ويحصل ما يحصل من غرضه ، وبعض الناس يدعو بأدعية محرمة باتفاق المسلمين ويحصل ما يحصل من غرضهم .

فصول الغرض ببعض الأمور لا يستلزم إباحته ، وإن كان الغرض مباحاً

فإن ذلك الفعل قد يكون فيه مفسدة راجحة على مصلحته ، والشرعية جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسد وتقليلها ، وإلا فجميع المحرمات من الشرك والخمر والميسر والفواحش والظلم قد يحصل لصاحبه به منافع ومقاصد ، لكن لما كانت مفسدها راجحة على مصالحها نهى الله ورسوله عنها كما أن كثيرا من الأمور كالعبادات والجهاد وإنفاق الأموال قد تكون مضرّة ، لكن لما كانت مصلحته راجحة على مفسدته أمر به الشارع .

فهذا أصل يجب اعتباره ، ولا يجوز أن يكون الشيء واجبا أو مستحبا إلا بدليل شرعي يقتضى إيجابه أو استحبابه . والعبادات لا تكون إلا واجبة أو مستحبة ، فما ليس بواجب ولا مستحب فليس بعبادة . والدعاء لله تعالى عبادة إن كان المطلوب به أمرا مباحا .

وفي الجملة فقد نقل عن بعض السلف والعلماء السؤال به ، بخلاف دعاء الموتى والغائبين من الأنبياء والملائكة والصالحين والاستغاثة بهم والشكوى إليهم ، فهذا مما لم يفعله أحد من السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا رخص فيه أحد من أئمة المسلمين .

وحديث الأعمى الذي رواه الترمذى والنسائى هو من القسم الثانى من التوسل بدعائه ، فإن الأعمى قد طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعوه له بأن يرد الله عليه بصره . فقال له « إن شئت صبرت وإن شئت دعوت لك » فقال . بل ادعه ، فأمره أن يتوضأ ويصلى ركعتين ويقول : « اللهم إني أسألك

بنبيك نبي الرحمة ، يا محمد يا رسول الله ، إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه ليقضيها ، اللهم فشفعه في « فهذا توسل بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعته ، ودعا له النبي صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قال : « وشفعه في » فسأل الله أن يقبل شفاعته رسوله فيه وهو دعاؤه .

وهذا الحديث ذكره العلماء في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ودعائه المستجاب ، وما أظهر الله ببركة دعائه من الخوارق والإبراء من العاهات ، فإنه صلى الله عليه وسلم ببركة دعائه لهذا الأعمى أعاد الله عليه بصره .

وهذا الحديث — حديث الأعمى — قد رواه المصنفون في دلائل النبوة كالبيهقي وغيره : رواه البيهقي من حديث عثمان بن عمر عن شعبة عن أبي جعفر الخطمي ، قال : سمعت عمارة بن خزيمة بن ثابت يحدث عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضريرا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ادع الله أن يعافيني ، فقال له « إن شئت أخرت ذلك فهو خير لك ، وإن شئت دعوت » قال فادعه « فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء ويصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه فيقضيها لي ، اللهم فشفعه في وشفعني فيه » قال فقام وقد أبصر ، ومن هذا الطريق رواه الترمذي من حديث عثمان بن عمر .

ومنها ما رواه النسائي وابن ماجه أيضا وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبي جعفر وهو غير الخطمي ، هكذا وقع في الترمذي ، وسائر العلماء قالوا هو أبو جعفر الخطمي وهو الصواب ،

وأيضاً فالترمذى ومن معه لم يستوعبوا لفظه كما استوعبه سائر العلماء بل روه إلى قوله « اللهم شفعه فى » .

قال الترمذى : حدثنا محمود بن غيلان ، حدثنا عثمان بن عمر ، حدثنا شعبة عن أبى جعفر عن عمارة بن خزيمة بن ثابت عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضريراً البصر أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ادع الله أن يعافىنى قال « إن شئت صبرت فهو خير لك » قال فادعه ، قال « فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء : اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة ، يا محمد إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى هذه لتقضى ، اللهم شفعه فى » . قال البيهقى : رويناه فى (كتاب الدعوات) بإسناد صحيح عن روح بن عبادة عن شعبة ، قال : ففعل الرجل فبرأ ، قال : وكذلك رواه حماد بن سلمة عن أبى جعفر الخطمى .

قلت : ورواه الإمام أحمد فى مسنده عن روح بن عبادة كما ذكره البيهقى ، قال أحمد : حدثنا روح بن عبادة حدثنا شعبة عن أبى جعفر المدينى : سمعت عمارة بن خزيمة بن ثابت يحدث عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضريراً أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبى الله ادع الله أن يعافىنى ، قال « إن شئت أخرت ذلك فهو خير لآخرتك ، وإن شئت دعوت لك » قال : لا بل ادع الله لى « فأمره أن يتوضأ وأن يصلى ركعتين وأن يدعو بهذا الدعاء : اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة ، يا محمد إنى أتوجه بك إلى الله فى حاجتى هذه ، فتقضى لى وتشفعنى فيه وتشفعه فى » قال ففعل الرجل فبرئ .

رواه البيهقي أيضاً من حديث شبيب بن سعيد الحبطي عن روح بن القاسم
عن أبي جعفر المديني - وهو الخطمي - عن أبي أمامة سهل بن حنيف عن عثمان
ابن حنيف قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاءه رجل ضرير
يشتكي إليه ذهاب بصره فقال يا رسول الله ليس لي قائد وقد شق علي ، فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم « ائت الميضاة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل :
اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك
إلى ربي فيجلى عن بصري ، اللهم فشفعه فيّ وشفعني في نفسي » قال عثمان
ابن حنيف : والله ما تفرقنا ولا طال الحديث بنا حتى دخل الرجل كأنه
لم يكن به ضر قط .

فرواية شبيب عن روح عن أبي جعفر الخطمي خالفت رواية شعبة وحماد
ابن سلمة في الإسناد والمتن ؛ فإن في تلك أنه رواه أبو جعفر عن عمارة بن خزيمة
وفي هذه أنه رواه عن أبي أمامة سهل ، وفي تلك الرواية أنه قال : فشفعه فيّ
وشفعني فيه ، وفي هذه وشفعني في نفسي . لكن هذا الإسناد له شاهد آخر من
رواية هشام الدستوائي عن أبي جعفر .

ورواه البيهقي من هذا الطريق وفيه قصة قد يحتاج بها من توسل به بعد
موته — إن كانت صحيحة — رواه من حديث إسماعيل بن شبيب بن سعيد
الحبطي عن شبيب بن سعيد عن روح بن القاسم عن أبي جعفر المديني عن
أبي أمامة سهل بن حنيف أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة له
وكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته ، فلقى الرجل عثمان بن حنيف

فشكا إليه ذلك فقال له عثمان بن حنيف : ائت الميضاة فتوضأ ثم ائت المسجد فصل ركعتين ثم قل : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنينا محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي فيقضى لي حاجتي ، ثم اذكر حاجتك ثم رح حتى أروح معك . قال فانطلق الرجل فصنع ذلك ، ثم أتى بعد عثمان بن عفان فجاء الباب فأخذ يبيده فأدخله على عثمان فأجلسه معه على الطنفسة وقال : انظر ما كانت لك من حاجة . فذكر حاجته فقضاها له .

ثم إن الرجل خرج من عنده فلقى عثمان بن حنيف فقال له : جزاك الله خيراً ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إلى حتى كلمته في : فقال عثمان ابن حنيف : ما كلمته ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : وجاءه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « أو تصبر ؟ » فقال له : يا رسول الله ليس لي قائد وقد شق عليّ ، فقال « ائت الميضاة فتوضأ وصل ركعتين ثم قل : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه إلى ربي فيجلى لي عن بصرى ، اللهم فشفعه في وشفعني في نفسي » قال عثمان بن حنيف فوالله ماتفرقنا وما طال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط .

قال البيهقي : ورواه أحمد بن شبيب بن سعيد عن أبيه بطوله وساقه من رواية يعقوب بن سفيان عن أحمد بن شبيب بن سعيد . قال : ورواه أيضاً هشام الدستوائي عن أبي جعفر عن أبي أمامة بن سهل عن عمه - وهو عثمان ابن حنيف - ولم يذكر إسناد هذه الطرق .

قلت : وقد رواه النسائي في كتاب (عمل اليوم والليلة) من هذه الطريق من حديث معاذ بن هشام عن أبيه عن أبي جعفر عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف . ورواه أيضاً من حديث شعبة وحماد بن سلمة كلاهما عن أبي جعفر عن عمارة بن خزيمة ، ولم يروه أحد من هؤلاء — لا الترمذي ولا النسائي ولا ابن ماجه — من تلك الطريق الغريبة التي فيها الزيادة : طريق شيب بن سعيد عن روح بن القاسم .

لكن رواه الحاكم في مستدركه من الطريقين فرواه من حديث عثمان بن عمر : حدثنا شعبة عن أبي جعفر المدني سمعت عمارة بن خزيمة يحدث عن عثمان ابن حنيف أن رجلاً ضريراً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ادع الله أن يعافيني فقال : « إن شئت أخرت ذلك فهو خير لك ، وإن شئت دعوت » قال : فادعه . فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء : « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه ، اللهم فشفعه في وشفعني فيه » قال الحاكم على شرطهما .

ثم رواه من طريق شيب بن سعيد الخطبي وعون بن عمارة عن روح ابن القاسم عن أبي جعفر الخطمي المدني عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم وجاءه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره وقال : يا رسول الله ليس لي قائد وقد شق علي ، فقال : « ائت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك

محمد نبى الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربى فيجلى لى عن بصرى ، اللهم فشفعه
فى وشفعنى فى نفسى « قال عثمان فوالله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل
الرجل وكأن لم يكن به ضر قط . قال الحاكى : على شرط البخارى .

وشيب هذا صدوق روى له البخارى ، ولكنه قد روى له عن روح بن
الفرج أحاديث مناكير رواها ابن وهب ، وقد ظن أنه غلط عليه . ولكن قد يقال
مثل هذا إذا انفرد عن الثقات الذين هم أحفظ منه مثل شعبة وحماد بن سلية
وهشام الدستوائى بزيادة كان ذلك عليه فى الحديث ؛ لا سيما وفى هذه الرواية أنه
قال « فشفعه فى وشفعنى فى نفسى » وأولئك قالوا « فشفعه فى وشفعنى فيه »
ومعنى قوله « وشفعنى فيه » أى فى دعائه وسؤاله لى فيطابق قوله « وشفعه فى » .

قال أبو أحمد بن عدى فى كتابه المسمى (بالكامل فى أسماء الرجال) - ولم يصنف
فى فنه مثله - : شيب بن سعيد الحبلى أبو سعيد البصرى التميمى حدث عنه ابن
وهب بالمناكير ، وحدث عن يونس عن الزهرى بنسخة الزهرى أحاديث
مستقيمة ، وذكر عن على بن المدينى أنه قال : هو بصرى ثقة كان من أصحاب
يونس ، كان يختلف فى تجارة إلى مصر وجاء بكتاب صحيح ، قال : وقد كتبها عنه
ابنه أحمد بن شيب . وروى عن عدى حديثين عن ابن وهب عن شيب هذا
عن روح بن الفرغ :

أحدهما : عن ابن عقيل عن سابق بن ناجية عن ابن سلام قال : مر بنا
رجل فقالوا إن هذا قد خدم النبى صلى الله عليه وسلم .

والثاني عنه عن روح بن الفرغ عن عبد الله بن الحسين عن أمه فاطمة حديث دخول المسجد ، قال ابن عدى : كذا قيل في الحديث عن عبد الله بن الحسين عن أمه فاطمة بنت الحسين عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال ابن عدى . ولشبيب بن سعيد نسخة الزهرى عنده عن يونس عن الزهرى وهى أحاديث مستقيمة . وحدث عنه ابن وهب بأحاديث مناكير .

وحدثني روح بن الفرغ اللذين أمليتهما يرويهما ابن وهب عن شبيب ، وكان شبيب بن سعيد إذا روى عنه ابنه أحمد بن شبيب نسخة الزهرى : ليس هو شبيب بن سعيد الذى يحدث عنه ابن وهب بالمناكير التى يرويهـا عنه ، ولعل شبيباً بمصر فى تجارته إليها كتب عنه ابن وهب من حفظه فيغلط ويهم ، وأرجو أن لا يعتمد شبيب هذا الكذب .

قلت : هذان الحديثان اللذان أنكرهما ابن عدى عليه : رواهما عن روح ابن القاسم وكذلك هذا الحديث حديث الأعمى رواه عن روح بن القاسم . وهذا الحديث مما رواه عنه ابن وهب أيضاً كما رواه عنه ابنه ، لكنه لم يتقن لفظه كما أتقنه ابنه .

وهذا يصحح ما ذكره ابن عدى فعلم أنه محفوظ عنه ، وابن عدى أحال الغلط عليه لا على ابن وهب ، وهذا صحيح إن كان قد غلط ، وإذا كان قد غلط على روح بن القاسم فى ذينك الحديثين أمكن أن يكون غلط عليه فى هذا الحديث ، وروح بن القاسم ثقة مشهور روى له الجماعة فلهذا لم يحيلوا الغلط عليه .

والرجل قد يكون حافظا لما يرويه عن شيخ ؛ غير حافظ لما يرويه عن آخر : مثل إسماعيل بن عياش فيما يرويه عن الحجازيين ؛ فإنه يغلط فيه ؛ بخلاف ما يرويه عن الشاميين . ومثل سفيان بن حسين فيما يرويه عن الزهري . ومثل هذا كثير ، فيحتمل أن يكون هذا يغلط فيما يرويه عن روح بن القاسم — إن كان الأمر كما قاله ابن عدي — وهذا محل نظر .

وقد روى الطبراني هذا الحديث في المعجم من حديث ابن وهب عن شبيب بن سعيد : ورواه من حديث أصبغ بن الفرج : حدثنا عبد الله بن وهب عن شبيب بن سعيد المكي عن روح بن القاسم عن أبي جعفر الخطمي المدني عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن عمه عثمان بن حنيف أن رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان في حاجة له ، فلقى عثمان بن حنيف فشكا إليه ذلك ، فقال له عثمان ابن حنيف : ائت الميضاة فتوضأ ثم ائت المسجد فصل فيه ركعتين ثم قل : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنينا محمد صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك عز وجل فيقضى لي حاجتي ! وتذكر حاجتك ، ورح حتى أروح معك ، فانطلق الرجل فصنع ما قال له ، ثم أتى باب عثمان بن عفان فأجلسه معه على الطنفسة ، وقال : حاجتك ، فذكر حاجته فقضاها له ، ثم قال له : ما ذكرت حاجتك حتى كانت هذه الساعة ، وقال : ما كانت لك من حاجة فائتنا .

ثم إن الرجل خرج من عنده فلقى عثمان بن حنيف فقال له جزاك الله خيرا ما كان ينظر في حاجتي ولا ياتفت إلى حتى كلمته في . فقال له عثمان بن حنيف :

والله ما كلمته، ولكن شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتاه ضرير فشكا إليه ذهاب بصره فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : أفتصبر ؟ فقال : يا رسول الله إنه ليس لي قائد وقد شق علي ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « انت الميضاة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم ادع بهذه الدعوات » فقال عثمان بن حنيف : فوالله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط .

قال الطبراني روى هذا الحديث شعبة عن أبي جعفر واسمه عمر بن يزيد وهو ثقة تفرد به عثمان بن عمر عن شعبة ، قال أبو عبد الله المقدسي : والحديث صحيح .

قلت والطبراني ذكر تفرده بمبلغ عليه ولم تبلغه رواية روح بن عبادة عن شعبة وذلك إسناد صحيح : يبين أنه لم ينفرد به عثمان بن عمر ، وطريق ابن وهب هذه تؤيد ما ذكره ابن عدي ، فإنه لم يحرر لفظ الرواية كما حررها ابنه ؛ بل ذكر فيها أن الأعمى دعا بمثل ما ذكره عثمان بن حنيف ، وليس كذلك بل في حديث الأعمى أنه قال « اللهم فشفعه في وشفعني فيه - أو قال - في نفسي » .

وهذه لم يذكرها ابن وهب في روايته ، فيشبه أن يكون حدث ابن وهب من حفظه كما قال ابن عدي فلم يتقن الرواية . وقد روى أبو بكر بن أبي خيثمة في تاريخه حديث حماد بن سلمة فقال : حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا حماد بن سلمة ، أنا أبو جعفر الخطمي عن عمارة بن خزيمة عن عثمان بن حنيف أن

رجلا أعمى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إني أصبت في بصرى فادع الله لي قال « اذهب فتوضأ وصل ركعتين ثم قل : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبي محمد نبي الرحمة . يا محمد أستشفع بك على ربي في رد بصرى ، اللهم فشفعني في نفسي وشفع نبي في رد بصرى ، وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك » فرد الله عليه بصره .

قال ابن أبي خيثمة : وأبو جعفر هذا - الذي حدث عنه حماد بن سلمة - اسمه عمير بن يزيد وهو أبو جعفر الذي يروى عنه شعبة ، ثم ذكر الحديث من طريق عثمان بن عمر عن شعبة . قلت : وهذه الطريق فيها « فشفعني في نفسي » مثل طريق روح بن القاسم ، وفيها زيادة أخرى وهي قوله : « وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك - أو قال - فعل مثل ذلك » .

وهذه قد يقال : إنها توافق قول عثمان بن حنيف ، لكن شعبة وروح بن القاسم أحفظ من حماد بن سلمة ، واختلاف الألفاظ يدل على أن مثل هذه الرواية قد تكون بالمعنى وقوله « وإن كانت حاجة فعل مثل ذلك » قد يكون مدرجا من كلام عثمان لا من كلام النبي صلى الله عليه وسلم فإنه لم يقل « وإن كانت لك حاجة فعلت مثل ذلك » بل قال « وإن كانت حاجة فعل مثل ذلك » .

وبالجملة فهذه الزيادة لو كانت ثابتة لم يكن فيها حجة ، وإنما غايتها أن يكون عثمان بن حنيف ظن أن الدعاء يدعى ببعضه دون بعض ، فإنه لم يأمره بالدعاء المشروع ؛ بل ببعضه ، وظن أن هذا مشروع بعد موته صلى الله عليه وسلم ، ولفظ الحديث يناقض ذلك ، فإن في الحديث أن الأعمى سأل النبي صلى الله عليه وسلم

أن يدعو له ، وأنه علم الأعمى أن يدعو وأمره في الدعاء أن يقول « اللهم فشفعه في » وإنما يدعى بهذا الدعاء إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم داعياً شافعاً له بخلاف من لم يكن كذلك ، فهذا يناسب شفاعته ودعائه للناس في حياته في الدنيا ويوم القيامة إذا شفع لهم .

وفيه أيضاً أنه قال « وشفعني فيه » وليس المراد أنه يشفع للنبي صلى الله عليه وسلم في حاجة للنبي صلى الله عليه وسلم - وإن كنا مأمورين بالصلاة والسلام عليه ، وأمرنا أن نسأل الله له الوسيلة ، ففي صحيح البخاري عن جابر ابن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من قال إذا سمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته . حلت له شفاعتي يوم القيامة » .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليّ ، فإن من صلى على صلاة صلى الله عليه عشرآ ، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة » .

وسؤال الأمة له الوسيلة هو دعاء له وهو معنى الشفاعة ، ولهذا كان الجزاء من جنس العمل ، فمن صلى عليه صلى الله عليه ، ومن سأل الله له الوسيلة المتضمنة لشفاعته شفع له صلى الله عليه وسلم ، كذلك الأعمى سأل منه الشفاعة

فأمره أن يدعو الله بقبول هذه الشفاعة وهو كالشفاعة في الشفاعة ؛ فلهذا قال :
اللهم فشفعه في وشفعني فيه .

وذلك أن قبول دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في مثل هذا هو من كرامة
الرسول على ربه ، ولهذا عد هذا من آياته ودلائل نبوته ؛ فهو كشفاعته يوم
القيامة في الخلق ، ولهذا أمر طالب الدعاء أن يقول « فشفعه في وشفعني فيه »
بخلاف قوله « وشفعني في نفسي » فإن هذا اللفظ لم يروه أحد إلا من هذا
الطريق الغريب .

وقوله « وشفعني فيه » رواه عن شعبة رجلان جليلان : عثمان بن عمر ،
وروح بن عبادة . وشعبة أجل من روى هذا الحديث ، ومن طريق عثمان
ابن عمر عن شعبة رواه الثلاثة : الترمذي والنسائي وابن ماجه : رواه الترمذي
عن محمود بن غيلان عن عثمان بن عمر عن شعبة .

ورواه ابن ماجه عن أحمد بن سيار عن عثمان بن عمر ، وقد رواه أحمد
في المسند عن روح بن عبادة عن شعبة ، فكان هؤلاء أحفظ للفظ الحديث . مع
أن قوله « وشفعني في نفسي » إن كان محفوظاً مثل ما ذكرناه ، وهو أنه طلب
أن يكون شافعاً لنفسه مع دعاء النبي صلى الله عليه وسلم ولو لم يدع له النبي
صلى الله عليه وسلم كان سائلاً مجرداً كسائر السائلين .

ولا يسمى مثل هذا شفاعة وإنما تكون الشفاعة إذا كان هناك اثنان

يطلبان أمراً فيكون أحدهما شافعاً للآخر بخلاف الطالب الواحد الذي لم يشفع غيره .

فهذه الزيادة فيها عدة علل : انفراد هذا بها عن هو أكبر وأحفظ منه وإعراض أهل السنن عنها ، واضطراب لفظها ، وأن راويها عرف له — عن روح هذا — أحاديث منكرة .

ومثل هذا يقتضى حصول الريب والشك في كونها ثابتة ، فلا حجة فيها ، إذ الاعتبار بما رواه الصحابي لا بما فهمه إذا كان اللفظ الذي رواه لا يدل على ما فهمه بل على خلافه .

ومعلوم أن الواحد بعد موته إذا قال : اللهم فشفعه في وشفعني فيه — مع أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يدع له — كان هذا كلاماً باطلاً ؛ مع أن عثمان ابن حنيف لم يأمره أن يسأل النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً ولا أن يقول فشفعه في ، ولم يأمره بالدعاء المأثور على وجهه ، وإنما أمره ببعضه ، وليس هناك من النبي صلى الله عليه وسلم شفاعته ولا ما يظن أنه شفاعته ؛ فلو قال بعد موته « فشفعه في » لكان كلاماً لا معنى له ، ولهذا لم يأمر به عثمان .

والدعاء المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر به ، والذي أمر به ليس مأثوراً عن النبي صلى الله عليه وسلم .

ومثل هذا لا تثبت به شريعة كسائر ما ينقل عن آحاد الصحابة في جنس العبادات أو الإباحات أو الإيجابات أو التحريمات إذا لم يوافقه غيره من

الصحابة عليه - وكان ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم يخالفه لا يوافقه -
لم يكن فعله سنة يجب على المسلمين اتباعها ، بل غايته أن يكون ذلك مما يسوغ
فيه الاجتهاد وما تنازعت فيه الأمة فيجب رده إلى الله والرسول .

ولهذا نظائر كثيرة : مثل ما كان ابن عمر يدخل الماء في عينيه
في الوضوء ، ويأخذ لأذنيه ماء جديداً ، وكان أبو هريرة يغسل يديه إلى
العضدين في الوضوء ويقول : من استطاع أن يطيل غرته فليفعل ، وروى عنه
أنه كان يمسح عنقه ويقول هو موضع الغل . فإن هذا وإن استحبه طائفة من
العلماء اتباعاً لهما فقد خالفهم في ذلك آخرون وقالوا : سائر الصحابة لم يكونوا
يتوضئون هكذا .

والوضوء الثابت عنه صلى الله عليه وسلم الذي في الصحيحين وغيرهما من
غير وجه ليس فيه أخذ ماء جديد للأذنين ، ولا غسل ما زاد على المرفقين
والكعبين ، ولا مسح العنق ، ولا قال النبي صلى الله عليه وسلم : من استطاع أن
يطيل غرته فليفعل . بل هذا من كلام أبي هريرة جاء مدرجاً في بعض
الأحاديث ، وإنما قال النبي صلى الله عليه وسلم « إنكم تأتون يوم القيامة غراً
محجلين من آثار الوضوء » ، وكان صلى الله عليه وسلم يتوضأ حتى يشرع في
العضد والساق ، قال أبو هريرة : من استطاع أن يطيل غرته فليفعل ، وظن من
ظن أن غسل العضد من إطالة الغرة ، وهذا لا معنى له فإن الغرة في الوجه لا في
اليدين والرجل ، وإنما في اليدين والرجل الحجلة . والغرة لا يمكن إطالتها فإن الوجه

يغسل كله لا يغسل الرأس ولا غرة في الرأس ، والحجلة لا يستحب إطالتها ، وإطالتها مثله .

وكذلك ابن عمر كان يتحرى أن يسير مواضع سير النبي صلى الله عليه وسلم وينزل مواضع منزله ويتوضأ في السفر حيث رآه يتوضأ ويصب فضل مائه على شجرة صب عليها ، ونحو ذلك مما استحبه طائفة من العلماء ورأوه مستحبا ، ولم يستحب ذلك جمهور العلماء ؛ كما لم يستحبه ولم يفعله أكابر الصحابة كآبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود ومعاذ بن جبل وغيرهم ، لم يفعلوا مثل ما فعل ابن عمر . ولو رأوه مستحبا لفعلوه كما كانوا يتحرون متابعتهم والاقتراء به .

وذلك لأن المتابعة أن يفعل مثل ما فعل على الوجه الذي فعل ، فإذا فعل فعلا على وجه العبادة شرع لنا أن نفعله على وجه العبادة ، وإذا قصد تخصيص مكان أو زمان بالعبادة خصصناه بذلك ، كما كان يقصد أن يطوف حول الكعبة ، وأن يستلم الحجر الأسود ، وأن يصلي خلف المقام ، وكان يتحرى الصلاة عند اسطوانة مسجد المدينة ، وقصد الصعود على الصفا والمروة ، والدعاء ، والذكر هناك ، وكذلك عرفة ومزدلفة وغيرهما .

وأما ما فعله بحكم الاتفاق ولم يقصده — مثل أن ينزل بمكان ويصلي فيه لكونه نزله لا قصدا لتخصيصه به بالصلاة والنزول فيه — فإذا قصدنا تخصيص ذلك المكان بالصلاة فيه ، أو النزول لم نكن متبعين ، بل هذا من البدع التي

كان ينهى عنها عمر بن الخطاب ؛ كما ثبت بالإسناد الصحيح من حديث شعبة عن سليمان التيمي عن المعروف بن سويد ، قال : كان عمر بن الخطاب في سفر ف صلى الغداة ثم أتى على مكان فجعل الناس يأتونه فيقولون : صلى فيه النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فقال عمر : إنما هلك أهل الكتاب أنهم اتبعوا آثار أنبيائهم فاتخذوها كنائس ويعابا ، فمن عرضت له الصلاة فليصل ، وإلا فليمض .

فلما كان النبي صلى الله عليه وسلم لم يقصد تخصيصه بالصلاة فيه بل صلى فيه لأنه موضع نزوله رأى عمر أن مشاركته في صورة الفعل من غير موافقة له في قصده ليس متابعة ، بل تخصيص ذلك المكان بالصلاة من بدع أهل الكتاب التي هلكوا بها ، ونهى المسلمين عن التشبه بهم في ذلك ، ففاعل ذلك متشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم في الصورة ومتشبه باليهود والنصارى في القصد الذي هو عمل القلب .

وهذا هو الأصل ، فإن المتابعة في السنة أبلغ من المتابعة في صورة العمل ، ولهذا لما اشتبه على كثير من العلماء جلسة الاستراحة : هل فعلها استحباباً أو لحاجة عارضة تنازعوا فيها ، وكذلك نزوله بالمحصب عند الخروج من منى لما اشتبه : هل فعله لأنه كان أسمع لخروجه أو لكونه سنة ؟ تنازعوا في ذلك .

ومن هذا وضع ابن عمر يده على مقعد النبي صلى الله عليه وسلم ، وتعريف ابن عباس بالبصرة وعمرو بن حريث بالكوفة ، فإن هذا لما لم يكن

مما يفعله سائر الصحابة ، ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم شرعه لأئمة ، لم يمكن أن يقال هذا سنة مستحبة ، بل غايته أن يقال : هذا مما ساغ فيه اجتهاد الصحابة ، أو مما لا ينكر على فاعله لأنه مما يسوغ فيه الاجتهاد ، لا لأنه سنة مستحبة سنّها النبي صلى الله عليه وسلم لأئمة ، أو يقال في التعريف : إنه لا بأس به أحياناً لعارض إذا لم يجعل سنة راتبة .

وهكذا يقول أئمة العلم في هذا وأمثاله : تارة يكرهونه ، وتارة يسوغون فيه الاجتهاد ، وتارة يرخصون فيه إذا لم يتخذ سنة ، ولا يقول عالم بالسنة : إن هذه سنة مشروعة للمسلمين .

فإن ذلك إنما يقال فيما شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ ليس لغيره أن يسن ولا أن يشرع ، وما سنه خلفاؤه الراشدون فإنما سنوه بأمره فهو من سنّته ، ولا يكون في الدين واجباً إلا ما أوجبه ، ولا حراماً إلا ما حرّمه ، ولا مستحباً إلا ما استحبه ، ولا مكروهاً إلا ما كرهه ، ولا مباحاً إلا ما أباحه .

وهكذا في الإباحات ، كما استباح أبو طلحة أكل البرد وهو صائم ، واستباح حذيفة السحور بعد ظهور الضوء المنتشر حتى قيل هو النهار ، إلا أن الشمس لم تطلع . وغيرهما من الصحابة لم يقل بذلك ، فوجب الرد إلى الكتاب والسنة .

وكذلك الكراهة والتحريم ، مثل كراهة عمر وابنه للطيب قبل الطواف بالبيت ، وكراهة من كره من الصحابة فسخ الحج إلى التمتع ، أو التمتع مطلقاً ؛

أو رأى تقدير مسافة القصر بحد حده ، وأنه لا يقصر بدون ذلك ؛ أو رأى أنه ليس للمسافر أن يصوم في السفر .

ومن ذلك قول سليمان : إن الرقيق نجس ، وقول ابن عمر : إن الكتابة لا يجوز نكاحها ، وتورث معاذ ومعاوية للمسلم من الكافر ، ومنع عمر وابن مسعود للجنب أن يتيمم ، وقول علي وزيد وابن عمر في المفوضة : إنه لا مهر لها إذا مات الزوج ، وقول علي وابن عباس في المتوفى عنها الحامل : إنها تعتد أبعد الأجلين ، وقول ابن عمر وغيره : إن المحرم إذا مات بطل إحرامه وفعل به ما يفعل بالحلال .

وقول ابن عمر وغيره : لا يجوز الاشتراط في الحج ، وقول ابن عباس وغيره في المتوفى عنها : ليس عليها لزوم المنزل ، وقول عمر وابن مسعود : إن المتبوتة لها السكنى والنفقة . وأمثال ذلك مما تنازع فيه الصحابة ، فإنه يجب فيه الرد إلى الله والرسول ، ونظائر هذا كثيرة فلا يكون شريعة للأمة إلا ما شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن قال من العلماء « إن قول الصحابي حجة » فإنما قاله إذا لم يخالفه غيره من الصحابة ولا عرف نص يخالفه ، ثم إذا اشتهر ولم ينكروه كان إقراراً على القول ، فقد يقال « هذا إجماع إقرارى » إذا عرف أنهم أقروه ولم ينكروه أحد منهم ، وهم لا يقرون على باطل .

وأما إذا لم يشتهر فهذا إن عرف أن غيره لم يخالفه فقد يقال « هو حجة » .

وأما إذا عرف أنه خالفه فليس بحجة بالاتفاق ، وأما إذا لم يعرف هل وافقه غيره أو خالفه لم يجزم بأحدهما ، ومتى كانت السنة تدل على خلافه كانت الحجة في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لافياً يخالفها بلا ريب عند أهل العلم .

وإذا كان كذلك فمعلوم أنه إذا ثبت عن عثمان بن حنيف أو غيره أنه جعل من المشروع المستحب أن يتوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد موته من غير أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم داعياً له ولا شافعاً فيه فقد علمنا أن عمر وأكابر الصحابة لم يروا هذا مشروعاً بعد مماته كما كان يشرع في حياته ، بل كانوا في الاستسقاء في حياته يتوسلون به ، فلما مات لم يتوسلوا به .

بل قال عمر في دعائه الصحيح المشهور الثابت باتفاق أهل العلم بمحضر من المهاجرين والأنصار في عام الرمادة المشهور لما اشتد بهم الجذب حتى حلف عمر لا يأكل سمناً حتى يخلصب الناس ، ثم لما استسقى بالعباس قال : « اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنينا فقسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نينا فاسقنا » فيسقون . وهذا دعاء أقره عليه جميع الصحابة ولم ينكره أحد مع شهرته ، وهو من أظهر الإجماعات الإقرارية .

ودعا بمثله معاوية بن أبي سفيان في خلافته لما استسقى بالناس .

فلو كان توسلهم بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد مماته كتوسلهم به في حياته لقالوا : كيف تتوسل بمثل العباس ويزيد بن الأسود ونحوهما ؟ ونعدل عن التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم الذي هو أفضل الخلائق وهو أفضل الوسائل

وأعظمها عند الله ؟ ، فلما لم يقل ذلك أحد منهم ، وقد علم أنهم في حياته إنما توسلوا بدعائه وشفاعته ، وبعد مماته توسلوا بدعاء غيره وشفاعة غيره ، علم أن المشروع عندهم التوسل بدعاء المتوسل به لا بذاته .

وحديث الأعمى حجة لعمر وعامة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، فإنه إنما أمر الأعمى أن يتوسل إلى الله بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم ودعائه لا بذاته ، وقال له في الدعاء : « قل اللهم فشفعه في » .

وإذا قدر أن بعض الصحابة أمر غيره أن يتوسل بذاته لا بشفاعته ولم يأمر بالدعاء المشروع بل ببعضه وترك سائر المتضمن للتوسل بشفاعته ، كان ما فعله عمر بن الخطاب هو الموافق لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان المخالف لعمر محجوجاً بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الحديث الذي رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم حجة عليه لا له ، والله أعلم .

وأما القسم الثالث مما يسمى « توسلاً » فلا يقدر أحد أن ينقل فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً يحتاج به أهل العلم — كما تقدم بسط الكلام على ذلك — وهو الإقسام على الله عز وجل بالأنبياء والصالحين أو السؤال بأنفسهم ، فإنه لا يقدر أحد أن ينقل فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً ثابتاً لا في الإقسام أو السؤال به . ولا في الإقسام أو السؤال بغيره من المخلوقين .

وإن كان في العلماء من سوغه فقد ثبت عن غير واحد من العلماء أنه نهى

عنه ، فتكون مسألة نزاع كما تقدم بيانه ، فيرد ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله ، ويبدى كل واحد حجته كما في سائر مسائل النزاع ، وليس هذا من مسائل العقوبات بإجماع المسلمين ، بل المعاقب على ذلك معتد جاهل ظالم ، فإن القائل بهذا قد قال ما قالت العلماء ، والمنكر عليه ليس معه نقل يجب اتباعه لا عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن الصحابة ، وقد ثبت أنه لا يجوز القسم بغير الله ، لا بالأنبياء ولا بغيرهم كما سبق بسط الكلام في تقرير ذلك .

وقد اتفق العلماء على أنه لا يجوز لأحد أن ينذر لغير الله لا لنبى ولا لغير نبى ، وأن هذا النذر شرك لا يوفى به .

وكذلك الحلف بالمخلوقات لا تتعده اليمين ، ولا كفارة فيه ، حتى لو حلف بالنبي صلى الله عليه وسلم لم تتعده يمينه كما تقدم ذكره ، ولم يجب عليه كفارة عند جمهور العلماء كمالك والشافعى وأبى حنيفة وأحمد فى إحدى الروايتين ، بل نهى عن الحلف بهذه اليمين .

فإذا لم يحز أن يحلف بها الرجل ولا يقسم بها على مخلوق فكيف يقسم بها على الخالق جل جلاله ؟ .

وأما السؤال به من غير إقسام به فهذا أيضا مما منع منه غير واحد من العلماء ، والسنن الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين تدل على ذلك ، فإن هذا إنما يفعله على أنه قرينة وطاعة وأنه مما يستجاب به الدعاء . وما كان من هذا النوع فإما أن يكون واجبا وإما أن يكون مستحبا ،

وكل ما كان واجبا أو مستحبا في العبادات والأدعية فلا بد أن يشرعه النبي صلى الله عليه وسلم لأئمة ، فإذا لم يشرع هذا لأئمة لم يكن واجبا ولا مستحبا ولا يكون قرينة وطاعة ولا سببا لإجابة الدعاء ، وقد تقدم بسط الكلام على هذا كله .

فمن اعتقد ذلك في هذا أو في هذا فهو ضال وكانت بدعته من البدع السيئة وقد تبين بالأحاديث الصحيحة وما استقرئ من أحوال النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين أن هذا لم يكن مشروعا عندهم .

وأیضا فقد تبين أنه سؤال لله تعالى بسبب لا يناسب إجابة الدعاء ، وأنه كالسؤال بالكعبة والطور والكرسى والمساجد وغير ذلك من المخلوقات ، ومعلوم أن سؤال الله بالمخلوقات ليس هو مشروعا كما أن الإقسام بها ليس مشروعا بل هو منهي عنه .

فكما أنه لا يسوغ لأحد أن يحلف بمخلوق فلا يحلف على الله بمخلوق ولا يسأله بنفس مخلوق ؛ وإنما يسأل بالأسباب التي تناسب إجابة الدعاء كما تقدم تفصيله .

لكن قد روى في جواز ذلك آثار وأقوال عن بعض أهل العلم ، ولكن ليس في المنقول عن النبي صلى الله عليه وسلم شيء ثابت بل كلها موضوعة .

وأما النقل عن من ليس قوله حجة فبعضه ثابت وبعضه ليس بثابت ، والحديث الذي رواه أحمد وابن ماجه وفيه : « بحق السائلين عليك وبحق

ممشى هذا « رواه أحمد عن وكيع عن فضيل بن مرزوق عن عطية عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من قال إذا خرج إلى الصلاة : اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشى هذا فإني لم أخرج له أشراً ولا بطراً ، ولا رياء ولا سمعة ، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك ، أسألك أن تنقذني من النار وأن تدخلني الجنة وأن تغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له وأقبل الله عليه بوجهه حتى يقضى صلاته » .

وهذا الحديث هو من رواية عطية العوفي عن أبي سعيد ، وهو ضعيف بإجماع أهل العلم ، وقد روى من طريق آخر وهو ضعيف أيضاً ، ولفظه لا حجة فيه ، فإن حق السائلين عليه أن يجيبهم وحق العابدين أن يثيبهم ، وهو حق أحقه الله تعالى على نفسه الكريمة بوعده الصادق باتفاق أهل العلم ، وبإيجابه على نفسه في أحد أقوالهم ، وقد تقدم بسط الكلام على ذلك .

وهذا بمنزلة الثلاثة الذين سألوهم في الغار بأعمالهم : فإنه سأله هذا بیره العظيم لوالديه ، وسأله هذا بعفته العظيمة عن الفاحشة ، وسأله هذا بأدائه العظيم للأمانة ، لأن هذه الأعمال أمر الله بها ، ووعده الجزاء لأصحابها ، فصار هذا كما حكاه عن المؤمنين بقوله : (رَبَّنَا إِنَّا أَسْمَعُ مَا نَدِيَّا نُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ) وقال تعالى : (إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُوا رَبَّنَا ءَامِنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ)

وقال تعالى : (قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

الْأَنْهَرُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ *
الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (

وكان ابن مسعود يقول في السحر : اللهم دعوتني فأجبت ، وأمرتني فأطعت ، وهذا سحر فاغفر لي .

وأصل هذا الباب أن يقال : الإقسام على الله بشيء من المخلوقات ، أو السؤال له به ، إما أن يكون مأموراً به إيجاباً أو استحباباً ، أو منهيًا عنه نهي تحريم أو كراهة ، أو مباحاً لا مأموراً به ولا منهيًا عنه .

وإذا قيل : إن ذلك مأمور به أو مباح ، فإما أن يفرق بين مخلوق ومخلوق أو يقال : بل يشرع بالمخلوقات المعظمة أو ببعضها . فمن قال إن هذا مأمور به أو مباح في المخلوقات جميعها : لزم أن يسأل الله تعالى بشياطين الإنس والجن فهذا لا يقوله مسلم .

فإن قال : بل يسأل بالمخلوقات المعظمة كالمخلوقات التي أقسم بها في كتابه ، لزم من هذا أن يسأل بالليل إذا يغشى ، والنهار إذا تجلى ، والذكر والأنثى ، والشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ، ونفس وما سواها — ويسأل الله تعالى ويقسم عليه بالخنس الجوار الكنس ، والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس ، ويسأل بالذاريات ذرواً ، فالحاملات وقرأ ، فالجاريات يسرا فالمقسمات أمراً — ويسأل بالطور ، وكتاب مسطور ، في رق منشور والبيت المعمور ، والسقف المرفوع

والبحر المسجور - ويسأل ويقسم عليه بالصفات صفا ، وسائر ما أقسم الله به في كتابه .

فإن الله يقسم بما يقسم به من مخلوقاته لأنها آياته ومخلوقاته . فهي دليل على ربوبيته وألوهيته ووحدانيته وعلمه وقدرته ومشيبته ورحمته وحكمته وعظمته وعزته ، فهو سبحانه يقسم بها لأن إقسامه بها تعظيم له سبحانه .

ونحن المخلوقون ليس لنا أن نقسم بها بالنص والإجماع . بل ذكر غير واحد الإجماع على أنه لا يقسم بشيء من المخلوقات وذكروا إجماع الصحابة على ذلك ، بل ذلك شرك منهى عنه .

ومن سأل الله بها : لزمه أن يسأله بكل ذكر وأنى ، وبكل نفس ألهمها فجورها وتقواها ، ويسأله بالرياح ، والسحاب ، والكواكب ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والتين والزيتون ، وطور سينين ، ويسأله بالبلد الأمين مكة ، ويسأله حينئذ بالبيت ، والصفاء والمروة ، وعرفة ، ومزدلفة ، ومنى ، وغير ذلك من المخلوقات ، ويلزم أن يسأله بالمخلوقات التي عبدت من دون الله ؛ كالشمس والقمر والكواكب والملائكة والمسيح والعزير وغير ذلك مما عبد من دون الله وما لم يعبد من دونه .

ومعلوم أن السؤال لله بهذه المخلوقات أو الإقسام عليه بها من أعظم البدع المنكرة في دين الإسلام ، وما يظهر قبحه للنخاص والعام .

ويلزم من ذلك أن يقسم على الله تعالى بالأقسام والعزائم التي تكتب في

الحروز والهياكل التي تكتبها الطريقة والمعزمون ؛ بل ويقال : إذا جاز السؤال والإقسام على الله بها فعلى المخلوقات أولى ، فحينئذ تكون العزائم ، والإقسام التي يقسم بها على الجن مشروعة في دين الإسلام ، وهذا الكلام يستلزم الكفر والخروج من دين الإسلام بل ومن دين الأنبياء أجمعين .

وإن قال قائل : بل أنا أسأله أو أقسم عليه بمعظم دون معظم من المخلوقات ، إما الأنبياء دون غيرهم أو نبي دون غيره ، كما يجوز بعضهم الحلف بذلك ، أو بالأنبياء والصالحين دون غيرهم .

قل له : بعض المخلوقات وإن كان أفضل من بعض فكلها مشتركة في أنه لا يجعل شيء منها ندا لله تعالى ، فلا يعبد ولا يتوكل عليه ولا يخشى ولا يتقى ولا يصام له ولا يسجد له ولا يرغب إليه ، ولا يقسم بمخلوق ، كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من كان حالفاً فليحلف بالله ، أو ليصمت » وقال « لا تحلفوا إلا بالله » وفي السنن عنه أنه قال « من حلف بغير الله فقد أشرك » .

فقد ثبت بالنصوص الصحيحة الصريحة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يجوز الحلف بشيء من المخلوقات ، لا فرق في ذلك بين الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم ولا فرق بين نبي ونبي .

وهذا كما قد سوى الله تعالى بين جميع المخلوقات في ذم الشرك بها وإن كانت معظمة . قال تعالى : (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ

ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ () وَقَالَ تَعَالَى : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) .

قالت طائفة من السلف : كان أقوام يدعون المسيح والعزير والملائكة ، فقال تعالى : هؤلاء الذين تدعونهم عبادي يرجون رحمتي كما ترجون رحمتي ، ويخافون عذابي كما تخافون عذابي ، ويتقربون إليّ كما تتقربون إلي .

وقد قال تعالى : (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) ، فبين أن الطاعة لله والرسول : فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله ، وبين أن الخشية والتقوى لله وحده ؛ فلم يأمر أن يخشى مخلوق ولا يتقى مخلوق .

وقال تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ

سَيُوتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ) وقال تعالى : (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب) .

فبين سبحانه وتعالى أنه كان ينبغي لهؤلاء أن يرضوا بما آتاهم الله ورسوله ويقولوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ، فذكر

الرضا بما آتاه الله ورسوله لأن الرسول هو الواسطة بيننا وبين الله في تبليغ أمره ونهيه، وتحليله وتحريمه ، ووعدده ووعيدده .

فالحلال ما حله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله ، والدين ما شرعه الله ورسوله ؛ ولهذا قال تعالى : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) فليس لأحد أن يأخذ من الأموال إلا ما أحله الله ورسوله ، والأموال المشتركة له ، كمال الفىء والغنيمة والصدقات ، عليه أن يرضى بما آتاه الله ورسوله منها وهو مقدار حقه لا يطلب زيادة على ذلك .

ثم قال تعالى : (وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ) ولم يقل « ورسوله » فإن الحسب هو الكافى ، والله وحده كاف عباده المؤمنين كما قال تعالى : (يَتَأَيَّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) أى هو وحده حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين . هذا هو القول الصواب الذى قاله جمهور السلف والخلف كما بين فى موضع آخر .

والمراد أن الله كاف للرسول ولمن اتبعه ، فكل من اتبع الرسول فالله كافيه وهاديه وناصره ورازقه ، ثم قال تعالى : (سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ) فذكر الإيتاء لله ورسوله ، لكن وسطه بذكر الفضل فإن الفضل لله وحده بقوله : (سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ) ثم قال تعالى : (إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ) فجعل الرغبة إلى الله وحده دون الرسول وغيره من المخلوقات .

فقد تبين أن الله سوى بين المخلوقات فى هذه الأحكام ، لم يجعل لأحد من

المخلوقين — سواء كان نبياً أو ملكاً — أن يقسم به ولا يتوكل عليه ولا يرغب إليه ولا يخشى ولا يتقى . وقال تعالى : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) .

فقد تهدد سبحانه من دعا شيئاً من دون الله ، وبين أنهم لا ملك لهم مع الله ولا شركا في ملكه ، وأنه ليس له عون ولا ظهير من المخلوقين ؛ فقطع تعلق القلوب بالمخلوقات : رغبة ورهبة وعبادة واستعانة ، ولم يبق إلا الشفاعة وهي حق ؛ لكن قال الله تعالى (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) .

وهكذا دلت الأحاديث الصحيحة في الشفاعة يوم القيامة ، إذا أتى الناس آدم ، وأولى العزم نوحا ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى بن مريم ، فيردهم كل واحد إلى الذي بعده ، إلى أن يأتوا المسيح فيقول لهم : اذهبوا إلى محمد ، عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . قال صلى الله عليه وسلم : « فيأتوني فأذهب إلى ربي ، فإذا رأيته خررت ساجداً وأحمد ربي بحامد يفتحها عليّ لا أحسنها الآن ، فيقال لي : أي محمد ، ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع — قال — فيحدّ لي حداً فأدخلهم الجنة » ، وذكر تمام الخبر .

فبين المسيح أن محمداً هو الشافع المشفع ، لأنه عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؛ وبين محمد عبد الله ورسوله أفضل الخلق وأوجه الشفعاء

وأكرمهم على الله تعالى أنه يأتي فيسجد ويحمد ، لا يبدأ بالشفاعة حتى يؤذن له ،
فيقال له : ارفع رأسك ، وسل تعطه ، واشفع تشفع ، وذكر أن ربه يحده
حداً فيدخلهم الجنة .

وهذا كله بين أن الأمر كله لله ، هو الذى يكرم الشفيع بالإذن له
فى الشفاعة ، والشفيع لا يشفع إلا فىمن يأذن الله له ، ثم يحده للشفيع حدّاً
فیدخلهم الجنة . فالأمر بمشيئته وقدرته واختياره . وأوجه الشفعاء وأفضلهم
هو عنده الذى فضله على غيره واختاره واصطفاه بكمال عبوديته وطاعته وإنابته
وموافقته لربه فيما يحبه ويرضاه .

وإذا كان الإقسام بغير الله والرغبة إليه وخشيته وتقواه ونحو ذلك هى من
الأحكام التى اشتركت المخلوقات فيها فليس لمخلوق أن يقسم به ، ولا يتقى ولا
يتوكل عليه ؛ وإن كان أفضل المخلوقات ، ولا يستحق ذلك أحد من الملائكة
والنبيين ، فضلاً عن غيرهم من المشايخ والصالحين .

فسؤال الله تعالى بالمخلوقات : إن كان بما أقسم به وعظمه من المخلوقات
فيسوغ السؤال بذلك كله ، وإن لم يكن سائغاً لم يحز أن يسأل بشيء من ذلك ،
والتفريق فى ذلك بين معظم ومعظم ؛ كتفريق من فرق [فزعم أنه] يجوز
الحلف ببعض المخلوقات دون بعض ، وكما أن هذا فرق باطل فكذلك الآخر .

ولو فرق مفرق بين ما يؤمن به ، وبين ما لا يؤمن به ، قيل له فيجب الإيمان
بالملائكة والنبيين ، ويؤمن بكل ما أخبر به الرسول مثل منكر ونكير ، والحدور

العين، والولدان وغير ذلك ، أفيجوز أن يقسم بهذه المخلوقات لكونه يجب الإيمان بها؟ أم يجوز السؤال بها كذلك؟ .

فتبين أن السؤال بالأسباب إذا لم يكن المسئول به سبباً لإجابة الدعاء فلا فرق بين السؤال بمخلوق ومخلوق ، كما لا فرق بين القسم بمخلوق ومخلوق ، وكل ذلك غير جائز . فتبين أنه لا يجوز ذلك كما قاله من قاله من العلماء والله أعلم .

وأما قوله تعالى : (وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا) فكانت اليهود تقول للمشركين : سوف يبعث هذا النبي ونقاتلكم معه فنقتلكم ؛ لم يكونوا يقسمون على الله بذاته ، ولا يسألون به ، أو يقولون : اللهم ابعث هذا النبي الأُمي لتبعه ونقتل هؤلاء معه .

هذا هو النقل الثابت عند أهل التفسير وعليه يدل القرآن فإنه قال تعالى : (وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ) والاستفتاح الاستنصار ، وهو طلب الفتح والنصر ؛ فطلب الفتح والنصر به هو أن يبعث فيقاتلونهم معه ، فهذا ينصرون ، ليس هو بإقسامهم به وسؤالهم به ، إذ لو كان كذلك لكانوا إذا سألوا أو أقسموا به نصروا ؛ ولم يكن الأمر كذلك ، بل لما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم نصر الله من آمن به وجاهد معه على من خالفه .

وما ذكره بعض المفسرين من أنهم كانوا يقسمون به أو يسألون به فهو نقل شاذ مخالف للنقول الكثيرة المستفيضة المخالفة له .

وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في (دلائل النبوة) وفي كتاب (الاستغاثة

الكبير) . و (كتب السير) ، و (دلائل النبوة) ، و (التفسير) مشحونة بذلك . قال أبو العالية وغيره : كان اليهود إذا استنصروا بمحمد صلى الله عليه وسلم على مشركي العرب يقولون : اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوباً عندنا حتى نغلب المشركين ونقتلهم . فلما بعث الله محمداً ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسداً للعرب ، وهم يعلمون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآيات : (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) .

وروى محمد بن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري عن رجال من قومه قالوا : مما دعانا إلى الإسلام - مع رحمة الله وهداه - ما كنا نسمع من رجال يهود ، وكنا أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس عندنا ، وكانت لا تزال يبتنا وبينهم شرور ؛ فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : قد تقارب زمان نبي يبعث الآن فنقتلكم معه قتل عاد وإرم - كثيراً ما كنا نسمع ذلك منهم - فلما بعث الله محمداً رسولاً من عند الله أجنباه حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يتوعدونا به ، فبادرناهم إليه فآمنا به وكفروا به ، ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات التي في البقرة : (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) .

ولم يذكر ابن أبي حاتم وغيره ممن جمع كلام مفسري السلف إلا هذا ، وهذا لم يذكر فيه السؤال به عن أحد من السلف ؛ بل ذكروا الإخبار به ، أو سؤال الله أن يعشه ؛ فروى ابن أبي حاتم عن أبي رزين عن الضحاك عن

ابن عباس في قوله تعالى : (وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا)
قال : يستظهرون ؛ يقولون : نحن نعين محمداً عليهم وليسوا كذلك ، يكذبون .
وروى عن معمر عن قتادة في قوله تعالى : (وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ
عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا) قال : كانوا يقولون : إنه سيأتي نبي (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا
كَفَرُوا بِهِ) .

وروى يأسناده عن ابن إسحاق : حدثنا محمد بن أبي محمد قال أخبرني
عكرمة - أو سعيد بن جبير - عن ابن عباس أن يهود كانوا يستفتحون على
الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من
العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر
ابن البراء بن معرور وداود بن سلمة : يا معشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا ، فقد
كنتم تستفتحون علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ونحن أهل شرك ، وتخبرونا بأنه
مبعوث وتصفونه بصفته ، فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير : ما جاءنا بشيء
نعرفه وما هو بالذي كنا نذكر لكم فأنزل الله تعالى في ذلك : (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ
مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ
مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ) .

وروى يأسناده عن الربيع بن أنس عن أبي العالية قال : كانت اليهود
تستنصر بمحمد صلى الله عليه وسلم على مشركي العرب يقولون : اللهم ابعث هذا
النبي الذي نجد مکتوباً عندنا ، حتى نعذب المشركين ونقتلهم . فلما بعث الله محمداً

ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسدا للعرب ، وهم يعلمون أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الله (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) .

وأما الحديث الذي يروى عن عبد الملك بن هارون بن عنترة عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كانت يهود خيبر تقاتل غطفان فكلما التقوا هزمت يهود فعادت بهذا الدعاء : اللهم إنا نسألك بحق محمد النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم ، فكانوا إذا دعوا بهذا الدعاء هزموا غطفان . فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم كفروا به ، فأنزل الله تعالى (وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ) وهذا الحديث رواه الحاكم في مستدركه وقال : أدت الضرورة إلى إخراجها . وهذا مما أنكره عليه العلماء ، فإن عبد الملك بن هارون من أضعف الناس ، وهو عند أهل العلم بالرجال متروك ؛ بل كذاب . وقد تقدم ما ذكره يحيى بن معين وغيره من الأئمة في حقه .

قلت : وهذا الحديث من جملتها ، وكذلك الحديث الآخر يرويه عن أبي بكر كما تقدم .

ومما يبين ذلك أن قوله تعالى (وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا) إنما نزلت باتفاق أهل التفسير والسير في اليهود المجاورين للمدينة أولا كبنى قينقاع وقريظة والنضير ، وهم الذين كانوا يحالفون الأوس والخزرج ، وهم الذين عاهدهم النبي صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة ، ثم لما نقضوا العهد حاربهم

فحارب أولا بنى قينقاع ثم النصير - وفيهم نزلت سورة الحشر - ثم قريظة عام الخندق ، فكيف يقال نزلت في يهود خيبر وغطفان؟ فإن هذا من كذاب جاهل لم يحسن كيف يكذب ، وما يبين ذلك أنه ذكر فيه انتصار اليهود على غطفان لما دعوا بهذا الدعاء ، وهذا مما لم ينقله أحد غير هذا الكذاب ، ولو كان هذا مما وقع لكان مما تتوفر دواعي الصادقين على نقله .

وما ينبغي أن يعلم أن مثل هذا اللفظ لو كان مما يقتضى السؤال به ، والإقسام به على الله تعالى لم يكن مثل هذا مما يجوز أن يعتمد عليه فى الأحكام ، لأنه أولا لم يثبت ، وليس فى الآية ما يدل عاىه ، ولو ثبت لم يلزم أن يكون هذا شرعا لنا ، فإن الله تعالى قد أخبر عن سجود إخوة يوسف وأبويه وأخبر عن الذين غلبوا على أهل الكهف أنهم قالوا : (لَنَتَّخِذَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا) ونحن قد نهينا عن بناء المساجد على القبور ، ولفظ الآية إنما فيه أنهم كانوا يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به .

وهذا كقوله تعالى : (إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ) والاستفتاح طلب الفتح وهو النصر ، ومنه الحديث المأثور أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يستفتح بصعاليك المهاجرين ، أى يستنصر بهم أى بدعائهم كما قال « وهل ترزقون وتتصرون إلا بضعفائكم ، بصلاتهم ودعائهم وإخلاصهم ؟ » .

وهذا قد يكون بأن يطلبوا من الله تعالى أن ينصرهم بالنبى المبعوث فى آخر الزمان ، بأن يعجل بعث ذلك النبى إليهم لينصروا به عليهم ، لا لأنهم أقسموا على الله وسألوا به ، ولهذا قال تعالى (فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى

الْكَافِرِينَ) فلو لم ترد الآثار التي تدل على أن هذا معنى الآية لم يجز لأحد أن يحمل الآية على ذلك المعنى المتنازع فيه بلا دليل ، لأنه لا دلالة فيها عليه ، فكيف وقد جاءت الآثار بذلك ؟ .

وأما ما تقدم ذكره عن اليهود من أنهم كانوا ينصرون ، فقد بينا أنه شاذ ، وليس هو من الآثار المعروفة في هذا الباب ، فإن اليهود لم يعرف أنها غلبت العرب بل كانوا مغلوبين معهم ، وكانوا يحالفون العرب فيحالف كل فريق فريقا كما كانت قريظة حلفاء الأوس ، وكانت النضير حلفاء الخزرج .

وأما كون اليهود كانوا ينتصرون على العرب فهذا لا يعرف بل المعروف خلافه ، والله تعالى قد أخبر بما يدل على ذلك ، فقال تعالى : (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِثَايَتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) .

فاليهود — من حين ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس — لم يكونوا بمجردهم ينتصرون لا على العرب ولا غيرهم ، وإنما كانوا يقاتلون مع حلفائهم قبل الإسلام ، والذلة ضربت عليهم من حين بعث المسيح عليه السلام فكذبوه . قال تعالى : (يٰعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ كَمَا قَالَ رَافِعُكَ إِلَى وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ)

وقال تعالى : (يٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي

إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنْتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (

وكانوا قد قتلوا يحيى بن زكريا وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . قال تعالى : (وَضَرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ) .

فإذا لم يكن الصحابة كعمر بن الخطاب وغيره ، في حياته صلى الله عليه وسلم وبعد موته ، يقسمون بذاته ؛ بل إنما كانوا يتوسلون بطاعته أو بشفاعته ، فكيف يقال في دعاء المخلوقين الغائبين والموتى وسؤالهم من الأنبياء والملائكة وغيرهم ؛ وقد قال تعالى : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ دُونِي فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) .

قالت طائفة من السلف : كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء كال مسيح وعزير وغيرهما ، فنهى الله عن ذلك ، وأخبر تعالى أن هؤلاء يرجون رحمة الله ، ويخافون عذابه ، ويتقربون إليه ، وأنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ، ولا تحويله عنهم . وقد قال تعالى : (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيَ عِبَادًا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) .

ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يتخذ قبره مسجداً وأن يتخذ عيداً ، وقال في مرض موته : « لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما صنعوا أخرجاه في الصحيحين . وقال : « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » رواه مالك في موطئه ، وقال : « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله » متفق عليه .

وقال : « لا تقولوا : ما شاء الله وشاء محمد . بل ما شاء الله ثم شاء محمد » . وقال له بعض الأعراب : ما شاء الله وشئت فقال : « أجعلتني لله نداً ؟ بل ما شاء الله وحده » . وقد قال الله تعالى له : (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَا سَتَكُنْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ)

وقال تعالى : (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا) وقال تعالى : (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) . وقال تعالى : (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) . وهذا تحقيق التوحيد مع أنه صلى الله عليه وسلم أكرم الخلق على الله ، وأعلام منزلة عند الله .

وقد روى الطبراني في معجمه الكبير أن منافقاً كان يؤذى المؤمنين ، فقال أبو بكر : قوموا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله » .

وفي صحيح مسلم في آخره أنه قال قبل أن يموت بخمس « إن من كان

قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك » . وفي صحيح مسلم أيضاً وغيره أنه قال : « لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها » .

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد وأبي هريرة — وله طرق متعددة عن غيرهما — أنه قال : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدى هذا ، والمسجد الحرام ، والمسجد الأقصى » . وسئل مالك عن رجل نذر أن يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال مالك : إن كان أراد القبر فلا يأتيه ، وإن أراد المسجد فليأته . ثم ذكر الحديث « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » ذكره القاضي إسماعيل في مبسوطه .

ولو حلف حالف بحق المخلوقين لم تنعقد يمينه ، ولا فرق في ذلك بين الأنبياء والملائكة وغيرهم ، والله تبارك وتعالى حق لا يشركه فيه أحد لا الأنبياء ولا غيرهم ، وللأنبياء حق ، وللمؤمنين حق ، وللبعضهم على بعض حق .

فحقه تبارك وتعالى أن يعبدوه لا يشركوا به كما تقدم في حديث معاذ ، ومن عبادته تعالى أن يخلصوا له الدين ، ويتوكلوا عليه ، ويرغبوا إليه ، ولا يجعلوا لله نداً : لا في محبته ولا خشيته ولا دعائه ولا الاستعانة به ، كما في الصحيحين أنه قال صلى الله عليه وسلم : « من مات وهو يدعو نداً من دون الله دخل النار » وسئل : أى الذنب أعظم ؟ قال « أن تجعل لله نداً وهو خالقك » . وقيل له : ما شاء الله وشئت . فقال : أجعلتنى لله نداً ! بل ما شاء الله وحده .

وقد قال تعالى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)
وقال تعالى : (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) ، (وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا
إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارْهَبُونِ) ، (فَإِنِّي فَأَعْبُدُونَ) وقال
تعالى : (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب) وقال تعالى في فاتحة الكتاب التي
هي أم القرآن (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) وقال تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ
مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) وقال تعالى :
(فَلَا تَخْشَوْا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ) وقال تعالى : (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ
وَيَخْشَوْنَهُ، وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ) .

ولهذا لما كان المشركون يخوفون إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه
عليه قال تعالى : (وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونَنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ
مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ
* وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ
عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ
يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ) .

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية (الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) شق ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا :
أينا لم يظلم نفسه ؟ فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم « إنما ذاك الشرك كما قال
العبد الصالح » : (يَبْنِي لِأُشْرِكٍ بِاللَّهِ إِتَّ الشِّرْكَ لَظْلُمٌ عَظِيمٌ) .

وقال تعالى : (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) .

فجعل الطاعة لله والرسول ، فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله . وجعل الخشية والتقوى لله وحده ، فلا يخشى إلا الله ، ولا يتقى إلا الله . وقال تعالى : (فَلَا تَخْشَوْا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا) . وقال تعالى : (فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) .

وقال تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَاءَ أَيْتِهِمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُوتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ) . فجعل سبحانه الإيتاء لله والرسول في أول الكلام وآخره كقوله تعالى : (وَمَاءَ أَيْتِكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَأَنْتَهُوا) مع جعله الفضل لله وحده ، والرغبة إلى الله وحده .

وهو تعالى وحده حسبهم لا شريك له في ذلك . وروى البخاري عن ابن عباس في قوله (حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) قال : قالها إبراهيم حين ألقى في النار . وقالها محمد حين (قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فزادهم إيمانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) وقال تعالى : (يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) .

ومعنى ذلك عند جماهير السلف والخلف أن الله وحده حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين ، كما بسط ذلك بالأدلة ، وذلك أن الرسل عليهم الصلاة والسلام هم الوسائط بيننا وبين الله في أمره ونهيه ووعدته ووعدته ، فالحلال ما أحله الله ورسوله ، والحرام ما حرمه الله ورسوله ، والدين ما شرعه الله ورسوله .

فعلينا أن نحب الله ورسوله ونطيع الله ورسوله ونرضى الله ورسوله ،
 قال تعالى : (وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ) وقال تعالى :
 (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ) وقال تعالى : (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ)
 وقال تعالى : (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ
 اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ
 وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ) .

وفي الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث
 من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان : من كان الله ورسوله أحب إليه من
 سواهما ، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا الله ، ومن كان يكره أن يرجع في
 الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يكره أن يلقى في النار ، وقد قال تعالى :
 (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ
 وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا) .

فالإيمان بالله والرسول ، والتعزير والتوقير للرسول ، وتعزيره نصره
 ومنعه ، والتسبيح بكرة وأصيلًا لله وحده ، فإن ذلك من العبادة لله ، والعبادة
 هي لله وحده : فلا يصلي إلا لله ولا يصام إلا لله ولا يحج إلا إلى بيت الله ،
 ولا تشد الرحال إلا إلى المساجد الثلاثة ، لكون هذه المساجد بناها أنبياء الله
 بإذن الله ، ولا ينذر إلا الله ، ولا يحلف إلا بالله ، ولا يدعى إلا الله ،
 ولا يستغاث إلا بالله .

وأما ما خلقه الله سبحانه من الحيوان ، والنبات ، والمطر ، والسحاب ،

وسائر المخلوقات فلم يجعل غيره من العباد واسطة في ذلك الخلق ، كما جعل الرسل واسطة في التبليغ ، بل يخلق ما يشاء بما يشاء من الأسباب ، وليس في المخلوقات شيء مستقل بإبداع شيء ، بل لا بد للسبب من أسباب آخر تعاونه ، ولا بد من دفع المعارض عنه ، وذلك لا يقدر عليه إلا الله وحده ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، بخلاف الرسالة فإن الرسول وحده كان واسطة في تبليغ رسالته إلى عباده .

وأما جعل الهدى في قلوب العباد فهو إلى الله تعالى لا إلى الرسول كما قال الله تعالى : (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) وقال تعالى : (إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ) . وكذلك دعاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واستغفارهم وشفاعتهم هو سبب ينفع إذا جعل الله تعالى : المحل قابلاً له ، وإلا فلو استغفر النبي للكفار والمنافقين لم يغفر لهم ، قال الله تعالى : (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) .

وأما الرسل فقد تبين أنهم هم الوسائط بيننا وبين الله عز وجل في أمره ونهيه ووعدده ووعيدده وخبره ، فعلينا أن نصدقهم في كل ما أخبروا به ، ونطيعهم فيما أوجبوا وأمروا ، وعلينا أن نصدق بجميع أنبياء الله عز وجل ؛ لا نفرق بين أحد منهم ، ومن سب واحدا منهم كان كافرا مرتداً مباح الدم .

وإذا تكلمنا فيما يستحقه الله تبارك وتعالى من التوحيد بيننا أن الأنبياء وغيرهم من المخلوقين لا يستحقون ما يستحقه الله تبارك وتعالى من خصائص : فلا يشرك بهم ولا يتوكل عليهم ، ولا يستغاث بهم كما يستغاث بالله ، ولا يقسم

على الله بهم ، ولا يتوسل بذواتهم ، وإنما يتوسل بالإيمان بهم ، وبمحبتهم ، وطاعتهم ، وموالاتهم ، وتعزيرهم ، وتوقيرهم ، ومعاداة من عاداهم ، وطاعتهم فيما أمروا ، وتصديقهم فيما أخبروا ، وتحليل ما حللوه ، وتحريم ما حرموه .

والتوسل بذلك على وجهين :

(أحدهما) أن يتوسل بذلك إلى إجابة الدعاء وإعطاء السؤال ، كحديث الثلاثة الذين أوا إلى الغار ، فإنهم توسلوا بأعمالهم الصالحة ليجيب دعاءهم ويفرج كربتهم ، وقد تقدم بيان ذلك .

(والثاني) التوسل بذلك إلى حصول ثواب الله وجنته ورضوانه ، فإن الأعمال الصالحة التي أمر بها الرسول صلى الله عليه وسلم هي الوسيلة التامة إلى سعادة الدنيا والآخرة ، ومثل هذا كقول المؤمنين : (رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ) فإنهم قدموا ذكر الإيمان قبل الدعاء ، ومثل ذلك ما حكاه الله سبحانه عن المؤمنين في قوله تعالى : (إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُوا رَبَّنَا آمِنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ) وأمثال ذلك كثير .

وكذلك التوسل بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعته فإنه يكون

على وجهين :-

(أحدهما) أن يطلب منه الدعاء والشفاعة فيدعو ويشفع ، كما كان يطلب منه في حياته ، وكما يطلب منه يوم القيامة ، حين يأتون آدم ونوحا ثم الخليل ثم

موسى الكليم ثم عيسى ، ثم يأتون محمدا صلوات الله وسلامه عليه وعليهم
فيطلبون منه الشفاعة .

(والوجه الثانى) أن يكون التوسل مع ذلك بأن يسأل الله تعالى بشفاعته
ودعائه ، كما فى حديث الأعمى المتقدم بيانه وذكره فإنه طلب منه الدعاء والشفاعة
فدعا له الرسول وشفع فيه ، وأمره أن يدعو الله فيقول « اللهم إني أسألك وأتوجه
إليك به ، اللهم فشفعه فى » فأمره أن يسأل الله تعالى قبول شفاعته ؛ بخلاف
من يتوسل بدعاء الرسول وشفاعة الرسول - والرسول لم يدع له ولم يشفع فيه -
فهذا توسل بما لم يوجد ، وإنما يتوسل بدعائه وشفاعته من دعا له وشفع فيه .

ومن هذا الباب قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وقت الاستسقاء كما
تقدم ، فإن عمر والمسلمين توسلوا بدعاء العباس وسألوا الله تعالى مع دعاء
العباس ، فإنهم استشفعوا جميعا ، ولم يكن العباس وحده هو الذى دعا لهم ، فصار
التوسل بطاعته ، والتوسل بشفاعته كل منهما يكون مع دعاء المتوسل وسؤاله ،
ولا يكون بدون ذلك .

فهذه أربعة أنواع كلها مشروعة لا ينازع فى واحد منها أحد من أهل
العلم والإيمان .

ودين الإسلام مبنى على أصلين ، وهما : تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله ،
وأن محمدا رسول الله : وأول ذلك أن لا تجعل مع الله إلها آخر ، فلا تحب مخلوقا
كما تحب الله ، ولا ترجوه كما ترجو الله ، ولا تخشاه كما تخشى الله ، ومن سوى

بين المخلوق والخالق في شيء من ذلك فقد عدل بالله ، وهو من الذين بر بهم يعدلون ، وقد جعل مع الله إلهًا آخر ، وإن كان مع ذلك يعتقد أن الله وحده خلق السموات والأرض .

فإن مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خلق السموات والأرض ، كما قال تعالى : (وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) وكانوا مع ذلك مشركين يجعلون مع الله آلهة أخرى ، قال تعالى : (أَيْنَكُمُ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ) وقال تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) فصاروا مشركين لأنهم أحبواهم كحبه ، لا أنهم قالوا إن آلهتهم خلقوا خلقه . كما قال تعالى : (أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ) .

وهذا استفهام إنكار بمعنى النفي ، أى ما جعلوا لله شركاء خلقوا خلقه ، فإنهم مقرون أن آلهتهم لم يخلقوا خلقه ، وإنما كانوا يجعلونهم شفعاء ووسائط قال تعالى : (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) وقال صاحب يس : (وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * ءَاتَّخِذْ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ * إِنَّي إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِنِّي ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ) .

(الأصل الثاني) أن نعبد به بما شرع على ألسن رسله ، لا نعبده إلا بواجب أو مستحب ، والمباح إذا قصد به الطاعة دخل في ذلك .

والدعاء من جملة العبادات ، فمن دعا المخلوقين من الموتى والغائبين واستغاث بهم — مع أن هذا أمر لم يأمر به الله ولا رسوله أمر إيجاب ولا استحباب — كان مبتدعا في الدين ، مشركا برب العالمين ، متبعا غير سبيل المؤمنين . ومن سأل الله تعالى بالمخلوقين ، أو أقسم عليه بالمخلوقين كان مبتدعا بدعة ما أنزل الله بها من سلطان ، فإن ذم من خالفه وسعى في عقوبته كان ظلما جاهلا معتديا .

وإن حكم بذلك فقد حكم بغير ما أنزل الله ، وكان حكمه منقوضا بإجماع المسلمين ، وكان إلى أن يستتاب من هذا الحكم ويعاقب عليه أحوج منه إلى أن ينفذ له هذا الحكم ويعان عليه ، وهذا كله يجمع عليه بين المسلمين ، ليس فيه خلاف لا بين الأئمة الأربعة ولا غيرهم .

وقد بسط الكلام على هذه الأمور في مجلدات ، من جملتها مصنف ذكرنا فيه قواعد تتعلق بحكم الحكم وما يجوز لهم الحكم فيه وما لا يجوز . وهو مؤلف مفرد يتعلق بأحكام هذا الباب لا يحسن إيراد شيء من فصوله ها هنا ؛ لإفراد الكلام في هذا الموضع على قواعد التوحيد ومتعلقاته ، وسيأتى إيراد ما اختصر منه ، وحررت فصوله في ضمن أوراق مفردة يقف عليها المتأمل لمزيد الفائدة ومسيس الحاجة إلى معرفة هذا الأمر المهم . وبالله التوفيق .

وكنتم وأنا بالديار المصرية في سنة إحدى عشر وسبعائة قد استفتيت عن

التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فكتبت في ذلك جوابا مبسوطا وقد أحبت
إيراده هنا لما في ذلك من مزيد الفائدة فإن هذه القواعد - المتعلقة بتقرير التوحيد
وحسم مادة الشرك والغلو - كلما تنوع بيانها ووضحت عباراتها كان ذلك نورا
على نور . والله المستعان .

وصورة السؤال :

المسئول من السادة العلماء أئمة الدين أن يبينوا ما يجوز وما لا يجوز من
الاستشفاع والتوسل بالأنبياء والصالحين .

وصورة الجواب :

الحمد لله رب العالمين . أجمع المسلمون على أن النبي صلى الله عليه وسلم
يشفع للخلق يوم القيامة بعد أن يسأله الناس ذلك ، وبعد أن يأذن الله له في
الشفاعة . ثم إن أهل السنة والجماعة متفقون على ما اتفق عليه الصحابة رضوان
الله عليهم أجمعين واستفاضت به السنن من أنه صلى الله عليه وسلم يشفع لأهل
الكبائر من أمته ، ويشفع أيضا لعموم الخلق .

فله صلى الله عليه وسلم شفاعات يختص بها لا يشركه فيها أحد ، وشفاعات
يشركه فيها غيره من الأنبياء والصالحين ، لكن ما له فيها أفضل مما لغيره ، فإنه صلى
الله عليه وسلم أفضل الخلق وأكرمهم على ربه عز وجل ، وله من الفضائل التي ميزه
الله بها على سائر النبيين ما يضيق هذا الموضع عن بسطه ، ومن ذلك « المقام

المحمود» الذي يغطه به الأولون والآخرون ، وأحاديث الشفاعة كثيرة متواترة ،
منها في الصحيحين أحاديث متعددة ، وفي السنن والمسند مما يكثر عدده .
وأما الوعيدية من الخوارج والمعتزلة فزعموا أن الشفاعة إنما هي للمؤمنين
خاصة في رفع بعض الدرجات ، وبعضهم أنكر الشفاعة مطلقا .

وأجمع أهل العلم على أن الصحابة كانوا يستشفعون به ويتوسلون به في
حياته بحضرته ، كما ثبت في صحيح البخاري عن أنس بن مالك أن عمر بن الخطاب
كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال « اللهم إنا كنا إذا أجد بنا
توسل إليك بنينا فتسقيننا ، وإنا نتوسل إليك بعم نينا فاسقنا » فيسقون .

وفي البخاري أيضاً عن ابن عمر أنه قال: ربما ذكرت قول الشاعر - وأنا أنظر
إلى وجه النبي صلى الله عليه وسلم يستسقى ، فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب -
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

والتوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم الذي ذكره عمر بن الخطاب قد جاء
مفسراً في سائر أحاديث الاستسقاء ، وهو من جنس الاستشفاع به ، وهو أن
يطلب منه الدعاء والشفاعة ، ويطلب من الله أن يقبل دعاءه وشفاعته ، ونحن
نقدمه بين أيدينا شافعاً وسائلاً لنا ، بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم .

وكذلك معاوية بن أبي سفيان - لما أجذب الناس بالشام -
استسقى يزيد بن الأسود الجرشي فقال : « اللهم إنا نستشفع - وتوسل -
بخيارنا . يا يزيد ! ارفع يديك » فرفع يديه ودعا ، ودعا الناس حتى سقوا .

ولهذا قال العلماء : يستحب أن يستسقى بأهل الدين والصلاح ، وإذا كانوا من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو أحسن .

وهذا الاستشفاع والتوسل حقيقته التوسل بدعائه ؛ فإنه كان يدعو للمتوسل به المستشفع به والناس يدعون معه ، كما أن المسلمين لما أجدبوا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليه أعرابي فقال : يا رسول الله هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع الله يغثنا . فرفع النبي صلى الله عليه وسلم يديه وقال : « اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا ، اللهم أغثنا » وما في السماء قرعة ؛ فنشأت سحابة من جهة البحر فطروا أسبوعا لا يرون فيه الشمس ؛ حتى دخل عليهم الأعرابي — أو غيره — فقال : يا رسول الله انقطعت السبل ، وتهدم البنيان ، فادع الله يكشفها عنا . فرفع يديه وقال « اللهم حوالينا ولا علينا ، اللهم على الآكام والظراب ومنابت الشجر وبطون الأودية » فانجابت عن المدينة كما ينجاب الثوب . والحديث مشهور في الصحيحين وغيرهما .

وفي حديث آخر في سنن أبي داود وغيره أن رجلا قال له : إنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك . فسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى روى ذلك في وجوه أصحابه وقال « ويحك أتدرى ما الله ؟ إن الله لا يستشفع به على أحد من خلقه ، شأن الله أعظم من ذلك » .

وهذا يبين أن معنى الاستشفاع بالشخص - في كلام النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه - هو استشفاع بدعائه وشفاعته ، ليس هو السؤال بذاته ؛ فإنه لو كان هذا

السؤال بذاته لكان سؤال الخلق بالله تعالى أولى من سؤال الله بالخلق ، ولكن لما كان معناه هو الأول ، أنكر النبي صلى الله عليه وسلم قوله : « نستشفع بالله عليك » ولم ينكر قوله نستشفع بك على الله ؛ لأن الشفيع يسأل المشفوع إليه أن يقضى حاجة الطالب ؛ والله تعالى لا يسأل أحداً من عباده أن يقضى حوائج خلقه ، وإن كان بعض الشعراء ذكر استشفاعه بالله تعالى في مثل قوله : —

شفعي إليك الله لا رب غيره وليس إلى رد الشفيع سبيل
فهذا كلام منكر لم يتكلم به عالم .

وكذلك بعض الاتحادية ذكر أنه استشفع بالله سبحانه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وكلاهما خطأ وضلال ؛ بل هو سبحانه المسئول المدعو الذي يسأله كل من في السموات والأرض ؛ ولكن هو تبارك وتعالى يأمر عباده فيطيعونه وكل من وجبت طاعته من المخلوقين فإنما وجبت لأن ذلك طاعة لله تعالى ، فالرسل يبلغون عن الله أمره ؛ فمن أطاعهم فقد أطاع الله ، ومن بايعهم فقد بايع الله . قال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ) وقال تعالى : (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) .

وأولو الأمر من أهل العلم وأهل الإمارة إنما تجب طاعتهم إذا أمروا بطاعة الله ورسوله . قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « على المرء المسلم السمع والطاعة في أمره ويسره ومنشطه ومكرهه ، ما لم يؤمر بمعصية الله ، فإذا أمر بمعصية الله فلا سمع ولا طاعة » وقال صلى الله عليه وسلم « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق » .

وأما الشافع فسائل لا تجب طاعته في الشفاعة وإن كان عظيماً ، وفي الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل بريرة أن تمسك زوجها ولا تفارقه لما أعتقت ، وخيرها النبي صلى الله عليه وسلم فاختارت فراقه ، وكان زوجها يحبها فجعل يكي ، فسألها النبي صلى الله عليه وسلم أن تمسكه فقالت أتأمرني ؟ فقال « لا ! إنما أنا شافع » . وإنما قالت « أتأمرني ؟ » وقال : « إنما أنا شافع » لما استقر عند المسلمين أن طاعة أمره واجبة بخلاف شفاعته ، فإنه لا يجب قبول شفاعته ، ولهذا لم يلها النبي صلى الله عليه وسلم على ترك قبول شفاعته ، فشفاعة غيره من الخلق أولى أن لا يجب قبولها .

والخالق جل جلاله أمره أعلى وأجل من أن يكون شافعاً إلى مخلوق ، بل هو سبحانه أعلى شأناً من أن يشفع أحد عنده إلا بإذنه . قال تعالى :
 (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ *) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌُ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ () .

ودل الحديث المتقدم على أن الرسول صلى الله عليه وسلم يستشفع به إلى الله عز وجل : أي يطلب منه أن يسأل ربه الشفاعة في الدنيا والآخرة ، فأما في الآخرة فيطلب منه الخلق الشفاعة في أن يقضى الله بينهم ، وفي أن يدخلوا الجنة ، ويشفع في أهل الكبائر من أمته ، ويشفع في بعض من يستحق النار أن لا يدخلها ، ويشفع في بعض من دخلها أن يخرج منها .

ولا نزاع بين جماهير الأمة أنه يجوز أن يشفع لأهل الطاعة المستحقين
للثواب .

ولكن كثيراً من أهل البدع والخوارج والمعتزلة أنكروا شفاعته لأهل
الكبائر ، فقالوا : لا يشفع لأهل الكبائر ، بناء على أن أهل الكبائر عندهم
لا يغفر الله لهم ولا يخرجهم من النار بعد أن يدخلوها لا بشفاعة ولا غيرها ،
ومذهب الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وسائر أهل السنة والجماعة أنه صلى الله
عليه وسلم يشفع في أهل الكبائر ، وأنه لا يخلد في النار من أهل الإيمان أحد ؛
بل يخرج من النار من في قلبه مثقال حبة من إيمان أو مثقال ذرة من إيمان ،
لكن هذا الاستسقاء والاستشفاع والتوسل به وبغيره كان يكون في حياته ،
بمعنى أنهم يطلبون منه الدعاء فيدعو لهم ، فكان توسلهم بدعائه ، والاستشفاع به
طلب شفاعته ، والشفاعة دعاء .

فأما التوسل بذاته في حضوره أو مغيبه أو بعد موته — مثل الإقسام
بذاته أو بغيره من الأنبياء أو السُّوال بنفس ذواتهم لا بدعائهم — فليس هذا
مشهوراً عند الصحابة والتابعين ، بل عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبي سفيان
ومن بحضرتهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين لهم
ياحسان لما أجدبوا استسقوا وتوسلوا واستشفعوا بمن كان حياً كالعباس
وكيزيد بن الأسود ، ولم يتوسلوا ولم يستشفعوا ولم يستسقوا في هذه الحال
بالنبي صلى الله عليه وسلم لا عند قبره ولا غير قبره ، بل عدلوا إلى البدل كالعباس

وكيزيد ، بل كانوا يصلون عليه في دعائهم ، وقد قال عمر : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنينا فقتسقنا ، وإنا نتوسل إليك بعم بنينا فاسقنا .

فجعلوا هذا بدلا عن ذلك لما تعذر أن يتوسلوا به على الوجه المشروع الذي كانوا يفعلونه ، وقد كان من الممكن أن يأتوا إلى قبره فيتوسلوا به ويقولوا في دعائهم في الصحراء بالجاء ونحو ذلك من الألفاظ التي تتضمن القسم بمخلوق على الله عز وجل أو السؤال به ؛ فيقولون : نسألك أو نقسم عليك بنبيك أو بجاه نبيك ، ونحو ذلك مما يفعله بعض الناس .

وروى بعض الجهال عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : إذا سألت الله فاسأله بجاهي ، فإن جاهي عند الله عظيم ؛ وهذا الحديث كذب ليس في شيء من كتب المسلمين التي يعتمد عليها أهل الحديث ، ولا ذكره أحد من أهل العلم بالحديث ، مع أن جاهه عند الله تعالى أعظم من جاه جميع الأنبياء والمرسلين ، وقد أخبرنا سبحانه عن موسى وعيسى عليهما السلام أنهما وجيهان عند الله ، فقال تعالى : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا) وقال تعالى : (إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) .

فإذا كان موسى وعيسى وجيهين عند الله عز وجل ؛ فكيف بسيد ولد آدم صاحب المقام المحمود الذي يغطه به الأولون والآخرون ؛ وصاحب الكوثر

والخوض المورد الذي آتته عدد نجوم السماء ، وماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل ، ومن شرب منه شربة لم يظما بعدها أبدا ؟ .

وهو صاحب الشفاعة يوم القيامة حين يتأخر عنها آدم ، وأولو العزم — نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى — صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ويتقدم هو إليها ، وهو صاحب اللواء ، آدم ومن دونه تحت لوائه ، وهو سيد ولد آدم وأكرمهم على ربه عز وجل ، وهو إمام الأنبياء إذا اجتمعوا ، وخطيبهم إذا وفدوا ، ذو الجاه العظيم صلى الله عليه وسلم وعلى آله .

ولكن جاه المخلوق عند الخالق تعالى ليس بجاه المخلوق عند المخلوق ، فإنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه : (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا) وقال تعالى : (لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدَ اللَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا * فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) .

والمخلوق يشفع عند المخلوق بغير إذنه فهو شريك له في حصول المطلوب ، والله تعالى لا شريك له ، كما قال سبحانه : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُوكُمْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مَنْ ظَهِيرٌ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) .

وقد استفاضت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن اتخاذ القبور مساجد ، ولعن من يفعل ذلك ، ونهى عن اتخاذ قبره عيداً ، وذلك لأن أول ما حدث الشرك في بني آدم كان في قوم نوح .

قال ابن عباس : كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام . وثبت ذلك في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أن نوحاً أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ، وقد قال الله تعالى عن قومه إنهم قالوا : (لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا) .

قال غير واحد من السلف : هؤلاء كانوا قوماً صالحين في قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، فلما طال عليهم الأمد عبدوهم ، وقد ذكر البخاري في صحيحه هذا عن ابن عباس ، وذكر أن هذه الآلهة صارت إلى العرب ، وسمى قبائل العرب الذين كانت فيهم هذه الأصنام .

فلما علمت الصحابة رضوان الله عليهم أن النبي صلى الله عليه وسلم حسم مادة الشرك بالنهي عن اتخاذ القبور مساجد - وإن كان المصلي يصلي لله عز وجل ، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس لئلا يشابه المصلين للشمس ؛ وإن كان المصلي إنما يصلي لله تعالى ، وكان الذي يقصد الدعاء بالميت أو عند قبره أقرب إلى الشرك من الذي لا يقصد إلا الصلاة لله عز وجل - لم يكونوا يفعلون ذلك .

وكذلك علم الصحابة أن التوسل به إنما هو التوسل بالإيمان به وطاعته

ومحبته وموالاته ، أو التوسل بدعائه وشفاعته ، فهذا لم يكونوا يتوسلون بذاته مجردة عن هذا وهذا .

فلما لم يفعل الصحابة رضوان الله عليهم شيئا من ذلك ، ولا دعوا بمثل هذه الأدعية — وهم أعلم منا وأعلم بما يحب الله ورسوله ، وأعلم بما أمر الله به رسوله من الأدعية ، وما هو أقرب إلى الإجابة منا ، بل توسلوا بالعباس وغيره ممن ليس مثل النبي صلى الله عليه وسلم — دل عدوهم عن التوسل بالأفضل إلى التوسل بالمفضول أن التوسل المشروع بالأفضل لم يكن ممكنا .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد ، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » رواه مالك في موطئه ورواه غيره ، وفي سنن أبي داود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تتخذوا قبري عيداً ، وصلوا على حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني » وفي الصحيحين أنه قال في مرض موته « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما فعلوا ، قالت عائشة : ولولا ذلك لأبرز قبره ، ولكن كره أن يتخذ مسجداً .

وفي صحيح مسلم عن جندب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال قبل أن يموت بخمس « إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل ، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، فإن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً ، إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك » وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه

قال : « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، فإنما أنا عبد فقولوا : عبد الله ورسوله » .

وقد روى الترمذى حديثاً صحيحاً عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه علم رجلاً أن يدعو فيقول : « اللهم إني أسألك وأتوسل إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد يا رسول الله ! إني أتوسل بك إلى ربي في حاجتي ليقضيها لي ، اللهم شفعه في » . وروى النسائي نحو هذا الدعاء .

وفي الترمذى وابن ماجه عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضريراً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : ادع الله أن يعافيني فقال : إن شئت دعوت ، وإن شئت صبرت ، فهو خير لك . فقال : فادعه . فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا رسول الله ! يا محمد ! إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضي ، اللهم فشفعه في » قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

ورواه النسائي عن عثمان بن حنيف ولفظه أن رجلاً أعشى قال : يا رسول الله ! ادع الله أن يكشف لي عن بصرى . قال « فانطلق فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل : اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد ! إني أتوجه بك إلى ربي أن يكشف عن بصرى ، اللهم فشفعه في » قال فرجع وقد كشف الله عن بصره .

وقال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا روح حدثنا شعبة عن عمير بن يزيد

الخطمي المدني قال : سمعت عمارة بن خزيمة بن ثابت يحدث عن عثمان بن حنيف أن رجلا ضريراً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله ! ادع الله أن يعافيني فقال « إن شئت أخرت ذلك فهو خير لآخرتك ، وإن شئت دعوت لك » قال : لا ! بل ادع الله لي ، فأمره أن يتوضأ ، وأن يصلي ركعتين ، وأن يدعو بهذا الدعاء : « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضى ، اللهم فشفعني فيه وشفعه في » . قال ففعل الرجل فبرأ .

فهذا الحديث فيه التوسل به إلى الله في الدعاء .

فمن الناس من يقول : هذا يقتضي جواز التوسل به مطلقاً حياً وميتاً . وهذا يحتاج به من يتوسل بذاته بعد موته وفي مغيبه ، ويظن هؤلاء أن توسل الأعمى والصحابة في حياته كان بمعنى الإقسام به على الله أو بمعنى أنهم سألوا الله بذاته أن يقضى حوائجهم ، ويظنون أن التوسل به لا يحتاج إلى أن يدعو هو لهم ، ولا إلى أن يطيعوه ، فسواء عند هؤلاء دعا الرسول لهم أو لم يدع ، الجميع عندهم توسل به ، وسواء أطاعوه أو لم يطيعوه ، ويظنون أن الله تعالى يقضى حاجة هذا الذي توسل به بزعمهم ولم يدع له الرسول ، كما يقضى حاجة هذا الذي توسل بدعائه ودعاه الرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ كلاهما متوسل به عندهم ، ويظنون أن كل من سأل الله تعالى بالنبي صلى الله عليه وسلم فقد توسل به كما توسل به ذلك الأعمى ، وأن ما أمر به الأعمى مشروع لهم . وقول هؤلاء باطل شرعاً وقدرًا ، فلا هم موافقون لشرع الله ، ولا ما يقولونه مطابق لخلق الله .

ومن الناس من يقولون : هذه قضية عين يثبت الحكم في نظائرها التي تشبهها في مناط الحكم ، لا يثبت الحكم بها فيما هو مخالف لها لا بمائل لها ، والفرق ثابت شرعاً وقدرأ بين من دعا له النبي صلى الله عليه وسلم وبين من لم يدع له ، ولا يجوز أن يجعل أحدهما كالآخر .

وهذا الأعمى شفع له النبي صلى الله عليه وسلم فلماذا قال في دعائه « اللهم فشفعه في » . فلم أنه شافع فيه ، ولفظه : « إن شئت صبرت وإن شئت دعوت لك » فقال : ادع لي ؛ فهو طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو له ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يصلي ويدعو هو أيضاً لنفسه ويقول في دعائه « اللهم فشفعه في » فدل ذلك على أن معنى قوله : « أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد » أي بدعائه وشفاعته كما قال عمر « اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توصلنا إليك بنبينا فتسقينا » .

فالحديثان معناهما واحد ، فهو صلى الله عليه وسلم علم رجلاً أن يتوصل به في حياته ، كما ذكر عمر أنهم كانوا يتوصلون به إذا أجدبوا ، ثم إنهم بعد موته إنما كانوا يتوصلون بغيره بدلاً عنه .

فلو كان التوصل به حياً وميتاً سواء ، والمتوصل به الذي دعا له الرسول ، كمن لم يدع له الرسول ، لم يعدلوا عن التوصل به — وهو أفضل الخلق وأكرمهم على ربه ، وأقربهم إليه وسيلة — إلى أن يتوصلوا بغيره ممن ليس مثله .

وكذلك لو كان أعمى توسل به ولم يدع له الرسول بمنزلة ذلك الأعمى ،
لكان عريان الصحابة أو بعضهم يفعلون مثل ما فعل الأعمى ، فعدو لهم عن هذا
إلى هذا — مع أنهم السابقون الأولون المهاجرون والأنصار والذين اتبعوهم
ياحسان ، فإنهم أعلم منا بالله ورسوله ، وبحقوق الله ورسوله ، وما يشرع من
الدعاء وينفع ، وما لم يشرع ولا ينفع ، وما يكون أنفع من غيره ، وهم في
وقت ضرورة ومحنة وجذب يطلبون تفريج الكربات ، وتيسير العسير ،
ولإنزال الغيث بكل طريق ممكن — دليل على أن المشروع ما سلكوه
دون ما تركوه .

ولهذا ذكر الفقهاء في كتبهم في الاستسقاء ما فعلوه دون ما تركوه ، وذلك
أن التوسل به حياً هو الطلب لدعائه وشفاعته وهو من جنس مسأله أن يدعو
لهم ، وهذا مشروع ؛ فما زال المسلمون يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم
في حياته أن يدعو لهم .

وأما بعد موته ، فلم يكن الصحابة يطلبون منه الدعاء ، لا عند قبره ولا عند
غير قبره ، كما يفعله كثير من الناس عند قبور الصالحين ؛ يسأل أحدهم الميت
حاجته ، أو يقسم على الله به ونحو ذلك .

وإن كان قد روى في ذلك حكايات عن بعض المتأخرين ؛ بل طلب الدعاء
مشروع من كل مؤمن لكل مؤمن ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
لعمرك لما استأذنه في العمرة : « لا تنسنا يا أخى من دعائك » — إن صح

الحديث — وحتى أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يطلب من أويس القرني أن يستغفر للطالب وإن كان الطالب أفضل من أويس بكثير^(١) .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول : ، ثم صلوا على فإنه من صلى على مرة صلى الله عليه عشراً ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد ، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت عليه شفاعتي يوم القيامة » مع أن طلبه من أمته الدعاء ليس هو طلب حاجة من المخلوق ، بل هو تعليم لأمته ما ينتفعون به في دينهم ، وبسبب ذلك التعليم والعمل بما عليهم يعظم الله أجره :

فإنا إذا صلينا عليه مرة صلى الله علينا عشراً ، وإذا سألنا الله له الوسيلة ، حلت علينا شفاعته يوم القيامة ، وكل ثواب يحصل لنا على أعمالنا فله مثل أجرنا من غير أن ينقص من أجرنا شيء ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم قال : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه من غير أن ينقص ذلك من أجورهم شيئاً » وهو الذي دعا أمته إلى كل خير ، وكل خير عمله أمته له مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء .

ولهذا لم يكن الصحابة والسلف يهدون إليه ثواب أعمالهم ولا يحجون عنه

(١) عبارة الرسالة المفردة « حتى أنه أمر عمر أن يطلب من أويس القرني أن يستغفر له مع أن عمر رضي الله عنه أفضل من أويس بكثير وقد أمر أمته أن يسألوا الله له الوسيلة وأن يصلوا عليه » .

ولا يتصدقون ولا يقرءون القرآن ويهدون له ، لأن كل ما عمله المسلمون من صلاة وصيام وحج وصدقة وقراءة له صلى الله عليه وسلم مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء ؛ بخلاف الوالدين ، فليس كل ما عمله المسلم من الخير يكون لوالديه مثل أجره ، ولهذا يهدى الثواب لوالديه وغيرهما .

ومعلوم أن الرسول صلى الله عليه وسلم مطيع لربه عز وجل في قوله تعالى : (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب) فهو صلى الله عليه وسلم لا يرغب إلى غير الله ، وقد ثبت عنه في الصحيح أنه قال : « يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفاً بغير حساب ، هم الذين لا يسترقون ، ولا يكتوون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون » .

فهؤلاء من أمته وقد مدحهم بأنهم لا يسترقون ، والاسترقاء أن يطلب من غيره أن يرقه ، والرقية من نوع الدعاء ، وكان هو صلى الله عليه وسلم يرقى نفسه وغيره ، ولا يطلب من أحد أن يرقه ، ورواية من روى في هذا : « لا يُرقون » ضعيفة غلط ؛ فهذا مما يبين حقيقة أمره لأمته بالدعاء أنه ليس من باب سؤال المخلوق للمخلوق الذي غيره أفضل منه ؛ فإن من لا يسأل الناس — بل لا يسأل إلا الله — أفضل ممن يسأل الناس ، ومحمد صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم .

ودعاء الغائب للغائب ، أعظم إجابة من دعاء الحاضر ، لأنه أكمل إخلاصاً وأبعد عن الشرك ، فكيف يشبه دعاء من يدعو لغيره بلا سؤال منه ، إلى دعاء

من يدعو الله بسؤاله وهو حاضر؟ وفي الحديث : « أعظم الدعاء إجابة دعاء غائب لغائب » وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة إلا وكل الله به ملكا كلما دعا لأخيه بدعوة قال الملك الموكل به : آمين ولك بمثل^(١) » .

وذلك أن المخلوق يطلب من المخلوق ما يقدر المخلوق عليه ، والمخلوق قادر على دعاء الله ومسأله ، فلماذا كان طلب الدعاء جائزا ، كما يطلب منه الإعانة بما يقدر عليه والأفعال التي يقدر عليها .

فأما ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى ، فلا يجوز أن يطلب إلا من الله سبحانه ، لا يطلب ذلك لا من الملائكة ، ولا من الأنبياء ، ولا من غيرهم ، ولا يجوز أن يقال لغير الله : اغفر لي ، واسقنا الغيث ، وانصرنا على القوم الكافرين ، أو اهد قلوبنا ، ونحو ذلك ؛ ولهذا روى الطبراني في معجمه أنه كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق يؤذى المؤمنين ، فقال الصديق : قوموا بنا نستغيث برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المنافق ، فجاءوا إليه فقال « إنه لا يستغاث بي ، وإنما يستغاث بالله » وهذا في الاستعانة مثل ذلك .

فأما ما يقدر عليه البشر ، فليس من هذا الباب ، وقد قال سبحانه :

(١) وفي الرسالة المفردة زيادة وهي ما بين القوسين [فالطالب للدعاء من غيره نوعان : أحدهما أن يكون سؤاله على وجه الحاجة إليه فهو بمنزلة أن يسأل الغائب قضاء حوائجه ، والثاني أن يطلب منه الدعاء لينتفع الداعي بدعائه له وينتفع هو فينتفع به هذا ، وهذا بذلك الدعاء كمن يطلب من المخلوق] .

(إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبْ لَكُمْ) وفي دعاء موسى عليه السلام « اللهم لك الحمد ، وإليك المشتكى ، وإليك المستعان ، وبك المستغاث ، وعليك التكلان ؛ ولا حول ولا قوة إلا بك » وقال أبو يزيد البسطامي : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق .

وقال أبو عبد الله القرشي : استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون ، وقال تعالى : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا) .

قال طائفة من السلف : كان أقوام يدعون الملائكة والأنبياء فقال الله تعالى : هؤلاء الذين تدعونهم هم عبادي كما أتم عبادي ، يرجون رحمتي كما ترجون رحمتي ، ويخافون عذابي كما تخافون عذابي ويتقربون إلى كما تتقربون إلى فهي سبحانه عن دعاء الملائكة والأنبياء ، مع إخباره لنا أن الملائكة يدعون لنا ويستغفرون ، ومع هذا فليس لنا أن نطلب ذلك منهم .

وكذلك الأنبياء والصالحون ، وإن كانوا أحياء في قبورهم ، وإن قدر أنهم يدعون للأحياء وإن وردت به آثار فليس لأحد أن يطلب منهم ذلك ، ولم يفعل ذلك أحد من السلف ، لأن ذلك ذريعة إلى الشرك بهم وعبادتهم من دون الله تعالى ؛ بخلاف الطلب من أحدهم في حياته ، فإنه لا يفضي إلى الشرك ؛ ولأن ما تفعله الملائكة ويفعله الأنبياء والصالحون بعد الموت هو بالأمر الكوني

فلا يؤثر فيه سؤال السائلين ، بخلاف سؤال أحدهم في حياته فإنه يشرع إجابة السائل ، وبعد الموت انقطع التكليف عنهم .

وقال تعالى : (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) .

فين سبحانه أن من اتخذ الملائكة والنبين أربابا فهو كافر ، وقال تعالى : (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرْكِ وَمَالَهُ مِنْهُمْ مَنْ ظَهِيرٍ * وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) وقال تعالى : (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) وقال تعالى : (مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ) وقال تعالى : (مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ) وقال تعالى : (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) وقال تعالى عن صاحب يس : (وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ * إِنَّي إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِنَّيْ ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَأَسْمَعُونَ) وقال تعالى : (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) وقال تعالى : (يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا) وقال تعالى : (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) .

فالشفاعة نوعان :-

أحدهما : الشفاعة التي نفاها الله تعالى كالتى أثبتها المشركون ، ومن ضاهاهم من جهال هذه الأمة ، وضلالهم ؛ وهى شرك .

والثانى : أن يشفع الشفيع بإذن الله . وهذه التى أثبتها الله تعالى لعباده الصالحين ، ولهذا كان سيد الشفعاء إذا طلب منه الخلق الشفاعة يوم القيامة يأتى ويسجد . قال : « فأحمد ربى بمحامد يفتحها على لا أحسنها الآن ، فيقال : أى محمد ارفع رأسك وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تشفع » فإذا أذن له فى الشفاعة شفع صلى الله عليه وسلم لمن أراد الله أن يشفع فيه .

قال أهل هذا القول : ولا يلزم من جواز التوسل والاستشفاع به — بمعنى أن يكون هو داعياً للمتوسل به — أن يشرع ذلك فى مغيبه ، وبعد موته ؛ مع أنه هو لم يدع للمتوسل به ، بل المتوسل به أقسم به أو سأل بذاته ، مع كون الصحابة فرقوا بين الأمرين ؛ وذلك لأنه فى حياته يدعو هو لمن توسل به ، ودعاؤه هو لله سبحانه أفضل دعاء الخلق ، فهو أفضل الخلق وأكرمهم على الله ، فدعاؤه لمن دعا له وشفاعته له أفضل دعاء مخلوق لمخلوق ، فكيف يقاس هذا بمن لم يدع له الرسول ، ولم يشفع له ؟ ومن سوى بين من دعا له الرسول ، وبين من لم يدع له الرسول ، وجعل هذا التوسل كهذا التوسل ، فهو من أضل الناس .

وأيضاً فإنه ليس فى طلب الدعاء منه ودعائه هو والتوسل بدعائه ضرر ،

بل هو خير بلا شر ، وليس في ذلك محذور ولا مفسدة ، فإن أحداً من الأنبياء عليهم السلام لم يعبد في حياته بحضوره ، فإنه ينهى من يعبده ويشرك به ولو كان شركاً أصغر ، كما نهى النبي صلى الله عليه وسلم من سجد له عن السجود له ، وكما قال « لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ، ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء محمد » وأمثال ذلك .

وأما بعد موته ، فيخاف الفتنة والإشراك به كما أشرك بالمسيح ، والعزير ، وغيرهما عند قبورهم ، . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فإنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله » أخرجاه في الصحيحين وقال « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد » وقال « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما فعلوا .

وبالجملة فمعنا أصلان عظيمان ، أحدهما : أن لا نعبد إلا الله . والثاني : أن لا نعبد إلا بما شرع ، لا نعبده بعبادة مبتدعة .

وهذان الأصلان هما تحقيق « شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » كما قال تعالى (لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) .

قال الفضيل بن عياض : أخلصه وأصوبه . قالوا : يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً . والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة . وذلك تحقيق قوله تعالى : (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) .

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول في دعائه : اللهم اجعل عملي كله صالحا ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً . وقال تعالى : (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ) .

وفي الصحيحين عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » وفي لفظ في الصحيح « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » وفي الصحيح وغيره أيضاً يقول الله تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء ، وهو كله للذي أشرك » .

ولهذا قال الفقهاء : العبادات مبناها على التوقيف كما في الصحيحين عن عمر ابن الخطاب أنه قبل الحجر الأسود وقال « والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك لما قبلتك » والله سبحانه أمرنا باتباع الرسول وطاعته . وموالاته ومحبته . وأن يكون الله ورسوله أحب إلينا مما سواهما ، وضمن لنا بطاعته ومحبته محبة الله وكرامته . فقال تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ) وقال تعالى : (وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا) وقال تعالى : (وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) ، وأمثال ذلك في القرآن كثير .

ولا ينبغي لأحد أن يخرج في هذا عما مضت به السنة ، وجاءت به الشريعة

ودل عليه الكتاب والسنة ، وكان عليه سلف الأمة ، وما عليه قال به ، وما لم
يعليه أمسك عنه ، ولا يقفو ما ليس له به علم ، ولا يقول على الله ما لم يعلم ،
فإن الله تعالى قد حرّم ذلك كله .

وقد جاء في الأحاديث النبوية ذكر ما سأل الله تعالى به ، كقوله صلى الله عليه
وسلم « اللهم إني أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنان بديع السموات
والأرض يا ذا الجلال والإكرام ، يا حي ، يا قيوم » رواه أبو داود وغيره ، وفي
لفظ: « اللهم إني أسألك بأنني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي
لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه .

وقد اتفق العلماء على أنه لا تتعقد اليمين بغير الله تعالى ، وهو الحلف
بالمخلوقات ؛ فلو حلف بالكعبة ، أو بالملائكة ؛ أو بالأنبياء ، أو بأحد من
الشيوخ ، أو بالملوك لم تتعقد يمينه ؛ ولا يشرع له ذلك ؛ بل ينهى عنه ، إما نهى
تحريم ؛ وإما نهى تنزيه . فإن للعلماء في ذلك قولين . والصحيح أنه نهى تحريم .
ففي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من كان حالفاً فليحلف
بالله ، أو ليصمت » وفي الترمذي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « من حلف بغير
الله فقد أشرك » ولم يقل أحد من العلماء المتقدمين أنه تتعقد اليمين بأحد من الأنبياء
إلا في نينا صلى الله عليه وسلم ؛ فإن عن أحمد روايتين في أنه تتعقد اليمين به ، وقد
طرد بعض أصحابه - كابن عقيل - الخلاف في سائر الأنبياء وهذا ضعيف .

وأصل القول بانعقاد اليمين بالنبي ضعيف شاذ ولم يقل به أحد من العلماء

فيما نعلم ، والذي عليه الجمهور كالك والشافعي وأبي حنيفة أنه لا تعتقد اليمين به
كإحدى الروايتين عن أحمد ، وهذا هو الصحيح .

وكذلك الاستعاذة بالمخلوقات ، بل إنما يستعاذ بالخالق تعالى وأسمائه
وصفاته ، ولهذا احتج السلف — كأحمد وغيره — على أن كلام الله غير مخلوق
فيما احتجوا به بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « أعوذ بكلمات الله التامات »
قالوا : فقد استعاذ بها ، ولا يستعاذ بمخلوق .

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا بأس بالرقى ما لم تكن
شركا » فنهى عن الرقى التي فيها شرك ، كالتى فيها استعاذة بالجن . كما
قال تعالى : (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا) .

ولهذا نهى العلماء عن التعازيم ، والإقسام التي يستعملها بعض الناس في حق
المصروع وغيره ، التي تتضمن الشرك ؛ بل نهوا عن كل ما لا يعرف معناه
من ذلك خشية أن يكون فيه شرك ، بخلاف ما كان من الرقى المشروعة ، فإنه
جائز . فإذا لا يجوز أن يقسم لا قسما مطلقاً ، ولا قسما على غيره إلا بالله
عز وجل ، ولا يستعيز إلا بالله عز وجل .

والسائل لله بغير الله إما أن يكون مقسما عليه ، وإما أن يكون طالباً
بذلك السبب كما توسل الثلاثة في الغار بأعمالهم ؛ وكما يتوسل بدعاء الأنبياء
والصالحين .

فإن كان إقساماً على الله بغيره فهذا لا يجوز .

وإن كان سؤالاً بسبب يقتضى المطلوب كالسؤال بالأعمال التى فيها طاعة الله ورسوله ، مثل السؤال بالإيمان بالرسول ومحبهه ، وموالاته ونحو ذلك فهذا جائز .

وإن كان سؤالاً بمجرد ذات الأنبياء والصالحين فهذا غير مشروع ، وقد نهى عنه غير واحد من العلماء وقالوا : إنه لا يجوز ، ورخص فيه بعضهم والأول أرجح كما تقدم ، وهو سؤال بسبب لا يقتضى حصول المطلوب ، بخلاف من كان طالباً بالسبب المقتضى لحصول المطلوب ، كالطلب منه سبحانه بدعاء الصالحين ، وبالأعمال الصالحة ، فهذا جائز ؛ لأن دعاء الصالحين سبب لحصول مطلوبنا الذى دعوا به ، وكذلك الأعمال الصالحة ، سبب لثواب الله لنا ، وإذا توسلنا بدعائهم وأعمالنا كنا متوسلين إليه تعالى بوسيلة ، كما قال تعالى : (يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ) والوسيلة هى الأعمال الصالحة ، وقال تعالى : (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ) .

وأما إذا لم تتوسل إليه سبحانه بدعائهم ، ولا بأعمالنا ، ولكن توسلنا بنفس ذواتهم لم يكن نفس ذواتهم سبباً يقتضى إجابة دعائنا ، فكنا متوسلين بغير وسيلة ولهذا لم يكن هذا منقولاً عن النبي صلى الله عليه وسلم نقلاً صحيحاً ، ولا مشهوراً عن السلف .

وقد نقل فى (منسك المروذى) عن أحمد دعاء فيه سؤال بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا قد يخرج على إحدى الروايتين عنه فى جواز القسم به ،

وأكثر العلماء على النهي في الأمرين ، ولا ريب أن لهم عند الله الجاه العظيم - كما قال تعالى في حق موسى وعيسى عليهما السلام ، وقد تقدم ذكر ذلك - لكن ما لهم عند الله من المنازل والدرجات أمر يعود نفعه إليهم ، ونحن ننتفع من ذلك باتباعنا لهم ومحبتنا لهم ؛ فإذا توسلنا إلى الله تعالى بإيماننا بنيه ومحبتهم وموالاته واتباع سنته فهذا من أعظم الوسائل . وأما التوسل بنفس ذاته مع عدم التوسل بالإيمان به وطاعته فلا يجوز أن يكون وسيلة ، فالتوسل بالمخلوق إذا لم يتوسل بالإيمان بالتوسل به ولا بطاعته فبأي شيء يتوسل ؟ .

والإنسان إذا توسل إلى غيره بوسيلة فإما أن يطلب من الوسيلة الشفاعة له عند ذلك ، مثل أن يقال لأبي الرجل أو صديقه أو من يكرم عليه : اشفع لنا عنده ، وهذا جائز .

وإما أن يقسم عليه ، كما يقول بحياة ولدك فلان ، وبترية أهلك فلان وبجرمة شيخك فلان ونحو ذلك والإقسام على الله تعالى بالمخلوقين لا يجوز ، ولا يجوز الإقسام على مخلوق بمخلوق .

وإما أن يسأل بسبب يقتضي المطلوب ، كما قال الله تعالى : (وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ) وسيأتي بيان ذلك .

وقد تبين أن الإقسام على الله سبحانه بغيره لا يجوز ، ولا يجوز أن يقسم بمخلوق أصلاً ، وأما التوسل إليه بشفاعة المأذون لهم في الشفاعة فجائز ، والأعمى كان قد طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو له كما طلب الصحابة منه

الاستسقاء ، وقوله « أتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة » أى بدعائه وشفاعته
لى ، ولهذا تمام الحديث « اللهم فشفعه فى » . فالذى فى الحديث متفق على جوازه ،
وليس هو مما نحن فيه ، وقد قال تعالى (وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ) .

فعلى قراءة الجمهور بالنصب : إنما يسألون بالله وحده ، لا بالرحم ،
وتساؤلهم بالله تعالى يتضمن إقسام بعضهم على بعض بالله ، وتعاهدهم بالله .

وأما على قراءة الخفض ، فقد قال طائفة من السلف : هو قولهم أسألك
بالله وبالرحم ، وهذا إخبار عن سؤالهم ، وقد يقال إنه ليس بدليل على جوازه ،
فإن كان دليلاً على جوازه ، فمعنى قوله أسألك بالرحم ليس إقساماً بالرحم —
والقسم هنا لا يسوغ — لكن بسبب الرحم ، أى لأن الرحم توجب لأصحابها
بعضهم على بعض حقوقاً ، كسؤال الثلاثة لله تعالى بأعمالهم الصالحة ، وكسؤالنا
بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعته .

ومن هذا الباب ما روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أن ابن أخيه
عبد الله بن جعفر كان إذا سأله بحق جعفر أعطاه ، وليس هذا من باب الإقسام ؛
فإن الإقسام بغير جعفر أعظم ، بل من باب حق الرحم ، لأن حق الله إنما
وجب بسبب جعفر ، وجعفر حقه على على .

ومن هذا الباب : الحديث الذى رواه ابن ماجه عن أبى سعيد عن النبي
صلى الله عليه وسلم فى دعاء الخارج إلى الصلاة « اللهم إنى أسألك بحق السائلين
عليك ، وبحق ممشأى هذا ، فإنى لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة ،

ولكن خرجت اتقاء سخطك ، وابتغاء مرضاتك . أسألك أن تتقذني من النار ،
وأن تغفر لي ذنوبي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » . وهذا الحديث في إسناده
عطية العوفي وفيه ضعف ، فإن كان من كلام النبي صلى الله عليه وسلم فهو من هذا
الباب لوجهين :

(أحدهما) لأن فيه السؤال لله تعالى بحق السائلين ، وبحق الماشين
في طاعته ، وبحق السائلين أن يجيبهم ، وبحق الماشين أن يثيبهم ، وهذا حق
أوجه الله تعالى ، وليس للخلق أن يوجب على الخالق تعالى شيئا . ومنه قوله
تعالى : (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) وقوله تعالى : (وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ
الْمُؤْمِنِينَ) وقوله تعالى (وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ
أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ) .

وفي الصحيح في حديث معاذ « حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا
به شيئا ، وحق العباد على الله إذا فعلوا ذلك أن لا يعذبهم » .

وفي الصحيح عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه
تبارك وتعالى أنه قال « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما .
فلا تظالموا » .

وإذا كان حق السائلين والعابدين له هو الإجابة والإثابة ؛ بذلك فذاك
سؤال الله بأفعاله ؛ كاستعاذة بنحو ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم « أعوذ برضاك
من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك ،

أنت كما أثبتت على نفسك ، فلا استعانة بمعافاته التي هي فعله ، كالسؤال بإثابته التي هي فعله .

وروى الطبراني في (كتاب الدعاء) عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله يقول : « يا عبدى إنما هي أربع : واحدة لى ، وواحدة لك ، وواحدة بينى وبينك ، وواحدة بينك وبين خلقى ؛ فالتى لى أن تعبدنى لا تشرك بى شيئاً ، والتى هى لك أجزيك بها أحوج ما تكون إليه ، والتى بينى وبينك منك الدعاء ومنى الإجابة ، والتى بينك وبين خلقى فأت إلى الناس ما تحب أن يأتوه إليك » .

وتقسيمه فى الحديث إلى قوله : واحدة لى ، وواحدة لك ، هو مثل تقسيمه فى حديث الفاتحة ، حيث يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ؛ نصفها لى ، ونصفها لعبدى ، ولعبدى ما سأل ، والعبد يعود عليه نفع النصفين ، والله تعالى يحب النصفين ؛ لكن هو سبحانه يحب أن يعبد ؛ وما يعطيه العبد من الإعانة ، والهداية هو وسيلة إلى ذلك فإنما يحبه لكونه طريقاً إلى عبادته ، والعبد يطلب ما يحتاج إليه أولاً ؛ وهو محتاج إلى الإعانة على العبادة ، والهداية إلى الصراط المستقيم ؛ وبذلك يصل إلى العبادة ، إلى غير ذلك مما يطول الكلام فيما يتعلق بذلك وليس هذا موضعه ، وإن كنا خرجنا عن المراد .

(الوجه الثانى) أن الدعاء له سبحانه وتعالى ، والعمل له سبب لحصول مقصود العبد ، فهو كالتوسل بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم والصالحين من أمته ، وقد تقدم أن الدعاء بالنبي صلى الله عليه وسلم والصالح إما أن يكون إقساماً به ،

أو سيأ به ، فإن كان قوله « بحق السائلين عليك » إقساماً فلا يقسم على الله إلا به وإن كان سيأ فهو سبب بما جعله هو سبحانه سيأ ، وهو دعاؤه وعبادته . فهذا كله يشبه بعضه بعضاً ، وليس في شيء من ذلك دعاء له بمخلوق من غير دعاء منه ، ولا عمل صالح منا .

وإذا قال السائل : أسألك بحق الملائكة ، أو بحق الأنبياء ، وحق الصالحين ؛ ولا يقول لغيره أقسمت عليك بحق هؤلاء - فإذا لم يحز له أن يحلف به ، ولا يقسم على مخلوق به ، فكيف يقسم على الخالق به ؟ وإن كان لا يقسم به وإنما يتسبب به ، فليس في مجرد ذوات هؤلاء سبب يوجب تحصيل مقصوده ، ولكن لا بد من سبب منه ، كالإيمان بالملائكة والأنبياء ، أو منهم كدعائهم . ولكن كثيراً من الناس تعودوا ذلك كما تعودوا الحلف بهم ، حتى يقول أحدهم : وحقك على الله ، وحق هذه الشبهة على الله .

وإذا قال القائل : أسألك بحق فلان ، أو بجماهه : أى أسألك بإيماني به ، ومحبتى له ، وهذا من أعظم الوسائل . قيل : من قصد هذا المعنى ، فهو معنى صحيح لكن ليس هذا مقصود عامة هؤلاء ، فمن قال : أسألك بإيماني بك وبرسولك ونحو ذلك ، أو بإيماني برسولك ومحبتى له ونحو ذلك ، فقد أحسن في ذلك كما قال تعالى في دعاء المؤمنين : (رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ) وقال تعالى : (الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامِنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) وقال تعالى : (إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامِنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ

خَيْرُ الرَّحِمِينَ) وقال تعالى : (رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا
مَعَ الشَّاهِدِينَ) .

وكان ابن مسعود يقول : اللهم أمرتني فأطعت ، ودعوتني فأجبت ، وهذا
سحر فاغفر لي . ومن هذا الباب حديث الثلاثة الذين أصابهم المطر ، فأووا إلى
الغار ، وانطبقت عليهم الصخرة ، ثم دعوا الله سبحانه بأعمالهم الصالحة ، ففرج
عنهم وهو ما ثبت في الصحيحين .

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا : حدثنا خالد بن خراش العجلاني وإسماعيل بن
إبراهيم ، قالا حدثنا صالح المري عن ثابت عن أنس قال : دخلنا على رجل من
الأنصار وهو مريض ثقيل ، فلم نبرح حتى قبض ، فبسطنا عليه ثوبه ، وله أم
عجوز كبيرة عند رأسه ، فالتفت إليها بعضنا وقال : يا هذه احتسبي مصيبتك عند
الله . قالت : وما ذاك ، مات ابني ؟ قلنا : نعم . قالت : أحق ما تقولون ؟ قلنا : نعم .
فمدت يديها إلى الله فقالت : اللهم إنك تعلم أني أسليت وهاجرت إلى رسولك
رجاء أن تعقبني عند كل شدة فرجا ، فلا تحمل على هذه المصيبة اليوم . قال :
فكشفت الثوب عن وجهه ، فما برحنا حتى طعمنا معه ! .

وروى في كتاب الحلية لأبي نعيم أن داود قال : بحق آبائي عليك ،
إبراهيم وإسحاق ويعقوب . فأوحى الله تعالى إليه : يا داود ! وأى حق
لآبائك على ؟ وهذا وإن لم يكن من الأدلة الشرعية فالإسرائيليات يعتضد بها ،
ولا يعتمد عليها .

وقد مضت السنة أن الحي يطلب منه الدعاء كما يطلب منه سائر ما يقدر عليه .

وأما المخلوق الغائب والميت ، فلا يطلب منه شيء . يحقق هذا الأمر أن التوسل به والتوجه به لفظ فيه إجمال واشتراك بحسب الاصطلاح ، فعناه في لغة الصحابة أن يطلب منه الدعاء والشفاعة ، فيكونون متوسلين ومتوجهين بدعائه وشفاعته ؛ ودعاؤه وشفاعته صلى الله عليه وسلم من أعظم الوسائل عند الله عز وجل .

وأما في لغة كثير من الناس فعناه أن يسأل الله تعالى ويقسم عليه بذاته ، والله تعالى لا يقسم عليه بشيء من المخلوقات ، بل لا يقسم بها بحال ، فلا يقال أقسمت عليك يارب بملائكتك ، ولا بكعبتك ، ولا بعبادك الصالحين ، كما لا يجوز أن يقسم الرجل بهذه الأشياء ، بل إنما يقسم بالله تعالى بأسمائه وصفاته ، ولهذا كان السنة أن يسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته فيقول « أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت المنان ، بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام ، يا حي يا قيوم ، وأسألك بأنك أنت الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد وأسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك » الحديث كما جاءت به السنة .

وأما أن يسأل الله ويقسم عليه بمخلوقاته فهذا لا أصل له في دين الإسلام : وكذلك قوله « اللهم إني أسألك بمعاهد العز من عرشك ، ومنتهى الرحمة من كتابك وباسمك الأعظم ، وجدك الأعلى ، وبكلماتك التامات » .

مع أن هذا الدعاء الثالث في جواز الدعاء به قولان للعلماء ، قال الشيخ أبو الحسن القدوري في كتابه المسمى بشرح الكرخي : قال بشر بن الوليد سمعت أبا يوسف قال : قال أبو حنيفة لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به ، وأكره أن يقول « بمعاقب العز من عرشك » أو « بحق خلقك » . وهو قول أبي يوسف قال أبو يوسف : « معقد العز من عرشه » هو الله ، فلا أكره هذا وأكره أن يقول : « بحق أنبيائك ورسلك ، وبحق البيت والمشعر الحرام » ، قال القدوري : المسألة بخلقه لا تجوز ، لأنه لا حق للمخلوق على الخالق ، فلا يجوز — يعني وفاقا — وهذا من أبي حنيفة وأبي يوسف وغيرهما يقتضي المنع أن يسأل الله بغيره .

فإن قيل : الرب سبحانه وتعالى يقسم بما شاء من مخلوقاته ، وليس لنا أن نقسم عليه إلا به . فإلا قيل : يجوز أن يقسم عليه بمخلوقاته ، وأن لا يقسم على مخلوق إلا بالخالق تعالى ؟ قيل لأن إقسامه بمخلوقاته من باب مدحه والثناء عليه وذكر آياته ، وإقسامنا نحن بذلك شرك إذا أقسمنا به لحض غيرنا أو لمنعه أو تصديق خبر أو تكذيبه .

ومن قال لغيره : أسألك بكذا . فإما أن يكون مقسما فهذا لا يجوز بغير الله تعالى ، والكفارة في هذا على المقسم لا على المقسم عليه ، كما صرح بذلك أئمة الفقهاء . وإن لم يكن مقسما فهو من باب السؤال ، فهذا لا كفارة فيه على واحد منهما . فتبين أن السائل لله بخلقه إما أن يكون حالفا بمخلوق ، وذلك لا يجوز . وإما أن يكون سائلا به ، وقد تقدم تفصيل ذلك . وإذا قال « بالله أفعل كذا »

فلا كفارة فيه على واحد منهما، وإذا قال « أقسمت عليك بالله لتفعلن » أو « والله لتفعلن » فلم يبر قسمه لزمت الكفارة الحالف .

والذى يدعو بصيغة السؤال فهو من باب السؤال به ، وأما إذا أقسم على الله تعالى مثل أن يقول : أقسمت عليك يارب لتفعلن كذا ، كما كان يفعل البراء بن مالك وغيره من السلف ، فقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « رب أشعث أغبر ذى طمرين مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره » وفى الصحيح أنه قال ، لما قال أنس بن النضر : والذى بعثك بالحق لا تكسر ثنية الربيع ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « يا أنس ، كتاب الله القصاص » فعفا القوم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » وهذا من باب الحلف بالله لتفعلن هذا الأمر ، فهو إقسام عليه تعالى به وليس إقساماً عليه بمخلوق .

وينبغى للخلق أن يدعوا بالأدعية الشرعية التى جاء بها الكتاب والسنة ، فإن ذلك لا ريب فى فضله وحسنه ، وأنه الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبیین والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

وقد تقدم أن ما يذكره بعض العامة من قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا كانت لكم حاجة فاسألوا الله بجاهى » حديث باطل لم يروه أحد من أهل العلم ، ولا هو فى شيء من كتب الحديث ، وإنما المشروع الصلاة عليه فى كل دعاء .

ولهذا لما ذكر العلماء الدعاء فى الاستسقاء وغيره ذكروا الصلاة عليه ، لم يذكروا فيما شرع للمسلمين فى هذه الحال التوسل به ، كما لم يذكر أحد من العلماء

دعاء غير الله والاستعانة المطلقة بغيره في حال من الأحوال ؛ وإن كان بينهما فرق ؛ فإن دعاء غير الله كفر ، ولهذا لم ينقل دعاء أحد من الموتى والغائبين — لا الأنبياء ولا غيرهم — عن أحد من السلف وأئمة العلم ، وإنما ذكره بعض المتأخرين ممن ليس من أئمة العلم المجتهدين ، بخلاف قولهم : أسألك بجاه نبينا أو بحقه ، فإن هذا مما نقل عن بعض المتقدمين فعله ، ولم يكن مشهورا بينهم ، ولا فيه سنة عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ بل السنة تدل على النهي عنه كما نقل ذلك عن أبي حنيفة وأبي يوسف وغيرهما .

ورأيت في فتاوى الفقيه أبي محمد بن عبد السلام قال : لا يجوز أن يتوسل إلى الله بأحد من خلقه إلا برسول الله صلى الله عليه وسلم إن صح حديث الأعمى : فلم يعرف صحته - ثم رأيت عن أبي حنيفة ، وأبي يوسف وغيرهما من العلماء ، أنهم قالوا : لا يجوز الإقسام على الله بأحد من الأنبياء ، ورأيت في كلام الإمام أحمد أنه في النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لكن قد يخرج على إحدى الروايتين عنه في جواز الحلف به - وقد تقدم أن هذا الحديث لا يدل إلا على التوسل بدعائه ، ليس من باب الإقسام بالمخلوق على الله تعالى ، ولا من باب السؤال بذات الرسول كما تقدم . والذين يتوسلون بذاته لقبول الدعاء عدلوا عما أمروا به وشرع لهم — وهو من أنفع الأمور لهم — إلى ما ليس كذلك ، فإن الصلاة عليه من أعظم الوسائل التي بها يستجاب الدعاء وقد أمر الله بها .

والصلاة عليه في الدعاء هو الذي دل عليه الكتاب والسنة والإجماع ، قال الله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) .

وفي الصحيح عنه أنه قال . « من صلى على مرة صلى الله عليه عشرآ » وعن فضالة بن عبيد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا يدعو في صلاته لم يحمد الله ، ولم يصل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « عجل هذا ! » ثم دعاه فقال له أولغيره : « إذا صلى أحدكم فليبدأ بحمد ربه ثم يصلي على النبي ثم يدعو بعده بما شاء » رواه أحمد وأبو داود - وهذا لفظه - والترمذي والنسائي وقال الترمذي حديث صحيح.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ؛ ثم صلوا على ؛ فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه عشرآ ثم سألوا الله لى الوسيلة فإنها درجة فى الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو ؛ فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه الشفاعة » .

وفي سنن أبي داود والنسائي عنه أن رجلا قال : يا رسول الله إن المؤذنين يفضلوننا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قل كما يقولون ، فإذا انتهت سل تعطه » وفي المسند عن جابر بن عبد الله قال « من قال حين ينادى المنادى : اللهم رب هذه الدعوة القائمة والصلاة النافعة صل على محمد وارض عنه رضاه لا سخط بعده ، استجاب الله له دعوته » .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة » رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي : حديث حسن .

وعن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ساعتان تفتح فيهما أبواب السماء قلما ترد على داع دعوته : عند حصول النداء ، والصف في سبيل الله » رواه أبو داود .

وفي المسند والترمذي وغيرهما عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذهب ربيع الليل قام فقال « يا أيها الناس اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة . جاء الموت بما فيه » .

قال أبي : قلت يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي ؟ قال « ماشئت » قلت ؛ الربع ؟ قال : ما شئت ، وإن زدت فهو خير لك « قلت : النصف ؟ قال « ماشئت » ، وإن زدت فهو خير لك « قلت : الثلثين ؟ قال « ماشئت » ، وإن زدت فهو خير لك « قلت : أجعل لك صلاتي كلها ؟ قال « إذا يكفيك الله ما أهمك من أمر دنياك وآخرتك » وفي لفظ « إذا تكفي همك ، ويغفر ذنبك » .

وقول السائل : أجعل لك من صلاتي ؟ يعني من دعائي ؛ فإن الصلاة في اللغة هي الدعاء . قال تعالى : (وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ^ط إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ) .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم « اللهم صل على آل أبي أوفى » وقالت : امرأة : صل على يا رسول الله وعلى زوجي ، فقال « صلى الله عليك وعلى زوجك » .

فيكون مقصود السائل أي يا رسول الله إن لي دعاء أدعوه به أستجلب به

الخير ، وأستدفع به الشر ، فكم أجعل لك من الدعاء ، قال : « ماشئت » فلما انتهى إلى قوله : أجعل لك صلاتي كلها ؟ قال « إذا تكفى همك ويغفر ذنبك » . وفي الرواية الأخرى « إذا يكفيك الله ما أهمك من أمر دنياك وآخرتك » ، وهذا غاية ما يدعو به الإنسان من جلب الخيرات ودفع المضرات ؛ فإن الدعاء فيه تحصيل المطلوب ، واندفاع المرهوب ، كما بسط ذلك في مواضعه .

وقد ذكر علماء الإسلام وأئمة الدين الأدعية الشرعية ، وأعرضوا عن الأدعية البدعية ، فينبغي اتباع ذلك . والمراتب في هذا الباب ثلاث :-

(إحداهما) أن يدعو غير الله وهو ميت أو غائب ، سواء كان من الأنبياء والصالحين أو غيرهم فيقول : يا سيدى فلان أغثنى ، أو أنا أستجير بك ، أو أستغيث بك ، أو انصرنى على عدوى . ونحو ذلك فهذا هو الشرك بالله . والمستغيث بال مخلوقات قد يقضى الشيطان حاجته أو بعضها وقد يمثل له في صورة الذى استغاث به فيظن أن ذلك كرامة لمن استغاث به ؛ وإنما هو شيطان دخله وأغواه لما أشرك بالله ، كما يتكلم الشيطان فى الأصنام وفى المصروع وغير ذلك ومثل هذا واقع كثيرا فى زماننا وغيره وأعرف من ذلك ما يطول وصفه فى قوم استغاثوا بى أو بغيرى ، وذكروا أنه أتى شخص على صورتي أو صورة غيرى وقضى حوائجهم فظنوا أن ذلك من بركة الاستغاثة (بى) أو بغيرى ! وإنما هو شيطان أضلهم وأغواهم وهذا هو أصل عبادة الأصنام واتخاذ الشركاء مع الله تعالى فى الصدر الأول من القرون الماضية كما ثبت ذلك فهذا أشرك بالله نعوذ بالله من ذلك .

وأعظم من ذلك أن يقول : اغفر لي وتب علي ، كما يفعله طائفة من الجاهل
المشركين .

وأعظم من ذلك أن يسجد لقبره ويصلي إليه ويرى الصلاة أفضل
من استقبال القبلة ، حتى يقول بعضهم : هذه قبلة الخواص والكعبة قبلة العوام .

وأعظم من ذلك أن يرى السفر إليه من جنس الحج ، حتى يقول إن السفر
إليه مرات يعدل حجة ، وغلاتهم يقولون : الزيارة إليه مرة أفضل من حج
البيت مرات متعددة . ونحو ذلك ، فهذا شرك بهم ، وإن كان يقع كثير
من الناس في بعضه .

(الثانية) أن يقال للبيت أو الغائب من الأنبياء والصالحين : ادع الله لي ،
أو ادع لنا ربك ، أو اسأل الله لنا كما تقول النصارى لمريم وغيرها - فهذا أيضاً
لا يستريب عالم أنه غير جائز ، وأنه من البدع التي لم يفعلها أحد من سلف الأمة ؛
وإن كان السلام على أهل القبور جائزاً ومخاطبتهم جائزة كما كان النبي صلى الله عليه
وسلم يعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقول قائلهم « السلام عليكم أهل الديار
من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون . يغفر الله لنا ولكم نسأل
الله لنا ولكم العافية . اللهم لا تحرمننا أجرهم ، ولا تفتنا بعدهم ، واغفر لنا ولهم » .

وروى أبو عمر بن عبد البر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما من
رجل يمر بقبر الرجل كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى
يرد عليه السلام » .

وفي سنن أبي داود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما من مسلم
يسلم على إلا رد الله على روحه حتى أرد عليه السلام » لكن ليس من
المشروع أن يطلب من الأموات لا دعاء ولا غيره . وفي موطأ مالك أن ابن
عمر كان يقول : « السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا أبا بكر ، السلام
عليك يا أبت » ثم ينصرف .

وعن عبد الله بن دينار قال : رأيت عبد الله بن عمر يقف على قبر النبي
صلى الله عليه وسلم فيصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ، ويدعو لأبي بكر وعمر .
وكذلك أنس بن مالك وغيره نقل عنهم أنهم كانوا يسلمون على النبي صلى الله عليه
وسلم ، فإذا أرادوا الدعاء استقبلوا القبلة يدعون الله تعالى ، لا يدعون مستقبل
الحجرة ، وإن كان قد وقع في بعض ذلك طوائف من الفقهاء والصوفية
والعامة من لا اعتبار بهم ، فلم يذهب إلى ذلك إمام متبع في قوله ، ولا من له
في الأمة لسان صدق عام .

ومذهب الأئمة الأربعة — مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد — وغيرهم
من أئمة الإسلام أن الرجل إذا سلم على النبي صلى الله عليه وسلم وأراد أن يدعو
لنفسه فإنه يستقبل القبلة ، واختلفوا في وقت السلام عليه فقال الثلاثة — مالك
والشافعي وأحمد — : يستقبل الحجرة ويسلم عليه من تلقاء وجهه ، وقال
أبو حنيفة : لا يستقبل الحجرة وقت السلام ، كما لا يستقبلها وقت
الدعاء باتفاقهم .

ثم في مذهبه قولان : -

قل يستدبر الحجرة وقيل يجعلها عن يساره .

فهذا نزاعهم في وقت السلام ، وأما في وقت الدعاء فلم يتنازعوا في أنه إنما يستقبل القبلة لا الحجرة ^(١) .

والحكاية التي تذكر عن مالك أنه قال للنصور لما سأله عن استقبال الحجرة فأمره بذلك وقال : « هو وسيلتك ووسيلة أليك آدم » : كذب على مالك ليس لها إسناد معروف وهو خلاف الثابت المنقول عنه بأسانيد الثقات في كتب أصحابه كما ذكره إسماعيل بن إسحاق القاضي وغيره ، مثل ما ذكروا عنه أنه سئل عن أقوام يطيلون القيام مستقبل الحجرة يدعون لأنفسهم ، فأنكر مالك ذلك ، وذكر أنه من البدع ، التي لم يفعلها الصحابة والتابعون لهم بإحسان ، وقال : لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها .

ولا ريب أن الأمر كما قاله مالك ، فإن الآثار المتواترة عن الصحابة والتابعين تبين أن هذا لم يكن من عملهم وعاداتهم ، ولو كان استقبال الحجرة عند الدعاء مشروعاً لكانوا هم أعلم بذلك ، وكانوا أسبق إليه ممن بعدهم والداعى يدعو الله وحده . وقد نهى عن استقبال الحجرة عند دعائه لله تعالى ، كما نهى عن استقبال الحجرة عند الصلاة لله تعالى كما ثبت في صحيح مسلم وغيره عن أبي مرثد

(١) في الرسالة المفردة : بل قد تنازع العلماء في السلام على النبي صلى الله عليه وسلم : فقال أبو حنيفة يستقبل القبلة ، ويستدبر القبر . وقال مالك والشافعي : بل يستقبل القبر ، وعند الدعاء يستقبل القبلة ، ويستدبر القبر ، ويجعل القبر عن يساره ، أو يمينه ، وهو الصحيح ، إذ لا محذور في ذلك

الغنى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها» .
فلا يجوز أن يصل إلى شيء من القبور ، لا قبور الأنبياء ولا غيرهم ، لهذا
الحديث الصحيح .

ولا خلاف بين المسلمين أنه لا يشرع أن يقصد الصلاة إلى القبر ، بل هذا
من البدع المحدثه ، وكذلك قصد شيء من القبور ، لاسيما قبور الأنبياء والصالحين
عند الدعاء ، فإذا لم يحز قصد استقباله عند الدعاء لله تعالى فدعاء الميت نفسه
أولى أن لا يجوز ، كما أنه لا يجوز أن يصل مستقبله فلأن لا يجوز الصلاة له
بطريق الأولى .

فعلم أنه لا يجوز أن يسأل الميت شيئاً : لا يطلب منه أن يدعو الله له
ولا غير ذلك ، ولا يجوز أن يشكى إليه شيء من مصائب الدنيا والدين ؛ ولو
جاز أن يشكى إليه ذلك في حياته ، فإن ذلك في حياته لا يفضي إلى الشرك
وهذا يفضي إلى الشرك ، لأنه في حياته مكلف أن يجيب سؤال من سأله لما له
في ذلك من الأجر والثواب ، وبعد الموت ليس مكلفاً ، بل ما يفعله من ذكر
الله تعالى ودعاء ونحو ذلك — كما أن موسى صلى في قبره ؛ وكما صلى الأنبياء
خلف النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المعراج بيت المقدس ، وتسبيح أهل الجنة
والملائكة — فهم يتمتعون بذلك ، وهم يفعلون ذلك بحسب ما يسره الله لهم
ويقدره لهم . ليس هو من باب التكليف الذي يمتحن به العباد .

وحينئذ . فسؤال السائل للميت لا يؤثر في ذلك شيئاً ، بل ما جعله الله فاعلاً
له هو يفعله وإن لم يسأله العبد ؛ كما يفعل الملائكة ما يؤمرون به ، وهم إنما

يطيعون أمر ربهم لا يطيعون أمر مخلوق ؛ كما قال سبحانه وتعالى : (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ) فهم لا يعملون إلا بأمره سبحانه وتعالى .

ولا يلزم من جواز الشيء في حياته جوازه بعد موته ؛ فإن بيته كانت الصلاة فيه مشروعة . وكان يجوز أن يجعل مسجداً . ولما دفن فيه حرم أن يتخذ مسجداً ؛ كما في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما فعلوا . ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن كره أن يتخذ مسجداً .

وفي صحيح مسلم وغيره عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك » . وقد كان صلى الله عليه وسلم في حياته يصلي خلفه ، وذلك من أفضل الأعمال ، ولا يجوز بعد موته أن يصلي الرجل خلف قبره ، وكذلك في حياته يطلب منه أن يأمر ، وأن يفتي وأن يقضى ، ولا يجوز أن يطلب ذلك منه بعد موته . وأمثال ذلك كثير .

وقد كره مالك وغيره أن يقول الرجل : زرت قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن هذا اللفظ لم يرد . والأحاديث المروية في زيارة قبره كلها ضعيفة بل كذب . وهذا اللفظ صار مشتركاً في عرف المتأخرين يراد به (الزيارة البدعية) : التي في معنى الشرك ؛ كالذي يزور القبر ليسأله أو يسأل الله به ، أو يسأل الله عنده .

و (الزيارة الشرعية) : هي أن يزوره الله تعالى : للدعاء له ، والسلام عليه كما يصلى على جنازته .

فهذا الثانى هو المشروع ، ولكن كثير من الناس لا يقصد بالزيارة إلا المعنى الأول ، فكره مالك أن يقول : زرت قبره ، لما فيه من إيهام المعنى الفاسد الذى يقصده أهل البدع والشرك .

(الثالثة) أن يقال : أسألك بفلان ، أو بجاه فلان عندك ونحو ذلك الذى تقدم عن أبى حنيفة وأبى يوسف وغيرهما أنه منهى عنه .

وتقدم أيضاً أن هذا ليس بمشهور عن الصحابة ، بل عدلوا عنه إلى التوسل بدعاء العباس وغيره .

وقد تبين ما فى لفظ « التوسل » من الاشتراك بين ما كانت الصحابة تفعله وبين ما لم يكونوا يفعلونه ، فإن لفظ التوسل والتوجه فى عرف الصحابة ولغتهم هو التوسل والتوجه بدعائه وشفاعته .

ولهذا يجوز أن يتوسل ويتوجه بدعاء كل مؤمن ، وإن كان بعض الناس من المشايخ المتبوعين يحتج بما يرويه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا أعتكم الأمور فعليكم بأهل القبور » « أو فاستعينوا بأهل القبور » فهذا الحديث كذب مفترى على النبى صلى الله عليه وسلم بإجماع العارفين بحديثه ، لم يروه أحد من العلماء بذلك ، ولا يوجد فى شيء من كتب الحديث المعتمدة .

وقد قال تعالى : (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بُذُنُوبَ عِبَادِهِ خَبِيرًا) وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام أنه غير مشروع ، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عما هو أقرب من ذلك - عن اتخاذ القبور مساجد ونحو ذلك - ولعن أهله تحذيراً من التشبه بهم ، فإن ذلك أصل عبادة الأوثان . كما قال تعالى : (وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا) .

فإن هؤلاء كانوا قوماً صالحين في قوم نوح . فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوروهم ، ثم اتخذوا الأصنام على صورهم ، كما تقدم ذكر ذلك عن ابن عباس وغيره من علماء السلف . فمن فهم معنى قوله : (إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) عرف أنه لا يعين على العبادة الإعانة المطلقة إلا الله وحده وأنه يستعان بالمخلوق فيما يقدر عليه ، وكذلك الاستغاثة لا تكون إلا بالله ، والتوكل لا يكون إلا عليه (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) فالنصر المطلق - وهو خلق ما يغلب به العدو - لا يقدر عليه إلا الله ، وفي هذا القدر كفاية لمن هداه الله ، والله أعلم .

وهذا الذي نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم من هذا الشرك هو كذلك في شرائع غيره من الأنبياء : ففي التوراة أن موسى عليه السلام نهى بني إسرائيل عن دعاء الأموات وغير ذلك من الشرك ، وذكر أن ذلك من أسباب عقوبة الله لمن فعله ؛ وذلك أن دين الأنبياء عليهم السلام واحد وإن تنوعت شرائعهم ، كما في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إنا معشر الأنبياء ديننا واحد » .

وقد قال تعالى : (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ
 وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ
 مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ) وقال تعالى : (يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّو مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا
 إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطُّوا
 أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) وقال تعالى : (فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
 حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ
 أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * * مُبِينٌ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا
 مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَاعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ
 فَرِحُونَ) وهذا هو دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره من الأولين
 والآخرين ، كما قد بسط الكلام عليه في غير هذا الموضع .

فصل

وإذا تبين ما أمر الله به ورسوله ، وما نهى الله عنه ورسوله — في حق أشرف الخلق وأكرمهم على الله عز وجل ، وسيد ولد آدم وخاتم الرسل والنبين ، وأفضل الأولين والآخرين ، وأرفع الشفعاء منزلة وأعظمهم جاها عند الله تبارك وتعالى — تبين أن من دونه من الأنبياء والصالحين أولى بأن لا يشرك به ، ولا يتخذ قبره وثناً يعبد ، ولا يدعى من دون الله لا في حياته ولا في مماته .

ولا يجوز لأحد أن يستغيث بأحد من المشايخ الغائبين ، ولا الميتين مثل أن يقول : ياسيدى فلانا أغنى ، وانصرنى ، وادفع عني ، أو أنا في حسبك ، ونحو ذلك ؛ بل كل هذا من الشرك الذي حرم الله ورسوله ، وتحريمه مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام ، وهؤلاء المستغيثون بالغائبين والميتين عند قبورهم وغير قبورهم — لما كانوا من جنس عباد الأوثان — صار الشيطان يضلهم ويغويهم ، كما يضل عباد الأوثان ويغويهم ، فتصور الشياطين في صورة ذلك المستغاث به ، وتخطبهم بأشياء على سبيل المكاشفة ، كما تخطب الشياطين الكهان ، وبعض ذلك صدق ، لكن لا بد أن يكون في ذلك ما هو كذب بل الكذب أغلب عليه من الصدق .

وقد تقضى الشياطين بعض حاجاتهم ، وتدفع عنهم بعض مايكرهونه ، فيظن أحدهم أن الشيخ هو الذى جاء من الغيب حتى فعل ذلك ، أو يظن أن الله تعالى صور ملكا - على صورته - فعل ذلك ، ويقول أحدهم : هذا سر الشيخ وحاله ! وإنما هو الشيطان تمثل على صورته ليضل المشرك به المستغيث به ، كما تدخل الشياطين فى الأصنام وتكلم عابديها وتقضى بعض حوائجهم ، كما كان ذلك فى أصنام مشركى العرب ، وهو اليوم موجود فى المشركين من الترك والهند وغيرهم ؛ وأعرف من ذلك وقائع كثيرة فى أقوام استغاثوا بى ، وبغيرى فى حال غيبتنا عنهم ، فرأونى أو ذاك الآخر الذى استغاثوا به قد جثا فى الهواء ودفعا عنهم ، ولما حدثونى بذلك بينت لهم أن ذلك إنما هو شيطان تصور بصورتى وصورة غيرى من الشيوخ الذين استغاثوا بهم ليظنوا أن ذلك كرامات للشيخ فتقوى عزائمهم فى الاستغاثة بالشيوخ الغائبين والميتين ، وهذا من أكبر الأسباب التى بها أشرك المشركون وعبدوا الأوثان .

وكذلك المستغيثون من النصارى بشيوخهم الذين يسمونهم العلامس يرون أيضاً من يأتى على صورة ذلك الشيخ النصرانى الذى استغاثوا به فيقضى بعض حوائجهم .

وهؤلاء الذين يستغيثون بالأموات من الأنبياء ، والصالحين ، والشيوخ ، وأهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم غاية أحدهم أن يجرى له بعض هذه الأمور ، أو يحكى لهم بعض هذه الأمور ، فيظن أن ذلك كرامة ، وخرق عادة بسبب هذا العمل . ومن هؤلاء من يأتى إلى قبر الشيخ

الذى يشرك به ويستغيث به فينزل عليه من الهواء طعام ، أو نفقة أو سلاح ، أو غير ذلك مما يطلبه فيظن ذلك كرامة لشيخه ، وإنما ذلك كله من الشياطين . وهذا من أعظم الأسباب التى عبت بها الأوثان .

وقد قال الخليل عليه السلام : (وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ) كما قال نوح عليه السلام ، ومعلوم أن الحجر لا يضل كثيراً من الناس إلا بسبب اقضى ضلالهم ، ولم يكن أحد من عباد الأصنام يعتقد أنها خلقت السماوات والأرض ، بل إنما كانوا يتخذونها شفعاء ووسائط لأسباب :

منهم من صورها على صور الأنبياء والصالحين .

ومنهم من جعلها تماثيل وطلاسم للكواكب والشمس والقمر .

ومنهم من جعلها لأجل الجن .

ومنها من جعلها لأجل الملائكة . فالمعبود لهم في قصدهم إنما هو الملائكة
والأنبياء والصالحون أو الشمس ، أو القمر . وهم في نفس الأمر يعبدون
الشياطين فهي التي تقصد من الإنس أن يعبدوها وتظهر لهم ما يدعوهم إلى
ذلك ، كما قال تعالى : (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا
يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ
مُؤْمِنُونَ) .

وإذا كان العابد ممن لا يستحل عبادة الشياطين أو هموه أنه إنما يدعو

الأنبياء والصالحين والملائكة وغيرهم ممن يحسن العابد ظنه به ، وأما إن كان ممن لا يحرم عبادة الجن عرفوه أنهم الجن .

وقد يطلب الشيطان المتمثل له في صورة الإنسان أن يسجد له أو أن يفعل به الفاحشة أو أن يأكل الميتة ويشرب الخمر ، أو أن يقرب لهم الميتة ، وأكثرهم لا يعرفون ذلك ، بل يظنون أن من يخاطبهم إما ملائكة وإما رجال من الجن يسمونهم رجال الغيب ، ويظنون أن رجال الغيب أولياء الله غائبون عن أبصار الناس ، وأولئك جن تمثل بصور الإنس ، أو رؤيت في غير صور الإنس ، وقال تعالى : (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا) كان الإنس إذا نزل أحدهم بواد يخاف أهله قال : أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه ، وكانت الإنس تستعيز بالجن فصار ذلك سبباً لطغيان الجن ، وقالت : الإنس تستعيز بنا !

وكذلك الرقي ، والعزائم الأعجمية : هي تتضمن أسماء رجال من الجن يدعون ، ويستغاث بهم ويقسم عليهم بمن يعظمونه فتطيعهم الشياطين بسبب ذلك في بعض الأمور . وهذا من جنس السحر والشرك قال تعالى : (وَاتَّبِعُوا مَا نَزَّلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنٌ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنٌ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ

وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

وكثير من هؤلاء يطير في الهواء وتكون الشياطين قد حملته وتذهب به إلى مكة وغيرها ، ويكون مع ذلك زنديقا يجحد الصلاة وغيرها مما فرض الله ورسوله ، ويستحل المحارم التي حرمها الله ورسوله ، وإنما يقترن به أولئك الشياطين لما فيه من الكفر والفسوق والعصيان ، حتى إذا آمن بالله ورسوله وتاب والتزم طاعة الله ورسوله ، فارقه تلك الشياطين ، وذهبت تلك الأحوال الشيطانية من الإخبارات والتأثيرات ؛ وأنا أعرف من هؤلاء عددا كثيرا بالشام ومصر والحجاز واليمن ، وأما الجزيرة والعراق وخراسان والروم ففيها من هذا الجنس أكثر مما بالشام وغيرها ، وبلاد الكفار من المشركين وأهل الكتاب أعظم .

ولما ظهرت هذه الأحوال الشيطانية التي أسبابها الكفر والفسوق والعصيان بحسب ظهور أسبابها ، فحيث قوى الإيمان والتوحيد ونور الفرقان والإيمان وظهرت آثار النبوة والرسالة ضعفت هذه الأحوال الشيطانية ، وحيث ظهر الكفر والفسوق والعصيان قويت هذه الأحوال الشيطانية ، والشخص الواحد الذي يجتمع فيه هذا وهذا الذي تكون فيه مادة تمده للإيمان ومادة تمده للنفاق يكون فيه من هذا الحال وهذا الحال .

والمشركون الذين لم يدخلوا في الإسلام مثل البخشية والطونية والبدى

ونحو ذلك من علماء المشركين وشيوخهم الذين يكونون للكفار من الترك والهند والخطا وغيرهم تكون الأحوال الشيطانية فيهم أكثر ، ويصعد أحدهم في الهواء ويحدثهم بأمور غائبة ، ويبقى الدف الذي يغني لهم به يمشي في الهواء ، ويضرب رأس أحدهم إذا خرج عن طريقهم ، ولا يرون أحدا يضرب له ، ويطوف الإناء الذي يشربون منه عليهم ولا يرون من يحمله ، ويكون أحدهم في مكان فمن نزل منهم عنده ضيفه طعاما يكفيهم ، ويأتيهم بألوان مختلفة . وذلك من الشياطين تأتيه من تلك المدينة القرية منه أو من غيرها تسرقه وتأتي به . وهذه الأمور كثيرة عند من يكون مشركا أو ناقص الإيمان من الترك وغيرهم ، وعند التار من هذا أنواع كثيرة .

وأما الداخلون في الإسلام إذا لم يحققوا التوحيد واتباع الرسول ، بل دعوا الشيوخ الغائبين واستغاثوا بهم ، فلهم من الأحوال الشيطانية نصيب بحسب ما فيهم مما يرضى الشيطان . ومن هؤلاء قوم فيهم عبادة ودين مع نوع جهل ، يحمل أحدهم فيوقف بعرفات مع الحجاج من غير أن يحرم إذا حاذى المواقيت ولا يبيت بمزدلفة ، ولا يطوف طواف الإفاضة ، ويظن أنه حصل له بذلك عمل صالح وكرامة عظيمة من كرامات الأولياء ، ولا يعلم أن هذا من تلاعب الشيطان به .

فإن مثل هذا الحج ليس مشروعاً ولا يجوز باتفاق علماء المسلمين ، ومن ظن أن هذا عبادة وكرامة لأولياء الله فهو ضال جاهل .

ولهذا لم يكن أحد من الأنبياء والصحابة يفعل بهم مثل هذا ، فإنهم أجل

قدرا من ذلك ، وقد جرت هذه القضية لبعض من حمل هو وطائفة معه من الإسكندرية إلى عرفة ، فرأى ملائكة تنزل وتكتب أسماء الحجاج فقال : هل كتبتموني ؟ قالوا أنت : لم تحج كما حج الناس ، أنت لم تتعب ولم تحرم ولم يحصل لك من الحج الذى يثاب الناس عليه ما حصل للحجاج . وكان بعض الشيوخ قد طلب منه بعض هؤلاء أن يحج معهم فى الهواء فقال لهم : هذا الحج لا يسقط به الفرض عنكم لأنكم لم تحجوا كما أمر الله ورسوله .

ودين الإسلام مبنى على أصليين : على أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيء ، وعلى أن يعبد بما شرعه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، وهذان هما حقيقة قولنا : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » . فالإله هو الذى تأله القلوب عبادة واستعانة ومحبة وتعظيما وخوفا ورجاء وإجلالا وإكراما . والله عز وجل له حق لا يشركه فيه غيره فلا يعبد إلا الله ، ولا يدعى إلا الله ، ولا يخاف إلا الله ، ولا يطاع إلا الله .

والرسول صلى الله عليه وسلم هو المبلغ عن الله تعالى أمره ونهيه وتحليله وتحريمه ، فالحلal ما حله ، والحرام ما حرمه ، والدين ما شرعه ؛ والرسول صلى الله عليه وسلم واسطة بين الله وبين خلقه فى تبليغ أمره ونهيه ، ووعدده ووعيده ، وتحليله وتحريمه ؛ وسائر ما بلغه من كلامه .

وأما فى إجابة الدعاء ، وكشف البلاء ، والهداية والإغناء ، فالله تعالى هو الذى يسمع كلامهم ويرى مكانهم ويعلم سرهم ونجواهم ؛ وهو سبحانه قادر على

إنزال النعم ، وإزالة الضر والسقم ، من غير احتياج منه إلى أن يعرفه أحد
أحوال عباده ، أو يعينه على قضاء حوائجهم .

والأسباب التي بها يحصل ذلك هو خلقها ويسرها . فهو مسبب الأسباب
وهو الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

(يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) فأهل السموات يسألونه ، وأهل
الأرض يسألونه ، وهو سبحانه لا يشغله سمع كلام هذا عن سمع كلام هذا ،
ولا يغلطه اختلاف أصواتهم ولغاتهم ، بل يسمع ضجيج الأصوات ، باختلاف
اللغات ، على تفنن الحاجات ، ولا يبرمه إلحاح الملحين ، بل يحب الإلحاح في الدعاء .

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم إذا سألوا النبي صلى الله عليه وسلم
عن الأحكام أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإجابتهم كما قال تعالى :
(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ) : (وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا
يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ) : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ)
إلى غير ذلك من مسألتهم .

فلما سألوه عنه سبحانه وتعالى قال : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ
أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) فلم يقل سبحانه « فقل » بل قال تعالى : (فَإِنِّي
قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ) .

فهو قريب من عباده كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث لما كانوا
يرفعون أصواتهم بالذكر والدعاء فقال : « أيها الناس أربعوا على أنفسكم

فإنكم لا تدعون أصم ولا غابيا ، إنما تدعون سميعاً قريباً ، إن الذى تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا قام أحدكم إلى صلاته فلا يصقن قبل وجهه فإن الله قبل وجهه ، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملكا ، ولكن عن يساره أو تحت قدمه » وهذا الحديث فى الصحيح من غير وجه .

وهو سبحانه فوق سماواته على عرشه بأئن من خلقه ليس فى مخلوقاته شىء من ذاته ولا فى ذاته شىء من مخلوقاته . وهو سبحانه غنى عن العرش وعن سائر المخلوقات لا يفتقر إلى شىء من مخلوقاته ، بل هو الحامل بقدرته العرش وحمله العرش .

وقد جعل تعالى العالم طبقات ، ولم يجعل أعلاه مفتقرا إلى أسفله ، فالسماوات لا تفتقر إلى الهواء والهواء لا يفتقر إلى الأرض ، فالعلى الأعلى رب السموات والأرض وما بينهما الذى وصف نفسه بقوله تعالى : (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) أجل وأعظم وأغنى وأعلى من أن يفتقر إلى شىء بحمل أو غير حمل ، بل هو الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، الذى كل ما سواه مفتقر إليه ، وهو مستغن عن كل ما سواه .

وهذه الأمور مبسطة فى غير هذا الموضع ، قد بين فيه التوحيد الذى بعث الله به رسوله قولا وعملا ، فالتوحيد القولى مثل سورة الإخلاص (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) والتوحيد العملى (قُلْ يَتَأَيَّهَا الْكَافِرُونَ) ولهذا كان النبي

صلى الله عليه وسلم يقرأ بهاتين السورتين فى ركعتى الفجر وركعتى الطواف وغير ذلك .

وقد كان أيضاً يقرأ فى ركعتى الفجر وركعتى الطواف : (قُلُواْ ءَامَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا) الآية . وفى الركعة الثانية بقوله تعالى : (قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) .

فإن هاتين الآيتين ؛ فهما دين الإسلام ، وفيهما الإيمان القولى والعملى ، فقوله تعالى (ءَامَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ) إلى آخرها يتضمن الإيمان القولى والإسلام . وقوله : (قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) - الآية إلى آخرها - يتضمن الإسلام والإيمان العملى ، فأعظم نعمة أنعمها الله على عباده الإسلام والإيمان ، وهما فى هاتين الآيتين ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

فهذا آخر السؤال والجواب الذى أحبت إيراده هنا بالفاظه ؛ لما اشتمل عليه من المقاصد المهمة ، والقواعد النافعة فى هذا الباب ، مع الاختصار . فإن التوحيد هو سر القرآن ، ولب الإيمان ، وتنويع العبارة بوجوه الدلالات من أهم الأمور وأنفعها للعباد ، فى مصالح المعاش والمعاد ، والله أعلم .

قال شيخ الإسلام

في قول القائل : أسألك بحق السائلين عليك وما في معناه ؟ .

الجواب : أما قول القائل أسألك بحق السائلين عليك : فإنه قد روى في حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم رواه ابن ماجه ؛ لكن لا يقوم بإسناده حجة ؛ وإن صح هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم كان معناه : أن حق السائلين على الله أن يجيبهم ، وحق العابدين له أن يثيبهم ، وهو كتب ذلك على نفسه . كما قال : (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) . فهذا سؤال الله بما أوجبه على نفسه كقول القائلين : (رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ) . وكدعاء الثلاثة : الذين أوتوا إلى الغار لما سألوهم بأعمالهم الصالحة ، التي وعدهم أن يثيبهم عليها . اهـ

وما كان الشيع في قاعة الترسيم

دخل إلى عنده ثلاثة رهبان من الصعيد فناظرهم ، وأقام عليهم الحجة بأنهم كفار ، وما هم على الذي كان عليه إبراهيم والمسيح .

فقالوا له : نحن نعمل مثل ما تعملون أتم تقولون بالسيدة نفيسة ، ونحن نقول بالسيدة مريم ، وقد أجمعنا نحن وأتم على أن المسيح ومريم أفضل من الحسين ومن نفيسة ، وأتم تستغيثون بالصالحين الذين قبلكم ونحن كذلك ، فقال لهم وأى من فعل ذلك ففيه شبه منكم ، وهذا ما هو دين إبراهيم الذي كان عليه ، فإن الدين الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام : أن لا نعبد إلا الله وحده لا شريك له ، ولا ند له ، ولا صاحبة له ولا ولده ، ولا نشارك معه ملكا ، ولا شمساً ولا قرأ ولا كوكباً ، ولا نشارك معه نبياً من الأنبياء ولا صالحاً (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا) .

وأن الأمور التي لا يقدر عليها غير الله لا تطلب من غيره ، مثل إنزال المطر وإنبات النبات ، وتفريج الكربات والهدى من الضلالات ، وغفران الذنوب ؛ فإنه لا يقدر أحد من جميع الخلق على ذلك ولا يقدر عليه إلا الله .

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام : تؤمن بهم ونعظمهم ونوقرهم ، وتبعمهم

ونصدقهم في جميع ما جاءوا به، ونطيعهم. كما قال نوح؛ وصالح، وهود، وشعيب :
(أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا) فجعلوا العبادة والتقوى لله وحده؛ والطاعة
لهم؛ فإن طاعتهم من طاعة الله . فلو كفر أحد بنبي من الأنبياء وآمن بالجميع
ما ينفعه إيمانه حتى يؤمن بذلك النبي ؛ وكذلك لو آمن بجميع الكتب وكفر
بكتاب كان كافراً حتى يؤمن بذلك الكتاب، وكذلك الملائكة واليوم الآخر
فليسمعوا ذلك منه قالوا : الدين الذي ذكرته خير من الدين الذي نحن وهؤلاء
عليه . ثم انصرفوا من عنده .

سئل - رحمه الله -

عن يوس الأرض دائماً هل يأثم ؟ وعن يفعل ذلك لسبب أخذ رزق وهو مكره كذلك ؟ .

فأجاب : أما تقيل الأرض ، ورفع الرأس ، ونحو ذلك مما فيه السجود ، مما يفعل قدام بعض الشيوخ وبعض الملوك : فلا يجوز ؛ بل لا يجوز الانحناء كالركوع أيضاً ، كما قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : الرجل منا يلتقي أخاه أينحنى له ؟ قال : « لا » ، ولما رجع معاذ من الشام سجد للنبي صلى الله عليه وسلم . فقال : « ما هذا يا معاذ ؟ » قال يا رسول الله رأيتهم في الشام يسجدون لأساقفتهم ، ويذكرون ذلك عن أنبيائهم . فقال : « كذبوا عليهم لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من أجل حقه عليها يا معاذ إنه لا ينبغي السجود إلا لله » .

وأما فعل ذلك تديناً وتقرباً فهذا من أعظم المنكرات ، ومن اعتقد مثل هذا قربة ، وتديناً فهو ضال مفتر ، بل يبين له أن هذا ليس بدين ولا قربة ، فإن أصر على ذلك استتيب فإن تاب وإلا قتل .

وأما إذا أكره الرجل على ذلك ، بحيث لو لم يفعله لأفضى إلى ضربه

أو حبسه ، أو أخذ ماله أو قطع رزقه الذى يستحقه من بيت المال ونحو ذلك من الضرر ، فإنه يجوز عند أكثر العلماء ، فإن الإكراه عند أكثرهم يبيح الفعل المحرم كشرب الخمر ونحوه ، وهو المشهور عن أحمد وغيره ؛ ولكن عليه مع ذلك أن يكرهه بقلبه ، ويحرص على الامتناع منه بحسب الإمكان ، ومن علم الله منه الصدق أعانه الله تعالى ، وقد يعافى بركة صدقه من الأمر بذلك ! . وذهب طائفة إلى أنه لا يبيح إلا الأقوال دون الأفعال : ويروى ذلك عن ابن عباس ونحوه ، قالوا إنما التقية باللسان ، وهو الرواية الأخرى عن أحمد .

وأما فعل ذلك لأجل فضول الرياسة والمال فلا ، وإذا أكره على مثل ذلك ونوى بقلبه أن هذا الخضوع لله تعالى : كان حسناً ، مثل أن يكره كلمة الكفر وينوى معنى جائزاً والله أعلم .

وسئل الإمام العالم العامل الرباني ، والحبر النوراني ؛ أبو العباس :

أحمد بن تيمية - رحمه الله تعالى :-

عن « النهوض والقيام الذي يعتاده الناس ، من الإكرام عند قدوم شخص معين معتبر ، هل يجوز أم لا ؟ وإذا كان يغلب على ظن المتقاعد عن ذلك أن القادم يخجل ، أو يتأذى باطناً ، وربما أدى ذلك إلى بغض وعداوة ومقت ، وأيضاً المصادفات في المحافل وغيرها ، وتحريك الرقاب إلى جهة الأرض والانخفاض ، هل يجوز ذلك أم يحرم ؟ فإن فعل ذلك الرجل عادة وطبعاً ليس فيه له قصد ، هل يحرم عليه أم لا يجوز ذلك في حق الأشراف والعلماء ، وفيمن يرى مطمئناً بذلك دائماً هل يآثم على ذلك أم لا ؟ وإذا قال سجدت لله هل يصح ذلك أم لا ؟ .

فأجاب :-

الحمد لله رب العالمين . لم تكن عادة السلف على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين : أن يعتادوا القيام كلما يروونه عليه السلام ؛ كما يفعله كثير من الناس ؛ بل قد قال أنس بن مالك : لم يكن شخص أحب إليهم من النبي صلى الله عليه وسلم ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له ، لما يعلمون من كراهته

لذلك ؛ ولكن ربما قاموا للقادم من مغيبه تلقياً له ، كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قام لعكرمة ، وقال للأَنْصار لما قدم سعد بن معاذ : « قوموا إلى سيدكم » وكان قد قدم ليحكم في بني قريظة لأنهم نزلوا على حكمه .

والذي ينبغي للناس : أن يعتادوا اتباع السلف على ما كانوا عليه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنهم خير القرون ، وخير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ، فلا يعدل أحد عن هدى خير الورى ، وهدى خير القرون إلى ما هو دونه . وينبغي للمطاع أن لا يقر ذلك مع أصحابه ، بحيث إذا رأوه لم يقوموا له إلا في اللقاء المعتاد .

وأما القيام لمن يقدم من سفر ونحو ذلك تلقياً له فحسن .

وإذا كان من عادة الناس إكرام الجائى بالقيام ولو ترك لا اعتقد أن ذلك لترك حقه أو قصد خفضه ولم يعلم العادة الموافقة للسنة فالأصلح أن يقام له ، لأن ذلك أصلح لذات البين ، وإزالة التباغض والشحناء ؛ وأما من عرف عادة القوم الموافقة للسنة : فليس في ترك ذلك إيذاء له ، وليس هذا القيام المذكور في قوله صلى الله عليه وسلم : « من سره أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار » فإن ذلك أن يقوموا له وهو قاعد ، ليس هو أن يقوموا لمجيئه إذا جاء ؛ ولهذا فرقوا بين أن يقال قمت إليه وقت له ، والقائم للقادم ساواه في القيام ، بخلاف القائم للقاعد .

وقد ثبت في صحيح مسلم : أن النبي صلى الله عليه وسلم لما صلى بهم قاعداً

فى مرضه صلوا قىاماً أمرهم بالقعود . وقال : لا تعظمونى كما يعظم الأعاجم
بعضها بعضاً ، وقد نهاهم عن القيام فى الصلاة وهو قاعد ، لئلا يتشبه بالأعاجم
الذين يقومون لعظماهم وهم قعود .

وجماع ذلك كله الذى يصلح اتباع عادات السلف وأخلاقهم ، والاجتهاد
عليه بحسب الإمكان . فمن لم يعتقد ذلك ولم يعرف أنه العادة وكان فى ترك
معاملته بما اعتاد من الناس من الاحترام مفسدة راجحة فإنه يدفع أعظم
الفسادين بالتزام أدناها كما يجب فعل أعظم الصالحين بتفويت أدناها .

فصل

وأما الانحناء عند التحية فينهي عنه ، كما في الترمذي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنهم سألوه عن الرجل يلقي أخاه ينحني له ؟ قال : « لا » ، ولأن الركوع والسجود لا يجوز فعله إلا لله عز وجل ؛ وإن كان هذا على وجه التحية في غير شريعتنا ، كما في قصة يوسف : (وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِي هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ) وفي شريعتنا لا يصلح السجود إلا لله ، بل قد تقدم نهيهِ عن القيام كما يفعله الأعاجم بعضها لبعض ، فكيف بالركوع والسجود ؟ وكذلك ما هو ركوع ناقص يدخل في النهي عنه .

وقال شيخ الإسلام :

فصل

كان المشركون يُعبدون أنفسهم وأولادهم لغير الله ، فيسمون بعضهم عبد الكعبة ، كما كان اسم عبد الرحمن بن عوف ، وبعضهم عبد شمس كما كان اسم أبي هريرة ، واسم عبد شمس بن عبد مناف ، وبعضهم عبد اللات ، وبعضهم عبد العزى وبعضهم عبد مناة وغير ذلك مما يضيفون فيه التعييد إلى غير الله ، من شمس أو وثن أو بشر أو غير ذلك مما قد يشرك بالله .

ونظير تسمية النصارى عبد المسيح . فغير النبي صلى الله عليه وسلم ذلك وعبداهم لله وحده ، فسمى جماعات من أصحابه : عبد الله وعبد الرحمن ، كما سمي عبد الرحمن بن عوف ونحو هذا ، وكما سمي أبا معاوية وكان اسمه عبد العزى فسماه عبد الرحمن ، وكان اسم مولاه قيوم فسماه عبد القيوم .

ونحو هذا من بعض الوجوه ما يقع في الغالية من الرافضة ومشابهم الغالين في المشايخ ، فيقال هذا غلام الشيخ يونس أو للشيخ يونس أو غلام ابن

الرفاعى أو الحريرى ونحو ذلك مما يقوم فيه للبشر نوع تأله ، كما قد يقوم فى نفوس
النصارى من المسيح ، وفى نفوس المشركين من آلهتهم رجاء وخشية ، وقد
يتوبون لهم ، كما كان المشركون يتوبون لبعض الآلهة ، والنصارى للمسيح
أو لبعض القديسين .

وشريعة الإسلام الذى هو الدين الخالص لله وحده : تعيد الخلق لربهم
كما سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتغيير الأسماء الشركية
إلى الأسماء الإسلامية ، والأسماء الكفرية إلى الأسماء الإيمانية ، وعامة ما سمي
به النبى صلى الله عليه وسلم عبد الله وعبد الرحمن . كما قال تعالى : (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ
أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) فإن هذين الإسمين هما أصل بقية
أسماء الله تعالى .

وكان شيخ الإسلام الهروى قد سمي أهل بلده بعامة أسماء الله الحسنى ،
وكذلك أهل يثرب : غلب على أسمائهم التعبيد لله ، كعبد الله ، وعبد الرحمن ،
وعبد الغنى ، والسلام ، والقاهر ، واللطيف ، والحكيم ، والعزیز ،
والرحيم ، والمحسن ، والأحد ، والواحد ، والقادر ، والكريم ،
والملك ، والحق . وقد ثبت فى صحيح مسلم عن نافع عن عبد الله بن عمر :
أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن
وأصدقها حارث وهمام وأقبحها حرب ومرة » وكان من شعار أصحاب رسول
الله صلى الله عليه وسلم معه فى الحروب : يا بنى عبد الرحمن ! يا بنى عبد الله ! يا بنى

عيد الله ! كما قالوا ذلك يوم بدر ؛ وحنين ؛ والفتح ؛ والطائف ؛ فكان شعار
المهاجرين يا بنى عبد الرحمن ! وشعار الخزرج يا بنى عبد الله ! وشعار الأوس
يا بنى عبد الله ! ٢ .

﴿ آخر ما وجد الآن من كتاب توحيد الإلهية ﴾
ويليه كتاب توحيد الربوبية

فهرس المجلد الأول

مقدمة الكتاب

الصفحة	الموضوع
١ - ١١	خطبة شيخ الإسلام .
١٢ - ١٧	قاعدة في الجماعة والفرقة وسبب ذلك ونتيجته .
١٢ - ١٤	تفسير آيات وصية الله كقوله شرع لكم من الدين . بيان ما شرع لنا .
١٤ - ١٧	تفرق أهل الكتاب كان بعد مجيء العلم وكان كبرا وحسدا وكذلك هو في هذه الأمة . التفرق بعد الاجتهاد إلخ .
١٥ - ١٦	أمر الله بطهارة القلب وطهارة البدن .
١٧	سبب الاجتماع والألفة . والفرقة . ونتيجتهما .
٢٠ - ٣٦	قاعدة في توحيد الإلهية وإخلاص العمل والوجه لله .
٢٠	عبادة الله وحده هي قلب رضى الدين بيان ذلك بتسعة أوجه .
٢١ - ٢٢	مقدمة تتضمن أن كل مخلوق محتاج إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره .
٢٢	الوجه الأول يجب أن يكون الله هو المقصود وهو المعين على المطلوب وما سواه هو المكروه وهو المعين على دفع المكروه . من تفسير إياك نعبد وإياك نستعين . معنى الرب والإله .
٢٣ - ٢٥ و ٢٨	الثانى ان الله خلق الخلق للعبادة . حاجة الخلق إلى الله فى عبادتهم إياه ولذتهم .
٣٢	الإقرار بتوحيد الربوبية وحده لا يدخل الرجل فى الإسلام .
٢٣ - ٣٤	حق الله على العباد .

الصفحة	الموضوع
٢٤	مفسدة عبادة غير الله أعظم من مفسدة الالتذاذ بالطعام المسموم .
٢٥	تفسير القيوم . هذا الوجه مبنى على أصلين . الإيمان بالله غذاء الإنسان ولذته في الدنيا .
٢٥	ليست عبادة الله تكليفا ومشقة وإن وقعا تبعا .
٢٦ - ٢٧	الأصل الثانى اللذة فى الآخرة برويته . حجج فى إثباتها .
٢٧	الثالث ليس عند المخلوق نفع ولا ضرر إلا بإذن الله . ما يقتضيه هذا الوجه .
٢٨ - ٢٩	تعلق العبد بما سوى الله مضره عليه .
٢٩	الخامس توكله على المخلوق يوجب الضرر عليه من جهته .
	السادس الرب كريم مع غناه عن المخلوق . الخلق لا يحسنون إلى العباد إلا لحظوظهم منهم .
٣١	السابع غالب الخلق يطلبون حاجاتهم بك وإن كان ضررا عليك الثامن والتاسع الخلق لا يقدرّون على دفع الضرر عنك ولا جلب المنفعة لك إلا بإذنه .
٣٣	فصل فى مجمل ما تقدم .
٣٤ - ٣٦	فصل يتضمن مقدمة لتفسير إياك نعبد وإياك نستعين .
	حاصلها أن كل نفس لا بد لها من شيء تطمئن إليه هو إلهها وتعتمد عليه . والمستعان والمراد على قسمين .
٣٦	ينقسم الناس فى العبادة والاستعانة إلى أربعة أقسام .

- ٣٧ - ٣٨ فصل في وجوب اختصاص الخالق بالعبادة .
- ٣٧ - ٣٨ نعمه على العبد وكمال غناه وجوده وكماله تعالى في نفسه .
- ٣٩ - ٥٠ فصل والعبد كلما كان أذل لله كان أعز وإن افتقر إلى الخلق فالأمر بالعكس .
- ٤٠ الناس ثلاثة أصناف ظالم وعادل ومحسن .
- ٤٢ - ٤٦ و ٤٦ - ٤٧ كل مخلوق فقير بالذات إلى الله .
- ٤٣ - ٤٥ لفظ العبد في القرآن .
- ٤٤ تفسير وله أسلم من في السموات الآية ونظائرها .
- ٤٧ - ٤٨ الفرق بين دلالة الآيات على الخالق ودلالة قياس التمثيل والشمول .
- ٤٨ الفطر تعرف الخالق بدون استدلال .
- ٤٩ - ٥٠ طريق إثبات الخالق عند المتفلسفة .
- ٥١ - ٦٣ فصل والسعادة في معاملة الخلق .
- ٥٢ - ٥٤ ما يخلص العبد من الشرك وظلم الخلق وظلم نفسه .
- ٥٣ شرح حديث إنما هي أربع .
- ٥٥ - ٥٦ صلاح القلوب بعبادة الله وفسادها بتأله غيره .
- ٥٦ - ٥٨ تفسير إنما ذلكم الشيطان ونقد قول من قال وأخاف من لا يخافك
- ٥٨ - ٦٣ تفسير (وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رَبِّيُّونَ) .
- ٦٤ - ٧٧ فصل قال الله اهدنا الصراط المستقيم إلى آخر السورة .

الصفحة	الموضوع
٦٥	بعض من انحرف عن الصراط المستقيم . نعت النبي في القرآن بالعبودية وتحقيق الرسول لمعناها .
٦٦	الغلو وقع في بعض ضلال الشيعة وجهال المتصوفة .
٦٧ - ٦٨	حقوق الأنبياء على الخلق .
٦٩ - ٧١	حق الله .
٧١ - ٧٦	أصناف العبادات .
٧٦ - ٧٧	الشهادتان أول الواجبات . الفرق بين المشروع والممنوع . الخارج عن الشريعة لا يفرق بينهما .
٧٨ - ٧٩	فصل في أن لا يسأل العبد إلا الله . ما يسوغ أن يسأل العبد من غيره
٨٠ - ٨٥	« فصل » العبادات مبناها على الشرع والاتباع .
٨١ - ٨٢	لا يجب الوفاء بالنذر لغير الله . النذر لا يجلب منفعه .
٨٢ - ٨٣	ما تفعله الشياطين لأوليائها . كرامات الأولياء .
٨٣	ما يلزم الحاج .
٨٦ - ٨٧	فصل في جماع الحسنات والسيئات . إخلاص الدين لله أصل العدل .
	الشرك أعظم الظلم .
٨٧	تفسير: (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ) .
٨٨ - ٩٦	اعلم رحمك الله أن الشرك بالله أعظم ذنب .
٨٨ - ٨٩	الله هو المستحق للعبادة لذاته وغيره لا يصلح أن يكون إلها .

٨٩ - ٩١ من جمع بين مشهد الأمر الشرعي ومشهد الأمر الكوني ومن غاب عن أحدهما .

٩١ - ٩٣ تقسيم الشرك إلى نوعين . حقيقة الشرك في الربوبية والإلهية وكيفية التخلص من الثاني .

٩٣ - ٩٤ الشرك الخفي . والمحبة لله . ومع الله . طريق التخلص من آفات الشرك .

٩٥ - ٩٦ محركات القلوب إلى الله الحب والخوف والرجاء . ما يبعثها في القلب .
٩٧ - ١٠٠ فصل ذكر الله عن إبراهيم أنه قال : (وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُ) .
٩٧ - ٩٨ أنواع الشرك ثلاثة .

٩٩ أربع مقاصد حسنة في ترك قبول أموال الناس .
١٠٠ أربع مقاصد فاسدة في ترك قبولها . تفصيل في مسألة القبول .

١٠١ - ١٠٧ سئل عن قال : يجوز الاستغائة بالنبي .

١٠٣ معنى الاستغائة ، ما يجوز طلبه من المخلوق .

١٠٥ - ١٠٦ الاستشفاع والتوسل .

١٠٨ - ١١٣ ما تقول السادة فيمن يقول لا يستغاث برسول الله .

١٠٨ - ١٠٩ شفاعات الرسول في الآخرة .

١٠٩ الاستشفاع به في حياته .

١٠٩ التوسل به بعد موته . من قال لا يدعى إلا الله فهو مصيب .

- ١١٠ حكم المعاني والعبارات الواردة في الكتاب والسنة وغيرهما نقياً وإثباتاً، معنى الغياث والمغيث وهل هو من أسماء الله ؟ .
- ١١١ الفرق بين الداعي والمستغيث ، الاستغاثة والقسم بصفات الله .
- ١١٢ التفصيل في الاستغاثة، ومن خالف الكتاب والسنة .
- ١١٤ - ١١٥ سمي الله آلهة المشركين شفعاء وشركاء ، نفي الشفاعة إلى آخره .
- تفسير : (قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ) .
- ١١٦ - ١٢١ فصل في الشفاعة المنفية .
- ١١٦ احتجاج الخوارج على نفي الشفاعة، ثبوت أنواع من الشفاعة .
- ١١٨ لا تكون الشفاعة إلا بعد الإذن والرضا .
- ١١٩ نفي الخلّة .
- ١٢١ - ١٣٨ سئل عن رجلين قال أحدهما لا بد لنا من واسطة .
- ١٢١ إن أراد في تبليغ أمر الله .
- ١٢٣ - ١٢٥ وإن أراد أنه لا بد من واسطة نسأله جلب المنافع
- ١٢٦ - ١٢٧ و ١٣٤ و ١٣٥ إن أثبت الوسائط بين الله وبين خلقه كالحجاب إلخ .
- ١٢٧ - ١٢٩ الفروق التي بين الخالق والمخلوق .
- ١٢٩ - ١٣٠ و ١٣٥ حقيقة شرك المشركين .
- ١٣٠ لا شفاعة في المشركين ولا يجوز الدعاء لهم بالمغفرة، لا تكون شفاعة للوحدين إلا بعد الإذن والرضا .

- ١٣١-١٣٧ و ١٣٨ بحث في الأسباب .
- ١٣١ دعاء المسلمين بعضهم لبعض .
- ١٣٢ طلب الرسول من الأمة أن يدعوا له ليس من باب سؤا لهم .
- ١٣٣ - ١٣٤ استحباب سؤال الرجل من أخيه الدعاء والتفصيل في ذلك ، النعمة بالإيمان والطاعة . هل نعم الدنيا بدون الدين نعمة .
- ١٣٥ - ١٣٧ بين الله التوحيد وحسم مواد الشرك وكذلك الرسول .
- ١٣٨ الشريعة جاءت بتحصيل المصالح .
- ١٣٩ قال السائل: إن الله يسمع الدعاء بواسطة محمد .
- ١٤٠ - ١٤١ سئل هل يجوز التوسل بالنبي . وجوابه نحو ما تقدم .

فهرس التوسل والوسيلة ١٤٢ - ٣٦٨

الصفحة

الموضوع

١٤٢ خطبة الكتاب

١٤٣ الوسيلة إلى الله هي الإيمان به وطاعته وهي فرض على كل مسلم وانظر (ص ٢٤٧).

١٤٣ شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ودعاؤه إنما ينتفع بهما من شفع له ودعاه له.

١٤٣ لفظ « التوسل » في عرف الصحابة (وانظر ٣٤٤ ، ٢٤٢ — ٢٤٦)

١٤٤ نهى الله نبيه صلى الله عليه وسلم عن الاستغفار لعمه وأبيه لأن الإيمان شرط للمغفرة.

١٤٤ الكفار يتفاضلون في الكفر كما يتفاضل أهل الإيمان في الإيمان.

١٤٥ انتفاع العباد بالشفاعة والدعاء، موقوف على شروط وله موانع.

١٤٥ استغفار إبراهيم لأبيه الكافر ، ثم براءته منه ، والله لا يغفر أن يشرك به .

١٤٦ - ١٤٧ حديث « استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي » وحديث « إن أبي وأباك في النار » .

١٤٧ حديث « يا فاطمة » بنت محمد . . . لا أغنى عنك من الله شيئاً » .

١٤٨ شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الذنوب من أمته متفق عليها ،

وأنكرها أهل البدع من الخوارج والمعتزلة وما احتج به المنكرون للشفاعة
(وانظر ص ٣١٧)

١٤٩ جواب أهل السنة على شبهة منكرى الشفاعة .

١٥١ استشفاع المشركين بتماثيل الصالحين وقبورهم (وانظر ١٥٨ ، ١٦٤ ، ١٦٦)

١٥٣ لفظ « التوسل » يراد به ثلاثة أمور (وانظر ص ١٩٩)

١٥٤ التوحيد هو أصل الدين الذى لا يقبل الله دينا غيره (وانظر ص ١٨٩ ،
٣١٠ ، ٣٣٢ ، ٣٦٥) .

١٥٥ المشركون جعلوا مع الله آلهة أخرى مقرين بأنها مخلوقة .

١٥٦ قولهم فى تلييتهم : « لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك »

١٥٧ المشركون صنفان : قوم نوح ، وقوم إبراهيم .

١٥٧ تصور الشياطين بصور الآدميين وإضلالهم للناس (انظر ١٦٨ — ١٦٩)

١٥٨ قولهم : يا سيدى جرجس ، ياستى الحنونة مريم . . . أنا فى حسبك .

١٥٩ دعاء الصالحين بعد موتهم أعظم أنواع الشرك (وانظر ص ١٦٩)

١٦٠ من تعبد بعبادة ليست واجبة ولا مستحبة وهو يعتقد أنها واجبة أو مستحبة
فهو ضال .

١٦١ لا نص عن الأئمة الأربعة باستحباب سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عند قبره

(وانظر ص ١٦٦ ، ١٩٥ ، ٢٢٩ ، ٢٣٨ ، ٢٤١)

١٦٢ كل بدعة ليست واجبة ولا مستحبة فهى بدعة سيئة وضلالة باتفاق المسلمين .

١٦٢ قول ابن مسعود : خط لنا النبي صلى الله عليه وسلم خطأ وخط خطوطاً عن يمينه وشماله وقال : « هذا سبيل الله ، وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه » :

١٦٣ حديث « لا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك » وحديث « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » (وانظر ص ٣٠٣-٣٠٤) ١٦٤ الفعل إذا كان يفضى إلى مفسدة وليس فيه مصلحة راجحة ينهى عنه .

١٦٥ زيارة القبور على وجهين ، وبيان الزيارة الشرعية .

١٦٦ قول النبي صلى الله عليه وسلم وفعله عند زيارته قبر أمه (وانظر ص ١٤٦) ١٦٦ بيان زيارة القبور البدعية (وانظر ص ١٣٦)

١٦٧ ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر كانوا من صلحاء قوم نوح ، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم وصوروا تماثيلهم ثم عبدوهم .

١٦٧ رأى الملاحدة الفلاسفة في زيارة القبور ذكره ابن سينا والكتب المضمون بها على غير أهلها المنحولة للغزالي (وانظر ص ٢٤٥) .

١٦٨ الرد على ملاحدة الفلاسفة فيما ذهبوا إليه من اتصال الأرواح .

١٦٨ الاستعاذة من الشيطان أو تصور الشياطين للناس (وانظر ص ١٥٧) .

١٦٩ الشياطين تأتي الأنبياء لتفسد عليهم عبادتهم فكيف من هم دون الأنبياء .

١٧٢ انتصار الشيخ عبد القادر الجيلاني على الشيطان .

١٧٣ الشخص لا يكون في مكانين في حالة واحدة .

١٧٥ رأى أهل الجاهلية فيما يكون من الشيطان في مواضع الشرك .

١٧٦ الاستدلال على الولاية بما لا يدل عليها .

١٧٧ الولاية إيمان وتقوى ، والكرامة من الله ثمرتهما .

١٧٨ الذين يدعون غير الله كالذين يدعون الكواكب ويتخذون الملائكة أربابا .

١٨٠ إذا لم يشرع دعاء الملائكة لم يشرع دعاء من مات من الصالحين .

١٨١ سؤال الخلق محرم في الأصل ، لكنه أبيع للضرورة ، وتركه توكلنا على الله أفضل .

١٨١ الوصية النبوية لحبر الأمة ابن عباس .

١٨٢ الكلمة العظيمة التي أسرها النبي صلى الله عليه وسلم لطائفة من أصحابه حين بايعوه .

١٨٢ كان الصحابة يسقط السوط من يد أحدهم فلا يقول لأحد ناولني إياه .

١٨٢ حديث الثناء على الذين « لا يسترقون ولا يكتون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون » .

١٨٢ كان النبي صلى الله عليه وسلم يرقى نفسه وغيره ، ولم يكن يسترقي .

١٨٣ قال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم : هل من حاجة ؟ فقال : « أما إليك فلا »

١٨٤ دعاء المسلم لأخيه حسن مأمور به .

١٨٦ من السؤال ما لا يكون مأمورا به - والمستول مأمور بإجابة السائل ،

وقد يكون السؤال منها عنه . وإن كان المستول مأمورا بالإجابة .

١٨٦ الصديق وأكابر الصحابة لم يكونوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو لهم ، وكانوا يطلبون منه أن يدعو للمسلمين ، والشواهد على ذلك من الوقائع .

١٨٦ الصديق هو الذي نزلت فيه آية (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى . . .) والمقارنة بين الصديق وبين زيد بن حارثة وعلى بن أبي طالب في معنى (وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى) الدعاء جزاءه ومن الجزاء طلب الدعاء .

١٨٩ الإسلام مبنى على أصليين : عبادة الله وحده ، وأن نعبد به بما شرعه (وانظر ص ١٥٤ . ٣١٠ ، ٣٣٢) .

١٨٩ لما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصل إلى بيت المقدس كانت صلاته إليه من الإسلام . فلما أمر بالتوجه إلى الكعبة صار العدول عنها إلى الصخرة خروجاً عن دين الإسلام .

١٩٠ سؤال المخلوقين فيه ثلاث مفاصد : الافتقار إلى غير الله (وهو من نوع الشرك) . وإيذاء المسئول (وهو من نوع ظلم الخلق) . والذل لغير الله (وهو ظلم النفس) .

١٩١ حديث « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه » (وانظر ص ٣٢٨) .

١٩١ طلب النبي صلى الله عليه وسلم من أمته الصلاة عليه طلب أمر وترغيب وليس بطلب سؤال .

١٩٢ حديث « سلوا الله لي الوسيلة » (وانظر ٣٢٧)

- ١٩٢ قوله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب « لا تنسنا يا أخى من دعائك » .
- ١٩٤ سؤال الميت ليس بمشروع : لا واجب ، ولا مستحب ، ولا مباح .
- ١٩٤ الشريعة إنما تأمر بالمصالح الخالصة أو الراجعة (وانظر ص ٢٦٤-٢٦٥)
- ١٩٥ ما لم يشرع من العبادات المبتدعة فيه شرك وظلم وإساءة وفساد .
- ١٩٧ الصراط المستقيم : فعل ما أمر ، وترك ما حظر ، والتصديق بما أخبر .
- ١٩٧ قول سفيان بن عيينة : من فسد من علمائنا فيه شبه من اليهود ، ومن فسد من عبادنا فيه شبه من النصارى .
- ١٩٩ لفظ « الوسيلة » و « التوسل » فيه إجمال ، واشتباه (انظر ص ١٥٣)
- ٢٠١ التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم توسل بدعائه في حياته ، وبشفاعته في الآخرة لمن أذن الله له .
- ٢٠٢ مسألة الله بخلقه لا تجوز ، ولا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به .
- ٢٠٤ لأن أحلف بالله كاذبا أهون من أن أحلف بغير الله صادقا .
- ٢٠٥ باء السبب وباء القسم . وحديث : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » .
- ٢٠٦ الفرق بين الإقسام بالله والسؤال بالله .
- ٢٠٦ سؤال الله بأسمائه وصفاته .
- ٢٠٧ السؤال بباء السبب : « أسألك بأن لك الحمد » (وانظر ص ٢٤٥)
- ٢١٠ السؤال بالأعمال الصالحة كسؤال الثلاثة الذين أووا إلى الغار .
- ٢١٢ سؤال الله بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ومحبه وطاعته .

- ٢١٣ هل للمخلوق حق على الخالق ؟ .
- ٢١٤ قول الله لداود : « وأى حق لآبائك على ؟ » (وانظر ص ٣٤٦)
- ٢١٦ الفارق بين المخلوق والخالق .
- ٢١٦ قول قتادة : إن الله لم يأمر الناس بما أمرهم به لحاجته إليهم ، بل أمرهم بما ينفعهم .
- ٢١٧ العمل لا يقابل الجزاء وإن كان سبباً للجزاء .
- ٢١٨ ما أوجبه الله على نفسه بحكمته وفضله ورحمته .
- ٢٢٠ السؤال بالحق الذى أوجبه الله للعباد .
- ٢٢١ العوام إذا سألوا الله بنبيه يريدون ذات النبي صلى الله عليه وسلم لا الإيمان به (انظر ص ٢٤٤)
- ٢٢١ السؤال بحق الرحم وحديث « الرحم شجنة من الرحمن »
- ٢٢٣ دعاء عمر في الاستسقاء المشهور عام الرمادة .
- ٢٢٥ توسل معاوية يزيد بن الأسود الجرشي (انظر ص ٣١٤)
- ٢٢٦ الحكاية المكذوبة على مالك في الاستشفاع بالقبر (انظر ص ٣٥٣)
- ٢٢٦ إجلال السلف للنبي صلى الله عليه وسلم .
- ٢٢٨ تجريح سند هذه الحكاية من أساسه .
- ٢٢٩ قول الأئمة : إذا سلم الرجل على النبي صلى الله عليه وسلم وأراد أن يدعو لنفسه فإنه يستقبل القبلة ويدعو في المسجد ، ولا يستقبل القبر ويدعو لنفسه ، وعند أصحاب أبي حنيفة لا يستقبل القبر وقت السلام عليه أيضاً .

٢٣١ قول مالك: ليس يلزم من دخل المسجد وخرج - من أهل المدينة - الوقوف بالقبر وإنما ذلك للغرباء .

٢٣٢ حديث: « اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد » وكراهة مالك إطالة القيام عند السلام .

٢٣٤ أحاديث زيارة القبر الشريف كلها ضعيفة .

٢٣٤ حكم السفر لزيارة القبور .

٢٣٦ الزيارة الشرعية ، والزيارة البدعية (وانظر ص ٣٠٣) .

٢٣٦ الحديث الصحيح: « ما بين (يتي) ومنبري روضة من رياض الجنة » .

٢٣٦ لو كان نص الحديث « ما بين قبري ومنبري » ما تنازعوا في موضع دفنه .

٢٣٧ من قصد قبور الصالحين للصلاة والدعاء عندها فقد قصد نفس الحرام الذي

سد الله ورسوله ذريعته ، وهذا بخلاف السلام المشروع (وانظر ص

١٦٦ ، ١٦٧) .

٢٣٨ حديث: « صلوا على حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني » .

٢٣٩ بقية نقد الحكاية المكذوبة على مالك .

٢٤١ لو كان طلب دعائه وشفاعته عند قبره مشروعاً لكان الصحابة أعلم بذلك

وأسبق إليه .

٢٤٣ لغة الصحابة التي كان يخاطبهم بها النبي صلى الله عليه وسلم وعادتهم في

الكلام (وانظر ص ١٤٣ ، ٢٤٣ ، ٣٤٤) .

٢٤٣ مغالطات الإسماعيلية وملاحظة المتكلمة والمتصوفة في اختراع المصطلحات .

- ٢٤٣ تأويل الألفاظ الشرعية وتحريفها .
- ٢٤٤ حديث : « أول ما خلق الله العقل » باطل .
- ٢٤٥ تأويل « اللوح المحفوظ » و « القلم » و « الملكوت » و « الشفاعة » في « المظنون به على غير أهله » (انظر ص ١٦٧)
- ٢٤٥ لفظ « القديم » في القرآن خلاف « الحديث »
- ٢٤٦ أمثلة لبعض ألفاظ الشرع وما دخل عليها من تغيير لغة الرسول وأصحابه .
- ٢٤٦ المنقول عن السلف يحتاج إلى معرفة ثبوت لفظه ومعرفة دلالة .
- ٢٤٧ الوسيلة الشرعية هي التقرب إلى الله بطاعته (انظر ص ١٤٣)
- ٢٤٨ مسند أحمد ليس فيه راو يعتمد الكذب . والصحابة لم يعتمد أحد منهم الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم .
- ٢٤٩ لم يعرف تعدد الكذب في التابعين من أهل الحرمين والشام والبصرة . بخلاف الشيعة فإن الكذب معروف فيهم .
- ٢٥٠ الأحاديث المنكرة التي تروى في الفضائل والمناقب .
- ٢٥١ أقسام الحديث قبل الترمذى ثم في اصطلاح الترمذى .
- ٢٥٢ أحاديث السؤال بالمخلوقين واهية وموضوعة .
- ٢٥٢ أحدها يرويه عبد الملك بن هارون بن عنبرة الشيعي الكذاب (انظر ص ٢٩٩)
- ٢٥٣ وحديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم رواه الحاكم وأنكره عليه .
- ٢٥٤ درجات كتب الحديث في الصحة .

- ٢٥٥ الحديث الذى رواه الحاكم (فى ص ٢٥٤) من جنس الإسرائيليات .
- ٢٥٨ حديث يرويه موسى بن عبد الرحمن الصنعاني وهو من الكذابين .
- ٢٦٠ المصنفون فى فضائل الأوقات والأمكنة والأشخاص يروون الصحيح والضعيف .
- ٢٦١ أمثلة أخرى للأحاديث المنكرة والضعيفة .
- ٢٦٢ قول سفيان الثوري فى راوى أحد تلك الأحاديث : إنه كذاب .
- ٢٦٣ حكايات الذين يتلقون الأدعية من الرؤيا فى المنام .
- ٢٦٤ بعض يقصد الدعاء عند الأوثان والكنائس .
- ٢٦٥ لا يجوز أن يكون الشيء واجبا أو مستحبا إلا بدليل شرعى ، وما ليس بواجب ولا مستحب فليس بعبادة .
- ٢٦٥ حديث الأعمى الذى دعا له النبى صلى الله عليه وسلم . فرد الله عليه بصره هو من التوسل بدعائه .
- ٢٦٦ - ٢٧٢ الوجوه التى روى منها حديث الأعمى : منها ما هو صحيح ومنها ما هو ضعيف . قد يكون الراوى حافظا لما يرويه عن شيخ غير حافظ لما يرويه عن آخر .
- ٢٧٣ - ٢٨٤ نقد حديث الطبرانى عن حادث وقع فى خلافة ذى النورين .
- ٢٧٨ الاعتبار برواية الصحابي لا بما فهمه ، إذا خالف فهمه روايته .
- ٢٨٠ مذهب عمر وأكابر الصحابة متابعة النبى صلى الله عليه وسلم فيما فعله على وجه العبادة والتخصيص ، كتقيل الحجر الأسود والصلاة خلف مقام

٢٨٠ إبراهيم ، وكان ابن عمر يتابع حتى فيما فعله صلى الله عليه وسلم بحكم الاتفاق ولم يقصده ، كسيره في مواضع سير النبي صلى الله عليه وسلم ، وصبه فضل مائه على شجرة صب عليها النبي صلى الله عليه وسلم فضل مائه .

٢٨١ المتابعة في السنة أبلغ من المتابعة في صورة العمل .

٢٨٢ مثال لما يسوغ فيه اجتهاد الصحابة .

٢٨٣ ليس لغير النبي صلى الله عليه وسلم أن يسن للمسلمين ولا أن يشرع .

٢٨٣ متى يكون قول الصحابي حجة ؟ .

٢٨٥ القسم الثالث مما يسمى « توسلا » .

٢٨٧ سؤال الله بسبب لا يناسب إجابة الدعاء .

٢٨٧ النقل عن ليس قوله حجة .

٢٨٩ - ٢٩٠ أحكام الإقسام على الله بشيء من مخلوقاته

٢٩١ شبهة من يقول أنا أسأله بمعظم دون معظم من المخلوقات

٢٩٢ - ٢٩٣ نحن مأمورون بالطاعة لله والرسول ، ومنهون عن الخشية

والتقوى إلا لله وحده ، فإن الله لم يجعل لأحد من المخلوقين أن يقسم به

أو يتوكل عليه أو يخشى أو يتقى (وانظر ص ٣٠٦)

٢٩٤ آية (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ)

٢٩٦ - ٣٠٠ (وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا) (نزلت

في يهود المدينة والأوس والخزرج كما روت الأنصار ، ولم تنزل في يهود

٢٩٦ خير وعرب غطفان كما روى عبد الملك بن هارون الشيعي الكذاب
(وانظر ص ٢٥٣)

٣٠١ اليهود كانوا دائماً مغلوبين مع العرب ، لذلك كان بعضهم يحالف فريقاً
وبعضهم يحالف فريقاً آخر ليتمكنوا من استغلال الفريقين :

٣٠٢ اليهود ضربت عليهم الذلة منذ قتلوا يحيى بن زكريا وغيره من الأنبياء
٣٠٣ نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يتخذ قبره مسجداً ، وأن يتخذ عيداً
(وانظر ص ١٦٣)

٣٠٣ حديث : « إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله » (وانظر ص ٣٢٩)

٣٠٤ حديث « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » (وانظر ص ٢٣٨)

٣٠٤ لو حلف حالف بحق المخلوقين لم ينعقد يمينه

٣٠٥ قول إبراهيم في محاجة قومه : (وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ
أَنْتُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ ... فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ) .

٣٠٦ آيتا : (حسبنا الله) و (حسبك الله)

٣٠٨ جعل الهدى في قلوب العباد هو إلى الله لا إلى الرسول

٣٠٩ التوسل بالعمل الصالح على وجهين ، والتوسل بدعاء النبي صلى الله عليه
وسلم وشفاعته على وجهين .

٣١٠ الأصل الأول في دين الإسلام تحقيق الشهادتين (وانظر ص ١٥٤، ١٨٩، ٣٣٣)

٣١١ الأصل الثاني أن لا نعبد الله إلا بما شرعه من واجب أو مستحب
(وانظر ص ٣٣٣)

٣١٣ فتوى شيخ الإسلام وهو بمصر سنة ٧١١ هـ في التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم

٣١٤ - ٣١٥ مقارنة استغاثة الصحابة بالنبي صلى الله عليه وسلم لما أجدبوا على عهده واستغاثه عمر ومن معه من الصحابة في عام الرمادة بالعباس واستغاثه معاوية والصحابة من أهل الشام يزيد بن الأسود الجرشي (وانظر ص ٢٢٣ ، ٢٢٤)

٣١٦ ضلالة ملاحدة وحدة الوجود في استشفاعهم بالله إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

٣١٧ الشافع سائل لا تجب طاعته في الشفاعة وإن كان عظيما .

٣١٧ قول بريرة « أتأمرني ؟ » وقول النبي صلى الله عليه وسلم « إنما أنا شافع » لأن طاعة أمره صلى الله عليه وسلم واجبة بخلاف شفاعته .

٣١٨ كثير من أهل البدع والخوارج والمعتزلة أنكروا الشفاعة لأهل الكبائر (وانظر ص ١٤٩)

٣١٩ حديث : « إذا سألت الله فاسأله بجاهي » مكذوب على النبي صلى الله عليه وسلم (وانظر ص ٣٤٦)

٣٢٠ جاه المخلوق عند الخالق ليس بجاه المخلوق عند المخلوق .

٣٢١ أحاديث النهي عن اتخاذ القبور مساجد مستفيضة .

٣٢٣ - ٣٢٤ حديث الأعمى مبنى على أن الرسول دعاه وأن الأعمى توسل بدعاء الرسول صلى الله عليه وسلم (وانظر ص ٢٢٢ ، ٢٦٥ ، ٢٨٥ ، ٣١٠)

٣٢٥ لو كان التوسل به حياً وميتاً سواء لم يعدلوا عن التوسل به .

٣٢٧ - ٣٢٨ الفرق بين إهداء الثواب للوالدين وإهدائه للنبي صلى الله عليه وسلم .

٣٢٨ دعاء الغائب للغائب أعظم إجابة من دعاء الحاضر لأنه أكمل إخلاصاً .

٣٢٩ حديث : « إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله » وتقدم في ص ٣٠٣

٣٣١ - ٣٣٢ الشفاعة التي لا تغني شيئاً ، وشفاعة الشفيع بإذن الله .

٣٣٣ الأصلان العظيمان : أن لا نعبد إلا الله ، ولا نعبد إلا بما شرع

(وانظر ص ١٥٤ ، ١٨٩ ، ٣١٠ ، ١٦٥)

٣٣٣ قول الفضيل بن عياض : العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ،

وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً .

٣٣٤ حديث « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » .

٣٣٤ العبادات مبناها على التوقيف .

٣٣٦ « أعوذ بكلمات الله التامات » استعاذة بكلام الله وهو من صفاته .

٣٣٨ السؤال بال مخلوق هو سؤال بسبب لا يقتضى حصول المطلوب .

٣٣٨ آية (وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ) .

٣٣٩ دعاء « اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك »

٣٤٢ العامة إذا سألوا الله بنبيه يخرجون عن المعنى الشرعى (وانظر ص ٢٢١)

- ٣٤٣ الإسرائيليات يعتضد بها ولا يعتمد عليها .
- ٣٤٤ الحى يطلب منه ما يقدر عليه ، والغائب والميت لا يطلب منهما شيء .
- ٣٤٥ الرب يقسم بما شاء من مخلوقاته ، وليس لنا أن نقسم عليه إلا به .
- ٣٤٦ ينبغى للخلق أن يدعوا بالأدعية الشرعية الماثورة .
- ٣٤٧ قول العز بن عبد السلام فى فتاويه لا يجوز أن يتوسل إلى الله بأحد من خلقه .
- ٣٤٧ - ٣٤٨ بعض أحاديث الترغيب فى الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم .
- ٣٥٠ الأدعية البدعية على ثلاث مراتب .
- ٣٥٢ إذا سلم الرجل على النبى صلى الله عليه وسلم وأراد الدعاء لنفسه يستقبل القبلة .
- ٣٥٣ عود إلى الحكاية المكذوبة على مالك وتقدم نقدها من ص ٢٢٧ إلى ٢٤٧ .
- ٣٥٤ ما يجوز من سؤال الحى لا يجوز سؤاله الميت لأنه يفضى إلى الشرك ولأن الميت انقطع عنه التكليف .
- ٣٥٥ بيت النبى صلى الله عليه وسلم كان يجوز أن يجعل مسجدا فى حياته فلما دفن فيه صار حراما .
- ٣٥٦ كان مالك يكره أن يقول الرجل زرت قبر الرسول صلى الله عليه وسلم .
- ٣٥٦ حديث : « إذا أعتكم الأمور فاستعينوا بأهل القبور » مكذوب على رسول الله صلى الله عليه وسلم .
- ٣٥٧ فى التوراة أن موسى نهى بنى إسرائيل عن دعاء الأموات .
- ٣٥٨ حديث : « إنا معشر الأنبياء ديننا واحد » .
- ٣٥٩ مالا يجوز فى حق أشرف الخلق وعند قبره أولى أن لا يجوز عند قبور غيره .

٣٥٩ - ٣٦٢ تمثل الشياطين بصورة المشايخ .

٣٦٢ آية : (وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ) .

٣٦٣ حيث يقوى الإيمان والتوحيد وتظهر آثار النبوة تضعف الأحوال الشيطانية .

٣٦٤ قوم فيهم عبادة ودين مع نوع جهل فتلاعب بهم الشياطين .

٣٦٥ حقيقة « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله » (وانظر

ص ١٥٤ ، ١٨٩ ، ٣١٠ ، ٣٣٣)

٣٦٥ الرسول واسطة بين الله وخلقه في تبليغ أمره ونهيه .

٣٦٦ موقف النبي صلى الله عليه وسلم من أصحابه إذا سألوه عن الأحكام .

٣٦٧ وموقفه منهم إذا سألوه عن الله .

٣٦٧ - ٣٦٨ التوحيد القولي والتوحيد العملي .

٣٦٩ قال الشيخ في قول القائل أسألك بحق السائلين عليك ، ما معنى هذا الحديث .

٣٧٠ - ٣٧١ ولما كان الشيخ في قاعة الترسيم . مناظرته الرهبان في دعاء غير الله .

٣٧٢ - ٣٧٣ سئل عن يقبل الأرض هل يأثم والتفصيل في ذلك .

٣٧٤ - ٣٧٦ سئل عن النهوض والقيام الذي يعتاده الناس .

٣ - « فصل » في الانحناء عند التحية .

٣ - ٣٨٠ - « فصل » كان المشركون يعبدون أنفسهم وأولادهم لغير الله .